راينر فونك

الأنا والنحن

التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة



ترجمة وتقديم:
حميد لشهب



Jadawel جداول

الأنا والنحن

التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة

Rainer Funk

Ich und wir

Psychoanalyse des postmodernen Menschen


Deutscher Taschenbuch Verlag (dtv)
Januar 2005

راينر فونك

الأنا والنحن

التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة

ترجمة وتقديم:

حميد لشهب





الكتاب: **الأنا والنحن.. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة**

المؤلف: **راينر فونك**

ترجمة وتقديم: **حميد لشهب**

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

شباط / فبراير 2016

ISBN 978-614-418-312-0

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2016 Beirut

طُبع على نفقة مؤسسة

ريم وعمر الثقافية



المحتويات




مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد


مكتبة
الفكر الجديد

تقديم المترجم

شغلتنا ترجمة: «الأنا والنحن. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة» لأكثر من سنتين كاملتين، تعلمنا فيها الكثير من الأمور، سواء التحليل نفسية في علاقتها بالتحليل النفسي الاجتماعي، كما نظر له إيريك فروم وطوره راينر فونك؛ أو الخلفية المابعد حداثية لثقافة الاستهلاك، التي فرضت نفسها ابتداء من منتصف القرن الماضي. الكتاب زاخر بمصطلحات تحليل نفسية جديدة، يحددها المؤلف في المواضع حيث يستعملها، طبقًا لإطار تحليل نفسي عام، مرجعه الأساسي هي المقاربة الفرومية، التي نجحت بالتأكيد على مدى سنوات من تحليل المجتمع الصناعي في عمقه؛ والتي أثرت فيما بعد في أجيال عديدة من الباحثين في العلوم الإنسانية، وبالخصوص علم النفس وعلم الاجتماع.

تكمن أصالة «الأنا والنحن. التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة»، بشهادة العديد من المتخصصين، في كونه أول محاولة علمية جدية استطاعت وصف إنسان ما بعد الحداثة في شموليته، وتحليل الأسس النفسية والاجتماعية التي تحدد هويته، وإزاحة الغطاء عن الثقافة المابعد حداثية في تجلياتها الاقتصادية، بدراسة الجذور الأيديولوجية لهذه الثقافة وشرح أخطر ما توصل إليه إنسان زماننا من استلاب وتغريب، عن ذاته وعن الآخرين.

تتشابك العوامل التي أدت إلى تكوين هذا الطبع المجتمعي المابعد



حداثي الجديد وتتعقد، مفرزة «توجه أنا» جديد كل الجدة، لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانية، درسه فونك في هذا الكتاب باستفاضة وعمق، سيكتشفها القارئ والقارئة الكريمان خطوة خطوة مع المؤلف. وعلى الرغم من أن الكاتب والكتاب متخصصان، فإن فونك قد نجح في إيصال المضامين المختلفة لموضوع دراسته بلغة أكاديمية عالية الجودة في متناول جمهور عريض من المهتمين، وقد لقي هذا الكتاب إقبالًا كبيرًا عليه في العالم الجرماني أثناء صدوره، وما يزال محور اهتمام الكثير من الدوائر الأكاديمية، وما استدعاء فونك للمحاضرة في صلب موضوع الكتاب في العديد من المؤسسات الجامعية إلى حد الساعة إلّا شاهد إثبات على أهمية هذه الدراسة.

ما شجعنا على الاهتمام بترجمة هذا المؤلف إلى اللغة العربية هو كون ما يصفه الكاتب موجود بدرجات متفاوتة في بلداننا العربية والإسلامية. أُقحم الإنسان العربي المعاصر على الرغم من أنفه في عالم استهلاك سلبه بصره وبصيرته، بمعنى جرده من ملكاته العقلية، فاسحًا أبواب غرائزه الحيوانية البدائية على كثرتها أمام عدمية محققة، حتى ليُخيل للمرء بأن هذا الإنسان كلما زاد وعيًا بوضعه كإنسان، ارتفعت وتيرة لهفته على الاستهلاك الأعمى لما تقذف به معامل التصنيع في «السوق الحرة». ويصبح الاستهلاك إدمانًا، شأنه في ذلك شأن كل نوع آخر من الإدمان، عندما يصبح شعورًا لاواعيًا، يتمظهر في شكل قهري، يفرض على المرء الدوران الأزلي في حلقة مفرغة، تُفرغه من كل مقوماته الإنسانية، لا يشبع ولا يرتاح؛ بل كلما تخيل أنه شبع، كبر جوعه للاستهلاك أكثر.

يصبح الاستهلاك إدمانًا بالمعنى المرضي للكلمة، عندما تتجاوز



محاولة إشباع الرغبات عتبة ضروريات الحياة من مأكل ومشرب ولباس ومسكن، إلى الرغبة في الوصول إلى قمة الثانويات، ومُصاحبة هذه الرغبة بانفعالات وجدانية تتأرجح بين ضغط نفسي للحصول على هذا الثانوي وترجمة هذا الضغط في الواقع بسلوكات بعينها وبين الشعور بخيبة الأمل، وتجلي هذا الأخير في سلوكات ظاهرة للعيان. ولا تنحصر الثانويات في كل ما لا يساهم مباشرة في تلبية الحاجات البيولوجية للإنسان، أي الضروريات، بل إن هذه الأخيرة لم تعد منحصرة على ما هو أساسي بل أصبح فيها ما هو ثانوي أيضًا، يكون مرغوبًا فيه ويصبح الشغل الشاغل للإنسان.

للاستهلاك كإدمان، يعني كحالة مرضية حقيقية، أسسه العتيدة منذ الثورة الصناعية وظهور الفائض عن الحاجة ورغبة الرأسمال في تسويق هذا الأخير بكل الوسائل المتاحة. وبما أن منطق التصنيع قد تطور مع القرون من منطق تسويق الفائض عن الحاجة إلى منطق تصنيع ما ليس ضروريًا البتة، وإيهام البشر بأن هذا اللاضروري هو أهم شيء للمستهلك، فإن إشكالية الاستهلاك كإدمان مرضي غير صحي، بل ومعدٍ، قد تأكدت. فبموازاة تطوير منطق التصنيع لأدوات الإنتاج وتنويع المنتوجات، طور آليات تسويق تستهدف في المقام الأول اللاشعور وشحنه بكل ما يسلب الإنسان ملكة التفكير ويحرمه منها، عن طريق تقنيات إيحائية، بل تنويم مغناطيسي معقد ومتشعب، يسقط في حباله حتى «أعقل» و«أفطن» و«أنقد» إنسان دون وعي. والنتيجة هو أن الإنسان يتوهم بأنه حر، لكنه في العمق مسلوب الإرادة، تفرض عليه مُستهلكات هو في الحقيقة في غنى عنها، لكن يتهيأ له بأنه في حاجة ملحة لها، ليس بالضرورة لكي

يعيش، بل ليكون كالآخرين، مقاومة منه للشعور بالدونية والإحساس الوهمي بالتفوق. أي بناء هوية مُصطنعة، قشورية، ما يهمها هو نظرة الغير لها، وليس الرضى الذاتي على النفس على أساس مقومات عقلية. بمعنى طغيان التفكير الوجداني على حساب التفكير المعرفي العقلي، وحيثما طغى الوجدان، طغى اللاشعور بجذوره الحيوانية العميقة، ليصبح الإنسان أداة طيعة في مهب ريح الاستهلاك الأعمى، العبد الطيع لسيده: «التصنيع».

تتجلى أعراض الاستهلاك كإدمان باتولوجي في سلوكات فردية وجماعية لا حصر لها، لا يسعنا في هذا المقام إلّا ذكر البعض منها. يقابل الادخار كقيمة شبه أخلاقية للأمس منطق التبذير والعيش فوق الطاقة، تحت وطأة الديون وما يترتب عن ذلك من ضغط نفسي واجتماعي. لم يعد المرء يخاف من الاقتراض، لأن هذا الأخير لم يعد يربطه بشخص معين، بل بمؤسسة مالية «مجهولة»، همها الأساسي المعلن هو «الدفع بالتقسيط»، ليعيش الإنسان «مرتاح البال»، أي في العمق عبدًا، ليس فقط لعمله، بل وأيضًا لهذه المؤسسة. يتمظهر إدمان الاستهلاك على المستوى الفردي في الهوس بكل ما هو جديد والرغبة الملحة في اجتهاد المرء لأن يكون من أوائل من يقتنيه، لأن هذا النوع من السبق يوحي له بأنه شخص استثنائي، على اعتبار أن منطق السوق يغذي وهم الانتماء إلى «النخبة». دون وعي منه، يجد الإنسان نفسه ضحية منطق منافسة استهلاكية، يقارن نفسه بأناس وهميين أو حقيقيين، لا تسمح له نفسه أن يكونوا «أحسن» منه. بمعنى أن ميكانيزم التعويض الذي يسمح به «قانون» الاستهلاك، يخفي في العمق الفقر الوجودي للشخص وعدم ثقته بنفسه ورضاه عنها.

يتمثل تمظهر الإدمان الاستهلاكي على المستوى الاجتماعي في نوع



من الهستيريا الجماعية من أجل اقتناء منتوج معين، كما يحدث عندما يسوق منتوج تكنولوجي لأول مرة أو عند بداية «مواسم» التخفيضات في المحلات التجارية، واكتظاظ المستهلكين على أبوابها. إضافة إلى هذا، فقد انزلق مفهوم «الزبون»، الذي كان يعني نوعًا من الوفاء لمحل أو بضاعة بعينها، ليعني حاليًّا «المستهلك»، الذي لا يعني أكثر من عابر سبيل، لا تهمه العلاقة الإنسانية في العملية التجارية بصاحب المحل، بقدر ما يهمه ما يقدمه له هذا المحل مما جد من البضائع. وبهذا، لم يعد صاحب المحل هو محور العلاقة التجارية اجتماعيًّا، بل المحل في حد ذاته، وبالخصوص إذا كان مقرونًا بماركة معينة.

ككل نوع من أنواع الإدمان، فإن للإدمان على الاستهلاك عواقب صحية لا يجب الاستهانة بها، لخطورتها بالنسبة للفرد وللمجتمع. فالضغط النفسي الذي ينتج عن هذا الوضع اللاصحي بالنسبة للفرد يُترجم في اضطرابات نفسية واضحة المعالم كالقلق المزمن الذي قد يفضي إلى الكآبة، بكل أعراضها الجسد ـ نفسية. أما على المستوى الاجتماعي، فإن حدة التنافس الصراعي على الاستهلاك، تؤدي إلى تعميق الصراع الطبقي، الذي يصل أوجه في الاعتداء العلني على ملك الغير والسرقة الموصوفة وتفشي الجرائم والشعور بانعدام الأمن أو انعدامه الفعلي. وأهم خاصية له كمرض اجتماعي هو عدم الحرج في استغلال السلطة، ولو كانت صغيرة، وقبول أو المطالبة بعلاوات ورشاوي والاتجار بالمخدرات بكل أنواعها واللجوء إلى النصب والاحتيال بكل وجوهه.

«إعلان الحرب» ضد الإدمان على الاستهلاك هو «إعلان للحرب» ضد اللاوعي الفردي والجماعي والرجوع إلى كفاءاتنا العقلية ومهاراتنا



الاجتماعية، لتخليص ذواتنا من أكبر استعمار فرض علينا، ألا وهو استعمار أرواحنا وعقولنا وأنماط حياتنا وسلوكنا؛ خاصة ونحن نعلم بأن القدر الأوفر مما نستهلكه لا ننتجه بأيدينا وليست لنا أية فكرة كيف وبماذا ولماذا ينتج.

حميد لشهب

فيلدكيرخ، النمسا

في 6 كانون الثاني/ يناير 2016 م



توطئة

لربما يوقظ عنوان هذا الكتاب «الأنا والنحن» تصورات مختلفة عن بعضها البعض. ليس المقصود بـ «الأنا» وبـ «النحن» مفاهيم فلسفية أو سيكولوجية مجردة، لكنها تعبير عن معيش أناس يكثر عددهم باستمرار. يقول الكثيرون اليوم بوعي تام «أنا» ويريدون عيش أناهم، دون أن يكونوا بذلك أنانيين.

ليس هناك فقط هذا «الأنا المنطوق» وهذا «الأنا المعاش»، الذي يعتبر بالنسبة للبعض ضروريًّا وبالنسبة للبعض الآخر غير مألوف. هناك أيضًا «معاش النحن» جديد، نوع جديد من التنشئة الاجتماعية والمعنى المشترك، يوجد في هذا «الشعور بالنحن»، الذي لم يعد بإمكان البعض الاستغناء عنه، لكنه ينظر له آخرون بريبة، يمجده البعض كشعور جديد بالمسؤولية، أُسيء فهمه.

طبقًا لهذا الفهم التحليل نفسي الذي اخترناه هنا، فإن كلا الشكلين الجديدين لـ «معاش الأنا» و«النحن» ناتجان عن «توجه أنا» جديد، سنصفه ونتقصى معناه في هذا الكتاب. المقصود بـ «توجه الأنا» هو مطلب نفسي أساسي، توجه للطبع جديد، يطبع باستمرار فكر وإحساس وسلوك الناس، المطبوعين بدورهم بأنماط عيش وعوالم بعد حداثية.

قد يعتقد المرء عند شرح شخصية ولخاصيات الطباع لإنسان المابعد الحداثي بأنه لكل الناس توجه لـ«الأنا». يعاني كل علم للطباع في محاولته



إخراج ما هو خصوصي في الطبع بطريقة من الطرق، وكأن ليس بعد هذا الخصوصي أي شيء آخر يذكر. لابد أن نعرف بأن توجه «الأنا» لا يوجد حاليًّا حسب الأبحاث التجريبية إلّا عند ثمانية إلى أحد عشر بالمئة من الناس في ألمانيا. ونجد هذا التوجه بالخصوص عند الناس العاملين في إخراج عوالم حياة وفي الإعلام، وبهذا يكون حضورهم في الساحة العامة/ العمومية أقوى.

يلاحظ عند أغلبية الناس خليط من توجهات الطبع المختلفة، وبما أنها توجهات طبع فمن اللازم فهمها دائمًا كمتطلبات أساسية معاشة بغريزة، ولهذا السبب فإنها تشرح لماذا يكون الكثير من الناس في هذه المرحلة الانتقالية لهذا الزمان غير واضحين ومتناقضين في سلوكهم.

سوف لن أتطرق هنا إلى الدراسات الميدانية لهذه الملاحظات ولمعاني التحليل النفسية لتوجه «الأنا»، على الرغم من أنني كنت عضوًا في مجموعة عمل تجريبية لمعهد العلوم الاجتماعية للإشكاليات الحالية بمانهايم Mannheim، التي كان موضوعها توجه الطباع المابعد حداثي، وهذا ما نحلله في هذا الكتاب. وسينشر باحثون آخرون شاركوا في هذه الدراسة دراساتهم في المستقبل القريب.

فهمت في إطار عملي في مجموعة العمل هذه الكثير عن «الوسط المابعد حداثي»، الذي درس منذ تسعينيات القرن الماضي عن طريق يورغ أولتسهوفر Jörg Ueltzhöffer، الذي اكتشف نموذج «الوسط الاجتماعي» وهو إلى جانب هذا مدير معهد العلوم الاجتماعية للإشكاليات الحالية بمانهايم. فقد استفدت منه ومن غيرد ميير Gerd Meyer ورولف فرانكنبيرغ Rolf Frankenberg، اللذين كانا أيضًا في مجموعة العمل هذه، فيما يخص دراستي هذه حول الخاصيات الشخصية للإنسان المابعد حداثي.

فقد ساعد العمل المشترك في اختيار روائز items البحث التجريبي لدراسة الطبع المابعد حداثي، كما ساعد تبادل وجهات النظر الغني وبالخصوص مع غيرد مبير، على التمييز الدقيق بين ما يجمع وما يفرق الإشكاليات السوسيولوجية والتحليل نفسية.

أشكر كل الذين تناقشت معهم والعارفين لأعمال إيريك فروم، ذلك أنني طورت هذا التوجه الجديد للطباع عن طريق أعماله التحليل نفسية والسيكو ـ اجتماعية. وأخص بالذكر هنا بالنيابة عن أعضاء الجمعية العالمية لإريك فروم للخمس عشرة سنة الأخيرة غيرد مبير من توبينغن Tübingen وبيرنت سالر Bernd Sahler من فرايبورغ و ميكائيل ميككوبي Michael Maccoby من واشنطن وسالفادور ميلان وسونيا غويمان من ميسيكو سيتي وفولفغانغ ج. فيبر من إنزبروك وبيتر كورون من بريمين.

عندما تناقش الأفكار لمدة طويلة وتنضج وتتخذ شكل كتاب، فإنها تكون في حاجة إلى المزيد من التمحيص والمراجعة النقدية. وأشكر في هذا المقام زوجتي ريناطا أوكتر ـ فونك Renate Oekter-Funk وابني مارتين Martin ويان ديتريخ Jan Dietrich على اقتراحات التعديل وتصحيحاتهم لمسودة هذا الكتاب. وقد شجعتني دار النشر **Deutscher Taschenbuch Verlag** على إصدار هذا العمل، وأخص بالشكر هنا د. أندريا فورلا Dr. Andrea Wörle وهانالورا هارتمان Hannelore Hartmann، اللتين خصصتا الكثير من الوقت للتصحيح اللغوي النهائي لهذا الكتاب.

راينر فونك

توبنغن، صيف 2004م




مكتبة
الفكر الجديد

مدخل

فهم الإنسان المابعد حداثي

يقود كل تغير في الاقتصاد وفي المجتمع إلى تغير في الشخصية كذلك. وتتمظهر هذه التغيرات بالخصوص في فئات اجتماعية بعينها أو في مجموعة مهنية ما أو في فئة عمر أو ثقافة فرعية أو في نمط عيش محدد أو في وسط ما. يتطور إذن نوع جديد للشخصية، يؤثر إلى حد كبير في سلوك الناس وفكرهم وشعورهم وممارساتهم. ليس السلوك وحده هو الذي يتأثر بهذا النوع الجديد للشخصية، بل أيضًا تمثل القيم والصورة التي يحملها المرء عن نفسه وعن الآخرين والمحيط والمستقبل والإمكانيات الذاتية وحدودها، التي تميز هذا النوع الجديد من الشخصية بالمقارنة مع الأنواع الأخرى المعروفة في وسط ما. ويكون لتكرار ظهور هذا النوع الجديد للشخصية نوع من الاستفزاز، الذي يسمح للمنتمين له بالاختلاف الفعلي عن الآخرين.

« أَنَا هُوَ أَنَا، طَالَمَا أَنَّ أَنَا هُوَ أَنَا»

إن استفزاز النوع الجديد للحياة الذي يمكن ملاحظته اليوم هو: «أنا هو أنا، طالما أن أنا هو أنا». الظاهر أن لأناس كثيرين حاجة ومتعة في التحرر من كل الإكراهات والصلات والوصايات والاعتماد على النفس وامتلاك الذات وتقرير مصيرها. وشعار نمط حياتهم وفن عيشهم هو بهذا

اختيار ذاتي استفزازي: «أنا هو أنا، طالما أن أنا هو أنا وأنت هو أنت طالما أن أنت هو أنت». ويظهر هذا أنانية أو نرجسية، لكنه ليس كذلك، كما سنوضح ذلك.

لا يتعلق الأمر عند هذا التوجه الجديد للأنا بتجاوز الأسس السلطوية والتبعية لها، ذلك أنه لا يكون في الحياة الفعلية الواعية ضد شيء ما أساسًا، لكنه يكون مع شيء ما: مع الحرية، تطبيق الأنا عفويًّا كجواب على تجربة في الحياة، تتضمن من جهة إمكانيات لا حد لها لخلق ذاتي مدهش للواقع، ومن جهة أخرى يظهر وكأنها تقدم رد فعل هادف على تكسر كل أسس الركائز والتوجهات القيمية في الاقتصاد والمجتمع.

إن توجه الأنا هو نوع جديد للحياة، وهذه الأخيرة نابعة من نمط للشخصية لم يسبق له مثيل في انتشاره وبحثه عن الاعتراف به كنموذج معاصر للحياة. إنه إذن ظاهرة سيكو ـ اجتماعية، لا يجب فهمه في إطار التغيرات الكبرى للاقتصاد والمجتمع فقط، بل أيضًا في إطار ما يسمى بالفلسفة المابعد حداثية والفن والأدب والعلوم الاجتماعية، بما أنها وجدت رواسبها في عوالم الحياة ونماذجها المابعد حداثية.

تَعْتَرِضُ كل من يهتم بتوجه الأنا المابعد حداثي تناقضات خاصيات سلوكية لم يعهدها من قبل، لكن الإنسان المابعد حداثي لا يعتبرها هكذا، بل يعيشها كخالية من التناقضات. فرغبته في أخذ قراراته وحده بحرية وبعفوية لا تستبعد شعوره بالانتماء إلى مجموعة بشرية ما. باعتباره مطابقًا لذاته، فإنه يعيش ذاته في أقصى الحدود في نوع من الهوية المرقعة patchwork-Identität، بحيث لا وجود لأي ممر «للخاص»، لكنه يهتم كثيرًا بإشكالية ما إذا كان هو نفسه والآخرون أصيلين. ليس هناك



أيّ تناقض بالنسبة للإنسان المابعد حداثي للعيش لذاته ومع ذاته ويقرر لنفسه ومع نفسه ما يروق له، لكن له أيضًا حاجة ماسة للإحساس بالانتماء والتواصل مع الآخرين. وبهذا فإن توجه الآنا والشعور بالنحن لا يقصي الواحد الآخر. وعلى الرغم من أنهما هكذا في الواقع، فإن عيش الارتباط بالآخرين مهم جدًّا بالنسبة لتوجه الأنا.

«الارتباط يحرر»

يمكن التعبير عن الاقتناع الثاني لتوجه الأنا مع جيريمي ريفكين Jeremy Rifkin هكذا: «الارتباط يحرر»[(1)]. والواقع أن الأمر هكذا بالنسبة لكل من كبر برغبة التحرر من كل ارتباط، وهذا بديل مثير.

كيف يمكن إذن شرح هذا الاقتناع المعاش من طرف توجه الأنا المابعد حداثي واعتباره غير متناقض من طرف التحليل النفسي، بل الانطلاق من كونه طريقة تعبير؟

قدم إيريك فروم نموذجًا خاصًّا لحل هذه الإشكالية، عندما ميز في إطار دراسته للتوجه السلطوي، الذي يكون مجذوبًا بالتسلط دائمًا، بين الشكل «الخامل» والشكل «النشيط»: هناك ولع لممارسة السلطة بطريقة سادية كبيرة أو صغيرة، وهناك في مقابل هذا ولع لممارسة هذه السلطة

(1) جيريمي ريفكين Jeremy Rifkin. ص 322، 2000.

Jeremy Rifkin (* 26. Januar 1945 in Denver, Colorado) ist ein US-amerikanischer Soziologe, Ökonom, Publizist sowie Gründer und Vorsitzender der Foundation on Economic Trends (FOET; Sitz in Washington, D.C., USA). Er unterrichtet unter anderem an der Wharton School der Universität von Pennsylvania[1] und ist Berater diverser Regierungen und auch der EU-Kommission. Er gilt als Theoretiker der Zugangsgesellschaft.[2]

بطريقة مازوخية. يتمظهر التوجه السادي اتجاه العالم الخارجي عن الذات (كرغبة في التحكم في الآخرين)، كما يتمظهر اتجاه الذات (كسيطرة على الذات وضبط ذاتي إلخ). ويتمظهر التوجه المازوخي كذلك إما اتجاه الآخرين كرغبة في الخضوع لهم وقبول عقابهم وسلطتهم أو اتجاه الذات كرغبة في العذاب الذاتي والتضحية بالذات والإيثار.

كما هو الشأن في التوجه السلطوي، يمكن التمييز في توجه الأنا المابعد حداثي بين نوع نشيط ونوع خامل. ويسمح هذا التمييز بشرح الكثير من تناقضات الخاصيات السلوكية والطباعية وتساعد على الشعور أكثر بالظواهر الاجتماعية، التي لم ينتبه لها أغلبية السوسيولوجيين والسيكولوجيين الاجتماعيين، ولم تربط بنموذج الشخصية المابعد حداثية أو اعتبرت كتجاوز لتوجه الأنا المابعد حداثي وتأويل ذلك كتنشئة اجتماعية جديدة.

توجه طباعي «مابعد حداثي»

سنعرض في هذا الكتاب توجه الأنا المابعد حداثي كنموذج للشخصية وللتوجه الطباعي. ومن المشروع أن يتساءل المرء ماذا نعنيه هنا في الحقيقة بـ«مابعد الحداثة». إن ما يهم في مصطلح «مابعد حداثي» واستعماله في إطار الطباع، ليس هو مطلب الفلسفة المابعد حداثية، بقدر ما يهم قبول واستقبال طريقة العيش المابعد حداثية، التي تتأسس من طبيعة الحال على تمثلات مابعد الحداثة.

كثرت المؤلفات المخصصة لمفهوم مابعد الحداثة واستعماله وبالخصوص في الفلسفة والفن والأدب والعلوم الاجتماعية، إلى درجة أنه أصبح من الصعب الإلمام بكل هذه التعاريف. وقد قدم

درجة أنه أصبح من الصعب الإلمام بكل هذه التعاريف. وقد قدم فولفغانغ فيلش[1] Wolfgang Welsch تعريفًا ملفتًا للنظر. تطور الفكر المابعد حداثي في الهندسة والفلسفة بالخصوص وكذا في البحوث الأنثربولوجية ـ الثقافية والإثنولوجيا المقارنة، التي تشير كلها بأن تصورنا للإنسان وللواقع هو دائمًا بناء ذاتي لنا، بحيث إن الواقع المدرك بصفة نهائية والمعطى لا يوجد بالفعل. إذا أراد المرء معرفة الواقع، فعليه أن يقوم بعملية إخراج وبناء له، بطريقة يكون بالإمكان فيها «فك شفرة dekodieren» وتفكيك المعطى. وينطبق هذا كذلك على كل تمثل وكل صورة لما هو الإنسان. فحتى العقل أصبح «متعددًا»: «في تفكيك الإحداثيات Koordinaten الأساسية للفهم الذاتي الحديث، فإن ما وضع موضع تساؤل هي بالخصوص تمثلات الوحدة، الاستمرارية، التماسك، منطق التطور أو التطور»[2].

أصبح عقل الأنوار الذي كان مقدسًا بالنسبة للحداثة محط تساؤل من طرف الفكر المابعد حداثي. من هذه الزاوية هناك إلى حد ما البعض من التشابه بين الفكر التحليل نفسي والفكر المابعد حداثي. ذلك أن كليهما يَشُكَّانِ فيما هو معطى ومؤكد ويركزان على فك الشفرة وإزاحة الغطاء والنسبية على ما يعطى كـ «طبيعي»، «معقلن»، «موضوعي»، «العقل الإنساني الصحيح». لكن لا يتقاسم الفكر المابعد حداثي مع التحليل النفسي تأكيد هذا الأخير بأن من وراء الواقع الواعي، هناك واقع مضمر،

(1) فولفغانغ فيلش Wolfgang Welsch 1997. انظر كذلك J. – F Lyotard 1999 و Z. Baumann 1999.

(2) انظر: H. Keupp, S. 30, 1999.



حداثي الذهاب إلى العمق أو إلى واقع آخر. على العكس من هذا فإنه يرى في مثل هذه المحاولات الغطرسة الحقيقية ووصاية الأنوار والحداثة.

لا يمكن هنا الاهتمام فلسفيًّا بحدود الادعاء المابعد حداثي، لأنه لا يهتم كثيرًا بأسلوب العيش المابعد حداثي. نجد إذن أهم المؤشرات لوصف التوجه الطباعي المابعد حداثي، في الأماكن التي يكون فيها أسلوب العيش المابعد حداثي منتشرًا ومقدمًا، في العوالم المعاشة بطريقة استعراضية في التسلية والصناعة المرتبطة بوقت الفراغ والإشهار (الدعاية) وفي الموضة وفيما يسمى البحث المستقبلي في أوساط الاستهلاك وفي الشركات الاقتصادية ذات نجاح في استراتيجية تسويقها وكذا في أجهزة النشر والإعلام، التي اتخذت من نمط الحياة المابعد حداثية أسلوبًا لها.

مداخل تحليل نفسية

في الوقت الذي نجد فيه سلسلة من أوصاف الأوضاع الاجتماعية المابعد حداثية من الناحية السوسيولوجية والسوسيو ـ سيكولوجية، تعتبر أعمال أوليرك بيك Ulrich Beck وغيرهارد شولتسا Gerhard Schulze من أهمها في الأوساط الناطقة بالألمانية، فإننا لا نجد إلّا عددًا قليلًا من المحاولات التحليل نفسية التي اهتمت بوصف هذا النموج الشخصي الجديد وإظهار ديناميكيته النفسية. وعلى مثل هذه المحاولة أن تتخطى الكثير من العقبات. أولها هو أن التفكير السوسيولوجي هو المعروف أكثر عند العموم، ولا تعتبر المحاولات السيكولوجية إلّا جانبية في هذا الإطار. ثانيها هو أن ما يغلب على الدراسات السيكولوجية التي اهتمت بالموضوع هو السيكولوجية المعرفية وسيكلوجية السلوك، التي ولكي



تبقى وفية للعلوم الطبيعية، فإنها تطبق أدوات هذه الأخيرة للبحث في السلوك باستقلال عن مواضيع/ ذوات المبحوثين. إضافة إلى هذا، فإن التحليل النفسي يركز بالخصوص على البعد المرضي للأفراد ولا يأخذ بعين الاعتبار الأبعاد السيكو ـ اجتماعية والتحليل نفسية لهذه الأمراض كما قام بذلك إيريك فروم مثلًا.

يحاول التحليل النفسي التمييز بين التفكير والإدراك الواعيين واللاواعيين ولا يكتفي بالوعي اليومي للناس، بل يتساءل عن معاش الأنا اللاواعي. من هنا فإنه يفترض بأن هناك سببًا وراء الاختلاف في بعض المرات بين معاش الأنا الواعي واللاواعي. ويكمن سبب هذا في نظره في كون السلوك الإنساني لا يتفاعل فقط مع مثيرات محددة، لكنه يكون محددًا في الغالب من طرف الرغبات الغريزية الخاصة به. ولأن هذه الرغبات قد تكون متناقضة مع الصور والانتظارات التي تكون للآخرين عن شخص ما أو التي تكون للشخص عن ذاته، فلا يحق لها أن تمر إلى الوعي أو يكون من اللازم أن تُكبت.

تنطلق كل نظرية تحليل نفسية عن الشخصية من فرضية تتمثل في كون ردود الفعل السلوكية النموذجية للناس تكون محددة كذلك عن طريق القوى الغريزية النفسية dynámeis، التي تعطي للسلوك شغفًا واعيًا أو غير واعٍ محدد ودقيق، وهي كذلك سبب الشكل الخاص للسلوك الفردي (الطِباع). يحاول التحليل النفسي إذن شرح السلوك بطريقة «نفسديناميكية» من خلال هذه القوى الغريزية النفسية.

سنحلل في هذا الكتاب بهذه الطريقة التحليل نفسية توجه الأنا كتوجه طباعي جديد. ويعني توجه الطباع دائمًا ميلًا أساسيًّا، يعطي للسلوك تعبيرًا



خاصًّا ومحددًا للرغبة. إذا كان هذا الطبع لاواعيًا، فلا يمكن التعرف عليه إلّا عن طريق تأويل خاصيات السلوك. وتعتبر مثل هذه التأويلات بالنسبة للكثيرين سبب الخلاف، وينظرون إلى هذا كادعاء المعرفة وولادة ثمينة للتحليل النفسي. قد يكون الاختلاف صحيحًا في بعض الأحيان، أما مسألة ادعاء الحقيقة في التحليل النفسي، فإنه مؤسس على الخلط بين الفهم التأويلي والتقويم.

فُهِمَت هذه القوى الغريزية كتوجه طباعي منذ سيغموند فرويد، وهي طباع تتمظهر كسمة خاصة. على خلاف تمظهر الطباع الأخرى، كسلوك الموضة أو السلوك رد الفعل المنعكس أو السلوك الموحى، فإن السلوك المشروط بالطبع يتميز بكونه يكون مُسَببًا من طرف قوى غريزية نفسية واعية وغير واعية.

إذا كان توجه الأنا المابعد حداثي توجه طباع مستقلًّا بالفعل، فلا يمكن إرجاع ما يميز السلوك المابعد حداثي إلى توجه طباع آخر والتحديد الخاص لأنا هذا الطبع كالأنانية والنرجسية والتوحد والذاتية والتحكم السلطوي وتسويق الأنا والرغبة في الاستقلال، بل إنه يقدم قوة دافعة فريدة من نوعها. يتعلق الأمر إذن في هذا الكتاب بالبرهنة على الديناميكية النفسية لتوجه الأنا المابعد حداثي كتوجه للطباع.

من فرويد إلى فروم

طور إيريك فروم جوهريًّا في نظريته حول الطبع المجتمعي نظرية سيغموند فرويد المتعلقة بالطبع. ذلك أن للطبع المجتمعي من بين ما لديه وظيفة مصفاة لما يصبح واعيًا ولما يجب أن يبقى لاواعيًا أو يُجعل منه لاوعيًا عن طريق الكبت والإنكار. فعن طريق السيكولوجية الاجتماعية



التحليل نفسية التي طورها فروم يمكن فهم ليس فقط توجه الأنا المابعد حداثي الطباعي وتمييزه في ديناميكيته النفسية عن توجهات طباعية أخرى، بل أيضًا فهم اللاوعي والمكبوت المجتمعي. وقد قام فروم نفسه بذلك في تحليله للبعض من توجات الطبع المجتمعي كالتوجه التسلطي أو توجه التسويق، لكنه لم يدرس توجه الأنا المابعد حداثي. إن المعارف المتعلقة بالتحليل النفسي للإنسان المابعد حداثي لا ترجع إلى فروم، لكنها تعتبر نتيجة تطبيق عمله التحليل النفسي على الوضع الراهن.

يربط الكثير من الناس «التحليل النفسي» بنظرية فرويد حول الجنس، التي تتطور في السنوات الأولى في الحياة عن طريق دينامية داخلية خاصة بها. ولا يكون للمحيط في تَكَوُّنِ الرغبات الجزئية الكثيرة، الواعية وغير الواعية، إلّا دور التعديل. ويظهر بأن نظرية فرويد حول الغرائز صالحة لفهم الرغبة النفسية الفريدة والغريزية الجامحة. تتميز السلوكات الإجبارية والمدمنة والعصابية والمرضية والسلوكات المشروطة من طرف الطبع بطموحها في التحقق، حتى وإن كان هذا التحقق ضد أو في غير صالح المعني بالأمر. لكن لا يكفي المعاش الغريزي لشرح الإرادة النفسية عن طريق غريزة بيولوجية. وقد ساهمت المقارنة بين الثقافات والمحاولات السيكو ـ اجتماعية على العثور على ما يجمع الفكر والإحساس والفعل في المجموعات الاجتماعية في وعي المحللين النفسيين بعدم شرح المعاشات الغريزية بمبدأ الغرائز.

تخلص فروم في الثلاثينيات من القرن الماضي من نظرية الغرائز الفرويدية فيما يخص إشكالية كيفية تَكوُّن الطبع، الذي يقود الناس إلى التفكير والشعور والسلوك بطريقة متشابهة. يتوقف أي طبع مجتمعي بالنسبة لفروم على: «ضرورات مجتمع معين، وهي ضرورات تُكَوِّنُ

طبع الأفراد بطريقة يقوم فيها الناس بعمل ما يجب عليهم عمله، لضمان الاشتغال الصحيح للمجتمع. يتوقف ما يَتَمَنَّوْنَ القيام به على الرغبات المسيطرة في طباعهم، وهي رغبات مُشكلة من طرف ضرورات ومتطلبات نظام مجتمعي معين»[1].

للطبع المجتمعي وظيفة تثبيت اجتماعية مهمة، ذلك أن مهمته هي: «تشكيل طاقات أعضاء هذا المجتمع بطريقة لا يكون سلوكهم نابعًا من قرارهم الواعي وما إذا كانوا يريدون التشبث بالنموذج المجتمعي الذي يعيشون فيه أم لا[...] ويرضيهم في الوقت نفسه لكي يسلكوا طبقًا للمتطلبات الثقافية»[2].

تُعاش الرغبة المشروطة طباعيًّا كرغبة غريزية، لكنها تصدر من الرغبة التنافسية والراعية والهدامة أو المساعدة وهي ليست ديناميكية غريزية جوهرية، لكنها نتيجة عملية تكيف الحاجات النفسية مع متطلبات المجتمع. وفي كل هذا، فإن المجتمع هو الذي يقرر ما هي الأفكار والإحساسات التي يمكن أن تمر في وعي الفرد وتلك التي من الضروري أن تبقى غير واعية: «فكما أن هناك طبع مجتمعي، فإن هناك لاوعيًا مجتمعيًّا»[3].

طبقًا لفروم، يُفهم تطور وتأثير التوجه الطباعي المجتمعي بطريقة صحيحة عن طريق «قدر الحياة المشترك»[4] أي من «الممارسة الحياتية

(1) إيريك فروم، الأعمال الكاملة. 1979a, GA VIII, S. 307

(2) إيريك فروم، الأعمال الكاملة. 1962a, GA IX, S. 90

(3) إيريك فروم، الأعمال الكاملة. 1962a, GA IX, S. 96

(4) إيريك فروم، الأعمال الكاملة. 1930a, GA VI, S. 16 وكذا: 1931b, GA, S. 32



لمجموعة ما»[1]، وهي التي تميز الناس الذين يفكرون ويشعرون ويسلكون بالطريقة نفسها. وينطبق هذا من طبيعة الحال في الأماكن التي يقوم فيها توجه طباعي مجتمعي جديد كتوجه الطباع المابعد حداثي.

مداخل سوسيولوجية

أظهر أولريك بيك بالخصوص في ميدان العلوم الإنسانية الجرمانية كيف قاد التحديث إلى «فردانية ثلاثية»: «للتحرر من الأشكال والارتباطات الاجتماعية التاريخية المعطاة»، وهي التي تساهم في استقلال البشر، «ضياع الضمانات التقليدية»، «نوع جديد من الترابط الاجتماعي»[2]. قادت تأثيرات «الحداثة الثانية» إلى الكسر الحالي للعصر وإلى «مجتمع المخاطر». ويتميز هذا الأخير بالأزمة الأيكولوجية وتراجع العمل المربح والفردانية والعولمة والثورة بين الجنسين. تم هذا في الوقت نفسه الذي فقدت فيه الأفكار الناظمة للحداثة الأولى، بما في ذلك الأجوبة التي كانت تقدمها، قوة إقناعها وبداهتها[3]. «فنموذج أدوار الحياة الاجتماعية، الذي تُعاش به الحياة الفردية الخاصة كنسخة لمتطلبات نسخة أصلية» قد تُجُوِزَ. «ونتيجة النظام التعليمي وديناميكية الشغل ونموذج الارتقاء المهني، بل حتى التنقل والأسواق بصفة عامة هو الفردانية. ذلك أن المرونة في الشغل تعني تفريد [من الفردانية] المخاطرات وظروف العيش»[4]. وهكذا يقود ضغط الفردانية، طبقًا لبيك Beck، إلى تعويض:

(1) إيريك فروم، الأعمال الكاملة. 1992e (1937), GA XI, S. 173.

(2) انظر:. U. Beck 1986, S. 106.

(3) انظر: . U. Beck 1999, S. 28.

(4) انظر: . U. Beck 2001, S 3.



«الوجود المنسوخ عن طريق الوجود الحواري [من الحوار] والخيال الحواري، حيث تُتَجَاوز تناقضات العالم»[1].

طبقًا لغيرهارت شولتسا Gerhard Schulze، فإن «فكرة القدرة على عمل الشيء الكثير» هي الفكرة المجتمعية الرئيسة المهيمنة في الوقت الحاضر. ليس هناك أية فكرة أخرى أثرت بقوة «في الفكر والعلاقات اليومية والمؤسسات والتخطيطات» مثل هذه الفكرة[2].

إن الفهم السوسيولوجي لإنسان ما بعد الحداثة عند شولتسا يشبه إلى حد ما محاولة الشرح العلم النفسانية التي قمنا بها في هذا الكتاب. كما سنوضح ذلك في الجزء الثالث من هذا الكتاب، فإن تفضيل «القدرة المصنوعة» (يعني البراعة الذاتية) على «القدرة الإنسانية» (عيش الوجود على أساس تطبيق القدرة الإنسانية الذاتية) هو الذي يحدد الديناميكية النفسية للتوجه المابعد حداثي. وباستثناء هذا، فإن محاولة التحليل السوسيولوجية مغايرة لنظيرتها العلم النفسانية.

يرفض شولتسا بكل حزم اعتبار المحاولة المتمثلة في اعتبار «وجهة نظر القدرة» و«وجهة نظر الوجود» كبدائل، كما نجد ذلك في «الامتلاك أو الوجود» عند فروم: «انطلاقًا من عدم التوازن التاريخي لصالح القدرة لا يمكن استنباط عدم توازن جديد لصالح الوجود»[3]. يتموضع التأكيد الواعي القائل بوجهة نظر القدرة (أو التوجه الامتلاكي)، وعدم اعتبار كون وجهة نظر الوجود قد تكون تعويضًا للنقص اللاواعي، خارج منظور

---

(1) U. Beck 2001, S 3 ص 4. انظر كذلك: U. Beck und W Bonss (Hg.) 2001 وكذا U. Beck und P. Sopp, 1997.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 183.

(3) G. Schulze, 2003, S. 189.



المقاربة السوسيولوجية، ولهذا فإن وجهة نظر الوجود مرفوضة لأنها: «أوطوبيا أحادية جديدة للوجود»[1].

إن هذا النوع من المنظور السوسيولوجي لا يهتم إلّا بـ«الوعي اليومي»، و«لا يهتم هذا الأخير بالاستلاب الفلسفي لمفاهيمه»[2]. وبهذا فإن السوسيولوجيا لا تهتم بأساس تغريب الوعي اليومي، لكن السيكولوجيا الاجتماعية القائمة على التحليل النفسي تهتم بهذا الأساس.

هناك اتجاهات سوسيولوجية أخرى قريبة من الموضوع المعرفي للسيكولوجيا الاجتماعية القائمة على التحليل النفسي. ونجد في هذا الإطار يورغ أولتسهوفر Jörg Ueltzhöffer مثلًا، الذي حاول تطوير نموذج «للوسط الاجتماعي»، من أجل فهم «الأساس العميق للتمييز الاجتماعي»، وكان هدف نماذج الوسط الاجتماعي عنده هو: «الإنسان في كليته وكل النظام المرجعي لعالم حياته»[3].

يُناقش توجه الأنا المابعد حداثي بطريقة جدالية عند أصحاب الدراسات التحليل نفسية والسوسيولوجية بالخصوص فيما يخص التقويم السيكولوجي لهذا التوجه. لا يتعلق الأمر في هذا النقاش بإشكالية ما إذا كان هذا التوجه شيئًا غير عادي، على العكس من هذا فإنه يعتبر عاديًّا أكثر فأكثر؛ وليس هناك مجال للشك في أنه كلما كان الناس ناجحين ويعيشون إيجابيًّا، فإنهم يقبلون بطريقة أحسن نفسيًّا ودون صراعات متطلبات توجه

---

(1) G. Schulze, 2003, S. ص. 369.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 181.

(3) J. Ueltzhöffer, B. B. Flaig und Th. Meyer 1997, S. 57 f. انظر كذلك: J. Ueltzhöffer, 2000, S. 15 -17.



الأنا المابعد حداثي ويتمثلونه. إن الأمر يتعلق أكثر وأكثر بإشكالية الصحة النفسية، التي تكون متوقفة بالأساس على كيفية عيش الناس بدون وعي. فكلما كان هناك صراع بين المعيش الواعي وبين الإحساس اللاواعي، من اللازم أن تكون المقاومة ضد الوعي الذي يتحقق في الإحساس اللاشعوري الذاتي قوية ومتينة. وإذا لم يكن الأمر على هذا الحال، فإن أعراضًا نفسية ونفس جسدية وحالات ألم تظهر.

سنعتمد في دراستنا لإنسان ما بعد الحداثة إلى فهم فروم للإنسان. ذلك أن فروم يميز بدقة بين ما يتطلبه أيّ مجتمع لكي يشتغل من تكيف نفسي لأفراده في شكل شروط طباعية في السلوك وما يحتاجه الإنسان للنجاح في طباعه. حاول فروم فيما يخص هذا الأخير في تصوراته المتعلقة بـ«التوجه الخلاق» تقديم نموذج وجود إنساني ناجح. ذلك أن ما يتطلبه المجتمع لكي يشتغل من أفراده نفسيًا، قد يقود الإنسان في عملية تكيفه في المجتمع إلى الابتعاد عما يكون في حاجة له لكي ينجح إنسانيًا. يتغرب/ يُستلب الإنسان أكثر وأكثر عن إمكانياته الذاتية بعدم تطوير هذه الأخيرة أو كبتها وكبحها، لكي يرضي المجتمع. من وجهة نظر تحليل نفسية، يعني بالنظر إلى الإحساس اللاواعي، يمكن الحديث في هذه الحالة عن مرض الحياة العادية Pathologie der Normalität عند الإنسان المتكيف اجتماعيًا، لأنه غريب عن إمكانياته الخلاقة الذاتية.

فيما يتعلق ببناء ومضمون هذا الكتاب

ماذا ينتظر القارئ في الصفحات الموالية؟ يتعلق الأمر في الجزء الأول بقيام توجه الأنا المابعد حداثي. في زحمة الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي توجد وراء هذا القيام، سنهتم بالخصوص بالأبعاد



النفسية لتشكل الأنا المابعد حداثي. وسوف لن نناقش هنا إشكالية التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى ظهور هذا النوع الجديد من توجه الطبع[1].

يقدم الجزء الثاني وصفًا دقيقًا للإنسان المابعد حداثي، سواء أكان نشيطًا أو خاملًا. وبالبقاء على المستوى الوصفي، سنتطرق بدءًا إلى خصائص طبع النشيط، فيما نتطرق فيما بعد إلى الخصائص نفسها عند الخامل (يوجد جدول لهذا الأمر في الملحق). وسنقدم في هذا الجزء كذلك مختارات من الخصائص الطباعية للنشيط والخامل.

يتعلق الأمر في الجزء الثالث بالتحليل النفسي لتوجه الأنا المابعد حداثي. وسَيُعَبَّرُ في هذا الجزء عن الانشغال والفهم التحليل النفسي لتوجه الأنا المابعد الحداثي كتوجه طباعي غير خلاق. وينتج هذا التحليل من معيش الأنا غير الواعي وتوجهه ويقود إلى البرهنة على ديناميكية تغريب لتوجه الأنا. وانطلاقًا من هنا سيكون بالإمكان شرح التأثيرات المرضية لتوجه الأنا، حتى وإن كان هذا الشرح سيقتصر على التأثيرات المرضية التحليل نفسية، ولن نأخذ بعين الاعتبار التأثيرات الأخرى وبالخصوص التأثير الاجتماعي المرضي.

إن الانطلاق من هذا الشرح التحليل نفسي لتوجه الأنا المابعد حداثي كتوجه غير خلاق يجعل من البحث في الصور المختلفة عن الإنسان المابعد حداثي ضروريًا. وهي التي تسمح بالتساؤل النقدي عن الشروط التحليل نفسية التي يمكن من خلالها الحديث عن توجه طباعي خلاق. من هنا سنخصص الجزء الرابع لدراسة التوجه الخلاق وتوجه الأنا

(1) لمن يهتم بهذا الأمر، الرجوع إلى راينر فونك 2000 و 2003 و 2005.



المابعد حداثي. وسنأخذ فهم فروم لتوجه الطبع الخلاق بعين الاعتبار، لكي نجيب في مقطع ختامي عن إشكالية ما إذا كان الإنسان المابعد حداثي يتوفر على إمكانيات التوجه الخلاق بالفعل وكيف يمكن التمييز بين الخلاق والخامل المابعد حداثيين.



الجزء الأول

فيما يتعلق بنشوء توجه الأنا المابعد حداثي

تتحدد كل طريقة إنتاج ونمط حياة من خلال الضرورات والإمكانيات الآنية وتُؤَسس في الوقت نفسه على ما وصلت إليه. ذلك أن الإنتاج اليدوي والإنتاج الصناعي وكذا الإنتاج الضخم [للجماهير العريضة] يوجد إلى حد الآن، لكن هذا الإنتاج لم يعد يتحكم في «موازين قوى» إنتاجنا ونمط عيشنا، الذي ينتمي طبقًا للعديد من الملاحظين إلى «المابعد حداثة» أو «الحداثة الثانية» (أ. بيك) أو «الحداثة المتأخرة» (هـ. كويب H. Keupp).

سنقدم في هذا الجزء عوامل ثلاثة مهمة جدًّا فيما يخص قيام وظهور التوجه المابعد حداثي للأنا. الأول منها هو تطور اقتصاد السوق، انتهاء بتطور الثقافة الرأسمالية الراهنة. أما الثاني فيتمثل في التقدم التقني ويتعلق الأمر بتأثير انتشار التغيرات الخاصة بالعالم الرقمي وتطورات تقنيات التواصل التي تؤثر في «الحياة المجتمعية». في حين إن العامل الثالث يرتكز على قوة الإيحاء عند الناس.

سنركز في تطور اقتصاد السوق على البعد المركزي له، والذي يحظى، بالنظر إلى بعده النفس الاجتماعي، بأهمية خاصة في ظهور تطور نفسي



خاص لتوجه الأنا المابعد حداثي: القيمة التي يحظى بها التسويق بالنسبة لاقتصاد السوق.

نمط إنتاج اقتصاد السوق والتسويق

بسبب تقنيات إنتاج جديدة، معدات، إمكانيات استغلال وتجارة وربح حصل تغير جوهري حقق شكلًا اقتصاديًّا، سُمي «طريقة إنتاج اقتصادي السوق» أو باختصار «اقتصاد السوق الرأسمالي». أهم خاصية اقتصاد السوق هو تغير فهم السوق وما يقع في هذه السوق وكذا تغير فهم العمل والسلعة. كان للعمل في السابق معنى إنتاج أشياء صالحة للاستعمال من السلعة في المقام الأول. وكان السوق وسيلة لبيع وشراء السلع. كان الإنسان يشتري ما يحتاجه. يتعلم ما كان في حاجة إليه لتحقيق مهاراته. كانت استراتيجية البيع والتسويق بسيطة: كان البائع يعرض بضاعته في السوق وفي الدكاكين أو يُخبر المشترين المحتملين؛ وكان المشتري يسأل عن البضائع أو كان يختار عند الحاجة الباعة أو المنتجين. وكان الإنسان وحاجاته موضوع ما يحدث في السوق على الدوام.

ظهرت سوق الاقتصاد الرأسمالي نتيجة إمكانيات التقنية والإنتاج الآلي الواسع النطاق، وهي سوق تحتاج لكي تشتغل لتبادل بضاعة كثيرة جدًّا. لم يعد المرء ينظر للبضاعة من جانب قيمة استعمالها فقط، بل حظي جانب تبادلها بقيمة كبيرة جدًّا. وبالطريقة نفسها التي تطور فيها تبادل البضاعة، كان من اللازم العمل على رفع الطلب على هذه البضائع، لكي يتمكن المرء من بيع ما ينتج بطريقة آلية. كان المرء بحاجة إلى أدوات تسويق جديدة للتعليب، سياسة توزيع وتحديد الأثمان، تواصل. حاول هذا الأخير التأثير في المستهلك مباشرة عن طريق الدعاية (الإشهار)



وإيهامه بضرورة اقتناء البضاعة موضوع الدعاية (وهذا بالضبط هو ما هو مهم في ظهور توجه طباعي جديد). وأصبح تقديم استراتيجيات تسويقية كأداة للرفع من الاستهلاك محور اهتمام كبير بالنظر إلى الفائض في الأسواق وإلى التنافس الضمني بين المنتجين والمسوقين.

يجد المرء التطور نفسه في ميدان الخدمات. لم يعد المرء ينظر للخدمات ـ باستثناء العبودية ومؤسسات تشبهها ـ من جانب قيمتها التبادلية وترويجها إلّا قليلًا. لم يكن يخطر على بال أحد الدعاية للخدمات، التي كان عليها مساعدة الإنسان روحيًّا ونفسيًّا وجسديًّا أو اجتماعيًّا عندما يكون في حاجة لها. عندما كان المرء يحتاج إلى مساعدة طبية كان يتوسل بها، لأنه كان يريد أن يصبح معافًى. لم تكن الصحة بضاعة، كان من الممكن تحديدها انطلاقًا من قيمة تبادلها. بل كان المرض شرًّا، يحاول المرء تلطيفه والقضاء عليه وكان له الحق لكي يتغلب عليه الاستعانة بصندوق الضمان الصحي. لم يكن لهذا الأخير أيّ شيء يبيعه. لكنه يقوم اليوم بدعاية لنفسه ويزعم بأنه يبيع الصحة. قبل خمسين سنة، كان من الممكن أن ينظر إلى محاولات الرفع من الحاجة إلى الأدوية ودور الشيخوخة أو العلاج النفسي كحماقة. وكان من الصحة بمكان نزع الميدان الأكبر للخدمات من منافسة السوق ومن الدعاية.

التسويق الموجه إنتاجيًّا

للرفع من الطلب على البضائع، طور المرء كما سبقت الإشارة إلى ذلك استراتيجية سوق موجهة إنتاجيًّا. لكن لا يتعلق الأمر في هذا الأمر بجودة المنتوج ولا بقيمة استعماله. ما يُفهم من مصطلح التسويق هو أن المرء يعطي للمنتوج جودة لا تكون لها إلّا علاقة طفيفة مع المنتوج.

فإذا كانت الدعاية تعطي للمنتوج صفة مثالية فيما سبق (ينظف مسحوق الغسيل ببياض ناصع، وأنصع وما فوق أنصع)، فإن التعاليم الاقتصادية تفهم اليوم المنتوج كحزمة من الخاصيات. لم يعد استعماله يلعب إلّا دورًا ثانويًّا. ما أصبح حاسمًا هو «الاستعمال الإضافي». ذلك أن «التلفيف Design وشهرة المنتوج» هما اللذان أصبحا أساسيين، أما الاستعمال فقد أصبح ثانويًّا[1].

على العكس من الماضي فإن ما يحدد قيمة استعمال منتوج ما هو استعماله الإضافي الموحى به عن طريق الدعاية والتسويق. ولهذا السبب فإن ما يميز منتوجًا ما هو ما يمكن بيعه: مشاعر، حاجيات، مزاج، رموز تحيل إلى معاشات أو إلى نجاح ومنفعة. يتعلق الأمر في غالب الأحيان بمشاعر مثل الأمن والحنان والنشاط إلخ، يعني بخصوصيات لها علاقة بالإنسان وبحياة سعيدة، وهي خصوصيات تُصعَّدُ على المنتوج، ومن اللازم بيعها معه. يُوهم المشتري بأنه سيكون نشيطًا إذا اشترى حذاء رياضة من نوع ري بوك Reebock ومن يدخن تبغًا من نوع مارلبورو سيعرف مَعِيشًا جيدًا ومن يشرب شونتري Chantré سيصبح لطيفًا. وحتى تجريب نقدي لنوع من أنواع السيارات يبقى سجين هذا المنطق، فمثلًا عندما تجرب سيارة من نوع فولكس فاجن VW: «فإن ما ينقصها هو نغمة من المشاعر Emotion، وهو عنصر يمكنه التأثير كثيرًا في بيع السيارة»[2]. إن استراتيجية التسويق الموجهة نحو البضاعة لا تبيع في الحقيقة أيّ منتوج، لكن رغبات وخصوصيات وقدرات إنسانية.

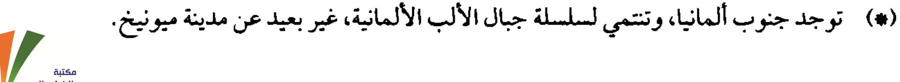
(1) انظر: G. Schulze 1992; S. 13.

(2) انظر: J. Spiegler 2003.



يعطى للبضائع في كل هذا حياة وتُؤنسن. فإذا كان أهم شيء في التسويق هو بيع البضائع، يتضح بأن النتيجة الصحيحة هو أن البضاعة المحمولة إلى السوق لابد أن تعطى لها حياة وتحصل على اسم إنسان ما وتتسم بخصائص إنسانية. اقتصاديًّا، يتعلق الأمر دائمًا بـ «إرجاع الحياة» للسوق. أما الطريقة التي يجب «إرجاع الحياة» بها للسوق وما هي البضائع التي تختار لذلك، فإنه يبقى ثانويًّا. أهم شيء هو أن يبقى السوق في حركة دائمة وألّا تكسر دورة العرض والطلب. فالسوق لا يشبه بجسم إنساني حيّ، لكنه هكذا: إنه يتنفس، ينبض، يتحرك ومن الممكن أن يسقط.

إن إعطاء حياة للسوق وللبضائع وإلصاق خاصيات إنسانية لهما واضحان اليوم. فمع المايسترو بروبر Meister Proper تدخل حياة جديدة للبيت، على الرغم من أن الأمر لا يتعلق بحرفي اسمه بروبر، لكن بخليط كيميائي، يقضي حتى على الميكروبات. وفي شريط دعائي آخر، تجلس عائلة من ثلاثة أجيال في صباح شهر حزيران/ يونيو ما في مرعى مزهر في جبال الألغاو(*) Allgäu الألمانية، يصيح الديك وتدق في الخلفية أجراس الكنيسة، يُظهر الجد في حيوية خارقة للعادة ويلعب الأطفال لعبة الدائرة. وتقول رسالة هذه الدعاية التجارية: مع مارغرينا الفطور يتحقق الانسجام والسعادة للعائلة. أما البطاقة البنكية فإنها تستطيع الآن الكثير (على الرغم من أنها لا «تستطيع» أيّ شيء عند الكثير من الناس ممن يعيشون تحت طائلة الديون)، فالبطاقة البنكية فيزا Visa تضمن الحرية. تعطي للمنتوجات خصائص الشخصية الإنسانية. تملك كل ما يجب على الإنسان امتلاكه: لها أحسن الخاصيات الإنسانية، إنها ظريفة، حساسة،



(*) توجد جنوب ألمانيا، وتنتمي لسلسلة جبال الألب الألمانية، غير بعيد عن مدينة ميونيخ.



حنونة، لها وعي ذاتي، ذكية وتشعر بالآخرين، بإمكانها ربط علاقات، لها شخصية، طابع خاص وهوية مُعاشة.

يتضح إعطاء صبغة إنسانية للمواد في قطاع الخدمات كذلك. يكون تسويق الخدمات ناجحًا عندما تضاف للخدمات التي يود المرء بيعها صفات إنسانية. يبيع المرء اللطف والثقة والضبط. فالبنوك تكون «شابة» أو «موضوع ثقة موثوق منها» وتحولت صناديق الضمان الصحي إلى «صناديق صحة» وتقترح «مدارس دروس المساء» «مُعَاشَات تكوين» وتبيع النشرات الإخبارية لمحطات الإذاعة خدماتها تحت شعار: «المذياع هو الشعور». فعندما تربط الخدمات بخاصيات إنسانية كالحياة والسعادة والأحاسيس والصحة، فإن الإقبال عليها يكون مضمونًا.

لا يُعطى للبضائع والخدمات فقط خصائص الشخصية الإنسانية. هناك نوع خاص من السيكولوجيا تعمل كل ما في وسعها من أجل بيع الإنسان كبضاعة وتعطيه صورة شخصية يصبح عن طريقها ناجحًا ويكون بفضلها قابلًا للبيع. فشعار رسالة سيكولوجيي الشخصية هو: من يحصل على شخصية معينة يستطيع من خلالها تقديم نفسه كَوَاعٍ ومرغوب فيه وغير متناقض، يكون مقبولًا وينجح في بيع نفسه. على من يريد بيع نفسه أن يقدم نفسه كعارف، كالأحسن، كضربة حظ لمن يريد تشغيله أو ربط علاقة معه، كأكفأ الناس وكموضوع ثقة إلخ. فالرغبة في بيع النفس تتحول إلى الرغبة في البحث الأناني القوي لتقديم النفس دائمًا وفي كل مكان بطريقة جيدة، لِيُقْبل المرء بطريقة جيدة ويعترف به ويصبح موضوع إعجاب. وتتمظهر هذه الرغبة في الاعتراف بالمرء في ثوب نرجسي منفوخ فيه، لكنها ليست نرجسية بالمعنى الدقيق للكلمة، بل أنانية تستغل



كاستراتيجية بيع. كل ما يهم هو قبول الآخرين للشخص وليس قبول شخصيته العظيمة.

يكمن فن الحياة والنجاح في تقمص خصائص الشخصية التي ينتجها المرء نفسه، لا يستطيع لا الشخص المعني بالأمر ولا من يحيط به التمييز بين الشخصية الأصلية للمرء وبين المنتوج. يعمل المرء بنفسه ما يعمله ميك دونالدز McDonal's بالبيغ ميك Big Mac، عندما يضفي هذا الأخير على نفسه صفات الشباب والمرح والحيوية والصحة.

وجدت استراتيجية السوق الموجهة إنتاجيًّا طريقها كأداة تحكم في الخدمات الممولة من طرف المال العام، في الإدارة والقطاع الصحي والعمل الاجتماعي والنصيحة والعلاج النفسيين، وعوضت أدوات التحكم القديمة التي كانت إلى حد ما سلطوية في تدبير الكفاءات والمسؤوليات وتدبير أموالها ونجاعتها. وهكذا دخل شريط تطبيق الماركتين الموجه توجيهًا إنتاجيًّا، وهو شريط يُستعمل بالخصوص في ميادين إنتاج الأشياء، كأداة تتحكم في ميادين يصعب التحكم فيها بالطريقة نفسها كميدان التربية والمساعدة الطبية والعلاج. ذلك أن وصفة نجاح «الماركتين الموجه إنتاجيًّا» يكمن في كون المرء لا يتردد في اعتبار الخدمة (التي كان المرء يسميها «مساعدة») كمنتوج لـ «زبائن» مُعَيَّنِين. فالطبيب الناجع والجيد هو ذاك الذي ينجح في الحصول على أعلى مدخول مادي، أصبح الأطباء والمساعدون في الحقل الصحي يفهمون عملهم كمقدمي جهد طبقًا لمعايير مضبوطة مسبقًا، فعملهم أصبح منتوجًا، بضاعة، من الضروري تسويقها اتجاه زبائنهم ـ أي المرضى ـ واتجاه المانح المادي وأيديه الطويلة في شكل إدارة ومدير الجودة. ذلك



أن ضمان الجودة هو الوسيلة المفضلة لتقديم خدمة ما بطريقة جيدة والدعاية لها وبيعها لكي يكون عليها الإقبال من طرف الزبائن.

لا يؤدي التسويق الموجه إنتاجيًّا في الاقتصاد والمجتمع إلى توجه الأنا المابعد حداثي، لكن إلى ما سماه إيريك فروم عام 1947م «تسويق ـ توجه الطبع Marketing–Charakterorientierung»[1] وبعد ثلاثين سنة «التوجه الامتلاكي»[2]. على خلاف توجه الأنا المابعد حداثي، الذي يهتم بفرض الأنا ذاتيًّا بحرية وعفوية، فإن تسويق الطبع يُقاد بالطريقة التي يمكنه بها تسويق ذاته وكيفية نجاحه وقبوله وتقديم نفسه. ما هو أساسي فيما يهمه هو كيفية تسويق ذاته وتطوير هذا الأخير عن طريق استراتيجيات تسويق.

إنتاج الواقع كاستراتيجية السوق

استمر المرء في تطبيق استراتيجة السوق الموجهة إنتاجيًّا في الميدان الاقتصادي بإصرار في العشرين سنة الماضية: لم يعد ما يهم استراتجيو السوق في ميدان الإنتاج والخدمات الموجهة إنتاجيًّا مع الزمن المنتوج في حد ذاته، لكن إخراج خصوصيات وجودة يمكن تعميمها على المنتوج، لكن ليست لها أية علاقة به. وانطلاقًا من هذا كان بالإمكان التركيز على إنتاج وقائع وحقائق خيالية مُبَاشِرَة لا علاقة لها بالمنتوج، عوض إعطاء هذا الأخير حقيقة خيالية. ويُعتبر هذا التطور العامل الحاسم في تطور توجه الأنا المابعد حداثي.

(1) انظر: Erich Fromm, 1947a, GA II, S. 47-56.

(2) انظر: Erich Fromm, 1976a, GA II, S. 319-331 und S 374-378, ders. 1989a GA XII, S. 393-483. انظر كذلك: R. Sennett 1998 و Rainer Funk 2002b

تحول رجال الأعمال أكثر وأكثر في السنين الأخيرة إلى الاهتمام بخلق سوق لمنتوجاتهم وضاعفوا جهودهم في الاستثمار لخلق عوالم حياة وحاجيات لهذه المنتوجات. وعوض إنتاج بضائع وتقديم خدمات، تنتج وتباع أنماط حياة Lifestyles وعوالم حياة وتجربة. لا يتعلق الأمر في غالب الأحيان بالبيع، لكن بعرض إمكانيات الاستعمال. ولم يعد لاقتناء شيء ما سواء بالنسبة للاقتصاد أو بالنسبة للمستهلك إلّا قيمة ضئيلة، كما وضح ذلك جيريمي ريفكين(2000 م) Jeremy Rifkin، عوض الاقتناء بالوصول إلى المنتوج واستعماله.

الهدف من خلق عوالم وأنماط حياة هو تمكين مجموعات معينة من الشعور بالانتماء إلى مجموعة ما من هذه المجموعات. وتقدم نظرة ولو مستعجلة على الدعاية/ الإشهار فكرة عن هذا التطور. فالدعاية الناجحة اليوم هي التي تعطي الإحساس بعوالم وأنماط حياة جديدة وتعطي الإحساس بأن البضائع هي جزء من هذه العوالم. ذلك أن اللقطة الإشهارية تنتج تجربة جميلة أو حلمًا حلْوًا، عالم جمال فاتن أو مليء بالعنف المدفوع إلى حده الأقصى، حيث يتحقق حنين وحاجات الإنسان سواء تعلق الأمر في هذه اللقطة الإشهارية باللبن أو أي مشروب كحولي أو سيارة. ما يُخلق/ يُنتج هو عالم مليء بالمغامرات والنضارة، يُعْطَى الإحساس فيه للمستهلك بأنه ينتمي له باستهلاكه لنوع معين من التبغ مثلًا. فتشكيل الواقع المنتوج والأسواق محكوم بـ «تصميم نفسي emotional designs»، يتوصل إليه سيكولوجيو الإشهار عن طريق اختبارات معينة وتوجيه الاستهلاك.

إذا لاحظ المرء مثلًا بأن مجموعة ما تتوق إلى العنف، فإن «التصميم النفسي» للإشهار يركز على إنتاج لقطات إشهارية في هذا الاتجاه.



والنتيجة هي تقديم لقطات إشهارية يتميز العنف فيها بالهدم. يُقدم مثلًا اصطدام سيارتين، تخرج منه واحدة منها دون خسائر، وهي التي تكون موضوعًا للبيع. يُظهر هذا المثال بوضوح بأنه ليس من الضروري أن تكون هناك أية علاقة فعلية للواقع المنتوج بالبضاعة المراد تسويقها، ذلك أن إظهار حادثة مفجعة لا يكون في الحقيقة اقتراحًا لاقتناء هذا النوع من السيارات. ومن المعلوم أن لا الدعاية ولا المشاهد يبحثان اليوم عن العلاقة الفعلية بين الواقع المنتوج وبين البضاعة الحقيقية. ما تبحث عنه المجموعة المعنية بالأمر هو الفعل الهدام، وهو شيء تحصل عليه عن طريق الدعاية لنوع معين من السيارات مثلًا. وبما أن إنتاج واقع ما يحن له المشاهد يكون ممكنًا، فإن بيع بضاعة ما يكون ممكنًا كذلك.

إذن يُنتج الواقع ويُبتكر ويُصنع دون أن يُقاس هذا «المُنتَج» بواقع موجود. يمكن ملاحظة هذا الأمر على كل المستويات: فعوالم الديزنيلاند والآنسة سايغون تكون مثيرة ومشوقة أكثر من اللعب في الطبيعة أو العلاقة مع الأطفال، ويكون الخبر المنشور جدير بالثقة أكثر من الخبر الذي يُعايشه المرء والعلاقة التي تُربط عن طريق الإنترنت مع أناس غرباء في أستراليا وكاليفورنيا تكون أحسن من تلك التي يربطها المرء مع الجيران. يشعر المرء بالأمان في العالم الافتراضي أكثر منه في بيته بين أربعة حيطان. ويكون الجلوس أمام شاشة الحاسوب أكثر أهمية من الإطلالة من خلف الشباك نحو الخارج. أصبح «العالم الافتراضي» إذن أكثر أهمية، لأن الواقع المصنوع يُعتبر أكثر واقعية وكمالًا. ويُشرح سحر المخدرات وتداول المهلوسات والمواد المنشطة عن طريق تفضيل الواقع المصنوع. وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك يمكن ملاحظتها في كل ميادين الحياة، بما في ذلك السياسة.



إن وصفة نجاح السوق الاقتصادية الحالية هي: إنتاج الواقع المرغوب فيه. وتنطبق استراتيجية السوق هذه على الصورة التي يحملها المرء عن نفسه كذلك. أصبح بإمكان المرء أن يُعيد إنتاج حقيقته الذاتية كل مرة من جديد، عوض أن يعيش ذاته كما هي، وذلك عن طريق تقمص الصورة التي يتمناها عن نفسه ولنفسه. وبهذا فإن إنتاج الواقع لم يعد يعرف أيّ حدود، حتى أمام الشخصية الذاتية للمرء. وللسيكولوجيين وبُناء الشخصية والمُمَرِّنين على ذلك دور ضالع في تعليم الناس كيفية إنتاج ذواتهم من جديد كل مرة. ويمكن أن نقدم ما نُشر في جريدة ما كمثال على ذلك، يتعلق الأمر بنتيجة ثلاث دراسات سيكولوجية، تُقدم سبعة اقتراحات:

«1 ـ قوموا بإطراء الآخرين. فالإنسان يستمع لها بشغف، لكن لابد أن تكون هذه الإطراءات حقيقية. قولوا لمخاطبكم بصراحة ما يعجبكم فيه. قد يكون ذلك تسريحة شعره الجديدة، أو لباسًا جديدًا أو الطريقة التي يتحدث بها مخاطبكم معكم.

2 ـ اهتموا بالآخرين. شاركوا في المشاكل الصغيرة والكبيرة لأصدقائكم. بهذه الطريقة ستصبحون مهمين بالنسبة لهم.

3 ـ فَعِّلوا تواصلكم بالآخرين. إذا تعرفتم على أُناس جُدد ودودين، اعتنوا بالعلاقة بهم. سجلوا رقم هواتفهم وعناوينهم، واتصلوا مرة بعد مرة، واتفقوا معهم على موعد لقاء للفسحة معًا، أو لرحلة في نهاية الأسبوع، أو لشرب شيء ما معًا. إن المرء يحب الناس الذين يقومون بمبادرات.

4 ـ اهدوا اعترافكم بالآخرين. من السهل بمكان القول بصراحة: إن



الطريقة التي تتعاملون بها مع أولادكم جيدة، و كيفية توفيقكم بين العمل والمنزل ممتازة. أو: لقد سويتم هذا الأمر بطريقة جيدة وبسرعة. إن الإطراء يسبب مناخًا جيدًا.

5 ـ أنصتوا: لا يجب الحديث عن قصصكم على الدوام. لأنه من الضروري تشجيع الآخرين للحديث عن أنفسهم.

6 ـ ابتسموا. إن ذلك لا يكلف شيئًا وله مفعول جيد، يساعد ببساطة في ترطيب الجو.

7 ـ اهتموا بالآخرين. حتى وإن كانت علاقتكم مع من تعيشون طويلة: فاجئوهم مرة بعد مرة.

إن الميل إلى إنتاج واقع مُتمنى لا يقف أمام عتبة الذات الشخصية إذن. فإذا كانت هذه الأخيرة محكومة مثلًا باللامبالاة والخوف والخجل، فباستطاعة مثل هذه النصائح أن تُنتج من جديد تجربة ذاتية جدية.

تقديس التسويق وربط الزبائن

بما أن الأهم حاليًا ليس هو امتلاك الموارد، بل امتلاك إمكانية خلق شبكات والوصول إلى بضاعة ما واستعمالها، فإن نجاح المقاولات سيكون موقوفًا على عوامل أخرى. والمؤشر الرئيس في هذا الأمر هو قوة خلق الشبكات. ويخص هذا من جهة المقاولة في حد ذاتها، طالما أن المنتوجات والخدمات تخدم الآخر. ما هو مهم في هذا الإطار هو الاستقرار والأمن، الذي يُحقَّق عن طريق عقود متينة، يكون بإمكان المرء الوصول عن طريقها إلى إمكانيات الاستعمال ويصبح بهذا تابعًا لها. ويعتبر خلق الشبكات مؤشرًا مهمًا فيما يخص مستعمل أو مستهلك

بضاعة مقاولة ما، يعني فيما يخص الزبائن. ما يجب فهمه من ربط الزبون هو كون هذا الأخير في اقتصاد يُبنَى على خلق الشبكات يكون تابعًا للمنتج. ويراهن هذا النوع من ربط الزبائن على ما يسمى «تقديس التسويق»[1].

إن كلمة السر التي يحتفظ استراتيجيو السوق بها لأنفسهم والتي تساعد على خلق واقع جديد هي تقديس السوق. ويلتجئ هؤلاء الاستراتيجيون إلى معارف علوم الدين، التي يتم عن طريقها التوطيد والمحافظة على واقع غير يومي بممارسات وشعائر وحركات وصياغات يُعترف بها من طرف الجميع وخصوصيات التعرف على من يستهلك بضاعة ما ورموزه إلخ. ذلك أن تقديس السوق ينجح في إقحام الكثير من الناس لاقتسام عالم افتراضي وتصور معين لهذا العالم بإعطاء صورة معينة وخاصة لمستهلكي منتوج ما: مدخني سيجارة «كمال» والمعجبين بميك دونالدز وشاربي الكوكاكولا واللابسين لأقمصة بينيتون، وهي صورة تطابق أو تعبر عن متمنيات وحاجيات المجموعة المستهدفة. يُظهر المرء إذن خاصيات تقديس وطقوس تكون خاصة بهذا «العالم» وهي التي تُمَكِّنُ من إعطاء الشعور بالهوية والانتماء لأعضاء هذا العالم. يحاول تقديس التسويق الاعتناء بالواقع المُنتج وتثبيته في وعي المجموعات المستهدفة بخصائص مميزة وبمساعدة شعارات ومُطالبات وأنغام موسيقية وشخصيات مشهورة من عالم الرياضة والموسيقى والتمائم. وقد نجحت نائومي كلاين Naomi Klein عام 2001م في عرض هذا النوع من تقديس التسويق في كتابها الشهير «No Logo». وعبر فريديريك بايغبيدر

(1) انظر في هذا الإطار:.N. Bolz und D. Bosshart 1995



Frédéric Beigbeder ، وهو من المُديرين المعروفين في الميدان، عن هذا الأمر بسخرية ما بعد حداثية عندما قال: «لقد عوض المرء العقل Lógos (الكلمة الخلاقة، العقل) بالشعار Logo»[1].

على كل، فإن الهدف الحقيقي لتقديس التسويق هو ربط المشتري أو الزبون بالواقع المُنتج من طرف السلعة أو الشركة المنتجة وتثبيت هذا الربط، لكي يعترف بهذه السلعة أكبر عدد ممكن من الزبائن ويمتدحونها ويتحمسون لها. ما يشتغل المرء عليه ليس هو ربط الزبون بالسلعة، بل ربطه بالواقع المُنتَج من خلالها وبالعالم الخيالي المخصص لها، ربطه إذن بشعار المُصَنِّع ورموزه وكل الخصائص التي توحي به وبكل التجارب المرافقة لهذا (التي تكون في غالب الأحيان خيالية) ومصحوبة بالرضى وتوحي بأنها تتضمن قدرة الإنسان وما يتمناه من حاجيات. فما يعرف في ميدان الخدمات كـ«توجيه الزبون» (عوض «توجيه الإنتاج») ينكشف غالبًا كاعتناء واهتمام بالواقع المُنتج في الزبون وليس كاعتناء بالعلاقة الإنسانية معه.

من الضروري عدم التقليل من أهمية ربط الزبون كاستراتيجية تسويق لواقع وعالم حياة مُنْتَجين فيما يخص توجه الأنا المابعد حداثي. عُوض الفهم القديم للبائع في حث المشتري على «الاقتناء المتكرر لبضاعة ما» وعقد «سلسلة من الصفقات غير المرئية»، باهتمام مقاول اليوم باعتبار نفسه كممون ومُورِّد وربط المستهلك و«تقييده عن طريق علاقة مستدامة به»[2]. ويصف مستشارا التسويق دون بيبيرس ومارطا روجرس هذا الأمر بطريقة مباشرة عندما يقولان: «لا يهم ما إذا كانت مقاولتكم

(1) F. Beigbeder 2002, S. 55.

(2) انظر في هذا الإطار: S. M. Davis und C. Meyer 1998, S. 48.



مُبدعة ومُبتكرة، فإن البرمجيات Software الوحيدة المهمة هي العلاقة مع الزبون»، ذلك أن: «لمنتوجاتكم كلها حياة قصيرة. وزبائنكم هم الفعليون الوحيدون»[1]. والهدف الجديد للتسويق هو التركيز أكثر على جزء من الزبائن عوض جزء من السوق والاهتمام بالعلاقة مع الزبائن عوض الاهتمام بالمنتوج. فالمنتوج لم يعد سلعة أو خِدمة، لكن إمكانية الوصول إليهما وما ينتج عن ذلك من ربط للمستهلك. لهذا السبب لم يعد الهدف هو بيع سلعة وحيدة لأكبر عدد من المستهلكين، بل بيع أكبر عدد من السلع لمستهلك واحد. ولا يتحقق ذلك إلّا عن طريق تقنيات ربط هذا المستهلك، وهو ربط يتأسس في الواقع على اعتماد المستهلك على المُزوِّد أو تبعيته له.

تكمن التقنية المفضلة لربط الزبائن، التي تجعل منهم تابعين وتتحكم فيهم، إلى جانب الاشتراك والعضوية والقروض والدفع بالتقسيط والدفع المسبق (عقود الادخار قصد بناء منزل وعقود التأمين على الحياة وتأمين المعاش والادخار من أجله)، في تقديم أنظمة تأجير والاستعانة بمصادر خارجية لوظائف وخدمات وتقديم امتيازات معينة. إضافة إلى هذا هناك تقنية تقاسم المكاسب Gainsharing، يعني ربط مقاولات الخدمات عن طريق اقتسام الأرباح وبناء الشبكات المجانية وتسليم المُنتجات دون مقابل (كالهواتف المحمولة والبرمجيات وآلات الطباعة، يدفع المرء في كل الأحوال مقابلًا لاستعمالها ودعمها وصيانتها واقتناء لوازمها) وتسجيل براءات الاختراع في ميدان تقنية علوم الجينات والمواد المصنوعة جينيًّا، والتي يمكن أن يصبح الطب والفلاحة تابعة لها. يحاول

(1) انظر: D. Peppers und M. Rogers 1993, S. 394.



المرء كسب الزبائن الشباب لأطول مدة ممكنة، لأن هذه التقنية تسمح بكسب أعلى المكاسب مدى الحياة Lifetime–values. ومعنى هذا هو أن الأرباح الناتجة عن المراقبة مدى الحياة لطريقة استهلاك زبون ما تكون مضمونة.

تستخدم ما يصطلح عليه « تقنيات ـ ع» ـ تقنيات العلاقة ـ من أجل المحافظة وتشكيل العلاقة مع الزبون. فإذا دفع المرء ببطاقة الزبون، يعرف المرء أكثر عن هذا الزبون وعن عادات استهلاكه وأوقات شرائه المفضلة، ومستوى ما يدفعه وأسماء البضائع المفضلة عنده إلخ. ذلك أن بطاقة الزبون تمكن المقاول من معرفة مستمرة بالزبون واستشراف حاجياته وتغيير مبيعاته إذا كان الأمر يتطلب ذلك. إذن عن طريق تطبيق مثل هذه التقنيات و«تقنيات ـ ع» أخرى، يكون من الممكن الوصول إلى ما يسميه المتخصصون في السوق «حميمية الزبون». ويبتهج كل زبون عندما يتلقّى من محل بيع ما، يكون زبونًا فيه، ببطاقة تهنئة بمناسبة عيد ميلاده أو برسالة إلكترونية أو حتى بقسيمة شراء مجانية.

هناك وسيلة أخرى لربط الزبون تتمثل في تشكيل جماعات تستهلك منتوجات الشركة نفسها، قصد الحفاظ على علاقة تجارية معهم لأطول مدة ممكنة والرفع من المكاسب مدى الحياة للمستهلكين. فبمساعدة حفلات، مجلات، واجتماعات بالزبائن، وإهداء أسفار إلخ، يقوم المرء بجمع مستهلكي بضاعة معينة، لكي يقتسموا اهتمامهم المشترك بمنتوجات شركة معينة. والفئة العُمرية التي تهم المسوقين أكثر هم الأطفال قبل سن التمدرس، كما يوضح المثال الذي يقدمة جيريمي ريفكين Jeremy Rifkin[1] بصورة باهرة: «يجمع نادي الأطفال لبورغر

(1) انظر: Jeremy Rifkin, 2000, S. 149f.



كينغ في مجموعة تتقاسم الاهتمامات نفسها. يحصل أعضاء النادي الذين يصل عددهم إلى أربعة ملايين على تخفيضات في الوجبات وعلى سلسلة أخرى من الخصم وعلى مجلة موجهة للأطفال في سن الثالثة. وهناك نادي الصداقة عن طريق المراسلة يسهل التواصل بين الأطفال الذين لهم الاهتمامات نفسها. وتقدم الشركة للأطفال أدوات كتابة وأقلامًا خاصة من بورغر كينغ. وقد كان النادي نشيطًا عام 1994م في أكثر من خمسة وعشرين بلدًا. وتتحدث الشركة دون حرج عن الهدف من نادي الأطفال التابع لها [...]: «نريد أن نصيد قلوب ورؤوس الأطفال والاحتفاظ بها إلى أن يصلوا إلى سن السادسة عشرة». وقد ارتفعت مبيعات بورغر كينغ منذ تأسيس هذا النادي عام 1990م ثلاث مرات».

يتضح التغيير الرئيس للاقتصاد والمجتمع عندما يركز المرء نظره على كل ما يريد الناس اليوم الوصول إليه. ماذا يعرض السوق عُمومًا؟ ويوجد الجواب عن هذا السؤال على الأرجح في الصناعات التي تعمل مباشرة بمساعدة الشبكات الإعلامية، يعني بمساعدة صناعة التواصل والترفيه. وهي وسائل تستعملها كذلك الفروع التجارية التي تحاول إيصال السلع الاستهلاكية والخدمات للناس. ماذا تعرض وسائل الإعلام المطبوعة والمشتغلون في الثقافة والأفلام والمسرحيات الموسيقية والديسكو والراديو والتلفزة والأقراص المضغوطة والهواتف المحمولة وبرامج الحاسوب وألعابه؟ وماذا يفضل مستخدمو هذه الأشياء؟

تسويق الخبرات والمشاعر

يحاول الاقتصاد الذي يراهن على إنتاج الواقع في شكل أنماط حياة ومعيشات عوالم حياتية ولا تتأسس تجارته على بيع وتحويل



الأموال في شكل سلع وخدمات، بل تقديم (وجعل المستهلك تابعًا) إمكانيات الوصول إلى السلع؛ ربط المستهلك في المقام الأول بتقديم مُعاشات: من مُعاش الاقتناء مرورًا بمُعاش العطلة ومُعاش الوقت الثالث ومُعاش الاستشفاء ومُعاش الأحاسيس ومُعاش القوة ومُعاش محطة القطار ومُعاش الحفلات الدينية ووصولًا إلى مُعاش الحوادث ومُعاش العلاقات الغرامية، الذي يكون في بعض المرات مضحكًا وفي أخرى كارثيًّا. إن الاقتصاد المؤسس على تقديم إمكانية الوصول إلى سلعة ما لا يقوم بالدعاية لهذا الأمر عن طريق هذه الأشياء فقط، بل يكون عليه بمساعدة وسائل الإعلام وإمكانيات التواصل تقديم إمكانيات الوصول إلى المُعاشات بالفعل.

تكون الحيوية ومُعايشة شيء ما عند العدد الكبير من الناس مقرونين بالمُعاش الحسي العاطفي وبالخصوص بمُعاش الأحاسيس. فقط عندما يكون المرء قويًّا، في حالة جيدة، راضيًا، سعيدًا، متحمسًا أو حزينًا، منبوذًا أو يحس بالاكتئاب؛ يشعر بالحياة ويكون حيويًّا. ولهذا السبب يكون إنتاج وتسويق المعاشات وعوالمها يُشبه إخراج عرض وتسويق الأحاسيس وعوالمها. وفي كل هذا فإن ما يركز المرء عليه في المقام الأول هي المشاعر التي يفتقدها الناس اليوم أكثر كالحب والسعادة والرضى والعواطف الرقيقة والمداعبة والأحاسيس «العادية» وكذا مشاعر النرجسية والروعة والتفوق وعدم السقوط في الأخطاء إلخ.

ما يباع أكثر هي إذن المشاعر في عالم أصبح فيه المرء «رسميًّا» مرغمًا على التفكير والشعور الإيجابيين وحدهما ولم يعد من حقه الإحساس المباشر بالشعور بالهدم والقتل والحسد والغيرة والبخل والرغبة في الامتلاك والغبطة بإلحاق الخسائر والانتقام. ولم تنجح محاولات



تسويق مثل هذه المشاعر إلّا جزئيًّا. وهكذا يباع مثلج «الخطايا السبع للموت» واهتدى محل لبيع الآلات الإلكترونية إلى شعار: «الشح شَبِق». ما يعرض ويباع دون حرج هو الرغبة في فضح الآخر وجر العار عليه والغبطة في تسبب خسائر للآخر، كما هو عليه الأمر فيما يسمى البرامج التلفزية «الكوميدية». وقد أصبحت القسوة مُباحة في الكاريكاتورات.

تعرف الكاريكاتورات حاليًّا نوعًا من الاستلاب، ذلك أنها أصبحت منتوجات خيالية. فقد كان الأدب (بما في ذلك الديني منه وليس فقط الروايات البوليسية)، والمسرح والألعاب السحرية والأوبيرا تسمح بالقيام بتجرية المشاعر الهدامة. أما اليوم فإن الأفلام والمسرحيات الموسيقية وكليبات الفيديو هي التي تقوم بهذا الدور على نحو قوي جدًّا. تحاول الأساطير القديمة والخيال العلمي (يعني ميادين ليس لها في غرابتها وسخريتها أية علاقة بالحاضر) توفير إمكانية للتعبير عن الهدم. فكلما كان العراك مع قوى الشر مثيرًا ومكلفًا في المسلسلات الخيالية الكبيرة لليوم (كما هو الحال عليه في «سيد الخواتم The Lord of the Rings»)، كان النجاح في المتاجرة بالعواطف كبيرًا.

يُفهم من هذه الزاوية بأن صناعة الثقافة في شكل صناعة التواصل والفرجة قد تجاوزت صناعة البضائع وميدان الخدمات الكلاسيكي. تخسر هذه الأخيرة أكثر فأكثر من أهميتها، إلّا إذا ربطت عروضها بسوق الصناعة الثقافية ولا تبيع السيارات، لكن «مُعاش السياقة» أو «السيارات للعيش»، ولا تبيع بِدلًا، لكن «مُعاش لَبْسِها». في آخر المطاف فإن الصناعة الثقافية الرأسمالية، التي حددت هدفها في الوصول إلى المُعاشات والمشاعر بمساعدة عوالم مُحاكاة وأوضاع واعية مُغيَّرة.



ما كان إلى حد الآن في مأمن من الأفكار التجارية، يعني التواصل والثقافة (فن الرسم، الدين، الأدب، الأساطير، الموسيقى، العلم، الأخلاق إلخ)، قد أصبح سوقًا مهمة. ذلك أن خُمُسَ سكان العالم الأغنياء يصرف المبلغ المالي نفسه الذي يصرفه على إنتاج بضائع وخدمات على مُعاشات ثقافية[1]. فإذا كانت الرأسمالية قد حولت طيلة قرون موارد مادية إلى مُلك، فإن الثقافة الرأسمالية لليوم، التي أصبحت أكثر قوة، تحول كل الموارد الثقافية إلى مُعاشات وفُرجة يمكن شراؤها. فقد عوض الوصول إلى مُعاشات ومشاعر الملكية التقليدية[2]. ذلك أن مخرجين اليوم قد أصبحوا «فاعلين في ميدان المُعاشات»: «يُنتجون المنتوج الأكثر تقلبًا والأطول حياة: المُعاش الإنساني»[3].

توضح وسائل الإعلام الإلكترونية نتائج التغييرات الشديدة العمق التي تخلفها العروض المتعلقة بالمُعاشات والمشاعر. إنها تقدم للمستهلك إمكانية الغوص في عوالم افتراضية، تخلق واقعًا جديدًا ومغايرًا مليئًا بالأحاسيس القوية والمُعاشات. ويمكن ملاحظة جاذبية الافتراضي فيما يخص الهاتف النقال، حيث يكون عندنا الانطباع بأننا نتحدث مع شخص ما في الغرفة نفسها، على الرغم من أن المُخَاطب يوجد على بعد مئات الكيلوميترات. واللافت للنظر هو أن هذه المُعاشات تكون أقوى عندما تحاكي عوالم الخيال والأشكال أو الأجساد الخيالية الواقعية أو عندما يغطس المرء في عوالم «الفضاءات الإلكترونية Cyberspace» (المترجمة حرفيًا من «الفضاء المعرفي» cybernetic space).

(1) انظر: Jeremy Rifkin, 2000, S. 15.

(2) المرجع السابق ص 183 وما بعدها وص 193 وما بعدها.

(3) انظر: A. Toffler 1970, S. 234, 236f.



لا تُعاش هذه العوالم الافتراضية كـ «مصنوعة»، مبنية، غير واقعية، خيالية أو اصطناعية، لكنها تُعاش كـ «مفرطة في الواقعية»، مهمة، مليئة بالمشاعر، متعددة، متنوعة، مليئة بالحماس وكذا غنية بالمُعاشات بالمقارنة مع الواقع الفعلي. وسبب عيش هذا العالم الافتراضي بهذه الطريقة لا يكمن في الخيال والقصص التي تحدث فيه، لأن هذه القصص تكون في غالب الأحيان عادية أكثر منه في الواقع الحقيقي. إن سبب هذا يكمن في الطريقة الإلكترونية التي يُركب بها هذا الواقع، وهو تشكيل يكون بالإمكان عن طريقه خلق أشياء لا تكون ممكنة في العالم الفعلي أو في الشعر والفن والأساطير والأزليات.

هناك خاصيتان أساسيتان للعالم الافتراضي، من الضروري التأكيد عليهما: تكمن الخاصية الأولى في تكثيف التصورات الحسية والعاطفية للعينين والأذنين وحاسة اللمس والشم عن طريق إظهار مناظر فيها ضيق وحرارة وحركة أو عن طريق استحضار ردود فعل عاطفية كالخوف والفرحة والرغبة والألم إلخ. ففي العالم المفرط في الواقعية للديسكو ومواكب الحب Love-Parade أو في أفلام الحركة والإشارة «تروج أشياء» و«تقع أشياء»، ولا يستحوذ الملل على المرء ويشعر كل واحد بأنه أكثر حيوية.

تفضل العوالم الافتراضية شيئًا آخر يتمثل في إمكانية تشكيلاتها التفاعلية. فلم يعد المستهلك مستهلكًا، لكنه جزء مركزيّ في لعبة الكمبيوتر مثلًا وفي منصة الإنترنت أو في غرف الدردشة. ففي الوقت الذي يعرض فيه فيلم من الأفلام واقعًا واحدًا فقط، فإن الفضاء الافتراضي يعطي لكل مشارك جسمًا افتراضيًّا ودورًا ما. تحكي وسائل الإعلام المطبوعة والراديو/ المذياع، في حين إن خشبة المسرح والأفلام تُظهر،

بينما يسمح الفضاء الافتراضي المشاركة والقيام بالتجربة الخاصة. تكمن جاذبية العوالم الافتراضية إذن، على الرغم من التناقض الناتج عن هذا، في شعور المرء بأنه متحد مع الآخرين ومتفاعل معهم، دون ربط علاقة فعلية معهم ودون تجربة ما تفرضها العلاقات الواقعية من قرب فيزيقي أو خوف من القرب.

نعيش في الكثير من أنشطتنا اليومية وتفاعلاتنا مع أناس آخرين علاقات افتراضية: بواسطة الهاتف والفاكس والمايل والإنترنيت إلخ. لم يعد من الضروري أن يبقى الإنسان وحيدًا ويسقط في الملل أو يوقف علاقة مع شريك حياة كريه الرائحة. يمكن لكل أحد أن يدخل في علاقة مع أناس من اختياره عن طريق وسيلة تواصل ما. يمكن لكل واحد تحميل العالم الافتراضي الذي يريد أو الحصول على إمكانية الوصول إلى المجال الذي يريد التواصل معه (وبإمكانه كذلك الهروب من العالم الفعلي الذي يحبطه). وكلما كانت هذه الفضاءات المُعاشة المُصطَنعة متنوعة وجذابة، أصبحت فضاءات حياة فعلية، يعني عوالم تدور فيها الحياة ويكون بالإمكان القيام بشيء فيها.

النتيجة النهائية لهذا التطور هو عالم يصبح فيه كل نشاط مُعاشًا وتجربة مصنوعان يمكن امتلاكهما. أصبحت الحياة ذاتها سلعة. يُنتج التصنيع الثقافي والتواصلي هذه الحياة ونشتري هذه الأخيرة والتجارب والأحاسيس، بدفعنا ثمنًا معينًا كمقابل. لهذا السبب فإن المشاركة في هذه العوالم والحضور فيها والانتماء إليها والارتباط بها وامتلاك إمكانية الوصول إليها قد أصبحت قيمة رئيسة حاسمة في الحياة المهنية والشخصية للناس الذين امتطوا على التو قطارات هذه العوالم. ولهذا السبب كذلك يزدهر اقتصاد أصبح بإمكانه بيع إمكانية الوصول إلى هذه

العوالم الافتراضية، وأنماط حياة معينة ومشاعر وأنشطة والتحكم في إمكانية الوصول إلى هذه الأمور ماليًّا.

أهمية الابتكارات التقنية في قيام توجه الأنا المابعد حداثي

تُمحى باستمرار التغييرات الكبيرة التي عرفتها طريقة الإنتاج والحياة الاجتماعية للحداثة من طرف الابتكارات العلمية والتقنية ابتداء من اكتشاف القطارات البخارية إلى الاهتداء إلى الحاسوب. يرجع الفضل في ظهور الإمكانيات الحالية، التي تحدد طريقة حياتنا بطريقة حاسمة والتي قادت إلى ديناميكيات جديدة في الاقتصاد والإنتاج وتنظيم العمل والحياة الاجتماعية المشتركة والتنظيم السياسي والحياة والمُعاشات الثقافية والروحية؛ إلى التقنية الرقمية (بحساباتها الهائلة وطرق قياسها وإمكانياتها الافتراضية) وإلى وسائل الإعلام الإلكترونية. إنها إذن شرط دفع التحديث وما صاحبه من اختفاء الحدود بين الفضاء والزمن وتبادل المعارف والمعلومات الفائق السرعة، وهو تواصل زمكاني مستقل واكتساب للمعارف أو الفرجة، وتطور التنقل والعولمة ومرونة كل عمليات الإنتاج تقريبًا وما يصاحبها من فك لتشفيرات الرموز الجينية والبحث في علوم الفضاء.

بما أن الإمكانيات الجديدة، التي نتجت بواسطة التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية، قد غُيِّرت جزئيًّا بأسلوب عميق للحياة اليومية (الخاصة، المهنية، الاجتماعية، الثقافية، السياسية) للكثير من الناس، أضحى من الضروري إظهار البعض من هذه التغييرات:

1 ـ غابت الحدود بين الفضاء والزمن عن طريق التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية، إلى درجة أنه بإمكان المرء أن يكون مستقلًّا عنهما:



بإمكان كل واحد في كل وقت وفي كل مكان تقريبًا الدخول في اتصال مع أيّ كان، والقيام بعمله وطلب أي شيء عن طريق الإنترنت والنجاح في الوصول إلى العلم والتكوين والفرجة والمتعة. إنها إمكانية جعلت من الليل نهارًا ومن هذا الأخير ليلًا ومن يوم العطلة يوم عمل، والعكس صحيح، الانتقال للعيش في الماضي أو في المستقبل أو في القطب الشمالي أو في السيشل بمساعدة فضاءات معيشية مفترضة.

2 ـ أصبح من الممكن عن طريق التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية خلق واقع جديد، مغاير وأحسن: أصبح من الممكن تشكيل الواقع المحيط بنا وواقعنا الشخصي، الجسدي والنفسي، بمساعدة عوالم افتراضية لتصبح «أكثر واقعية» وأحسن. وقد يكون الواقع الناتج بمساعدة وسائل الإعلام الجديدة متعددًا، حسيًّا، عاطفيًّا، يمكن التعلم منه «مليء بالإثارة» بالمقارنة بالواقع الفعلي المعطى. ما يسمح به الخلق الجديد للواقع قبل كل شيء هو إمكانية الحد من الجوانب السلبية ومحدودية وخيبة الأمل الواقع الشخصي الفعلي للمرء أو القضاء عليها: فعن طريق التقنيات الجينية أصبح من الممكن القضاء على الأمراض الموروثة والإعاقات، وعن طريق التقنيات النفسية يُقضى على الخوف وعلى الشعور بالعجز، وتساعد منتوجات الاستشفاء على تجنب الألم مع الذات، في حين تساعد صناعة الدواء على القضاء على الاكتئاب، وأخيرًا فإن تقنية المحاكاة تساعد على الحد من إمكانية السقوط في الأخطاء عند الإنسان بطريقة حاسمة.

3 ـ باستطاعة المرء أن يصبح مستقلًّا من المتطلبات وضغط الأشياء بمساعدة التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية وتحقيق ذاته بذاته: تحرر هذه الوسائل إذن اتجاه عالم منظم ومُسير عن طريق عادات وضوابط وامتيازات وإقصاءات وحقوق قانونية وقيود الوصول إلى



شيء ما ومواقيت العمل وتحديد الأسعار والضرائب على البضائع إلخ. كما أنها تحدث تغييرًا جذريًّا في ميادين الحياة والعمل وتحقق للفرد إمكانيات تحقيق ذاتي جديدة والوصول إلى الموارد، التي يمكن أن يتصرف فيها كما أراد.

4 ـ بمساعدة التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية يمكن للمرء أن يستقل عن الآخرين ويكون على ارتباط بهم بالجرعة التي يحددها هو نفسه: كلما كان الناس يعتمدون على أناس آخرين، عندما يأخذون إمكانيات حياتهم الشخصية بعين الاعتبار، فإن هذا الاعتماد يُستغل في خلق تبعيات، أكان ذلك في ميدان التربية أو التكوين أو العمل أو الصحة أو في العلاقات الشخصية. وتسمح وسائل الإعلام الجديدة بنماذج علاقة مغايرة تمامًا للنماذج الموروثة في هذا المجال وبموديلات قرب ـ بعد لم تكن موجودة سابقًا، تتميز من جهة بتبعية شخصية وعاطفية كبيرة، ومن جهة أخرى بارتباط قوي مختار طواعية بمساعدة إمكانيات التواصل. كما أن هذه الأخيرة، بإمكانيات التفاعل التي توفرها، تسمح بنوع جديد من النشاط، يتجاوز التواصل الأحادي الجانب والاستهلاك السلبي للمعلومات أو البرامج الترفيهية.

5 ـ يمكن لكل واحد بمساعدة التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية التحرر من كل الالتزامات الشخصية، التي تُنتج واقعًا شخصيًّا خاصًّا: يمكن تغيير وخلق الفهم الذاتي والامتلاك الخاص للذات على الصعيد الفيزيقي والاجتماعي والثقافي والحس ـ الشعوري، التي كانت تحدد هويتنا الذاتية، بمساعدة التواصل المدعوم من طرف وسائل التواصل، ويحدث هذا طبقًا لنوعية الأشخاص الذين يتصل بهم وطبقًا للوضع الذي يشعر فيه المرء بأصالته وما إذا كان يظهر لنفسه



وللآخرين بأنه موضوع ثقة. وبما أن هذه الوسائل تحرر من الشعور بالهوية الموروثة، فإنها تفتح المجال للخيال والإبداع، بل إنها تُنتج الرغبة لتحديد جديد للهوية الشخصية عن طريق صالونات الدردشة والأبراج المحصنة المتعددة المستعملة ومواقع الإنترنيت. ذلك أن الكثير من ألعاب الكمبيوتر تكون جذابة لأنها تسمح بتغيير الهوية الذاتية الموروثة عن طريق اختيار تمثلات وصور مُقترحة عن الذات، وبهذا تسمح بتجاوز حدود الهوية الأصلية، ليعيش المرء هوية افتراضية جديدة.

تُظهر هذه الأبعاد الخمسة تغيرات الحياة الاجتماعية عن طريق الابتكارات التقنية للأربعين أو الخمسين سنة الماضية. إن نتائج هذه الأفكار حول سلطة وقوة الإيحاء والقابلية للإيحاء عند الإنسان تبقى مؤقتة، وبها سيُختم التفكير في نشوء توجه الطبع المابعد حداثي.

قوة الإيحاء والقابلية للإيحاء عند الإنسان

عندما يُوحَى بشيء ما للناس، فإن المرء يشرح لهم شيئًا ما و«يُحببه لهم». لا يُعرض عليهم هذا الشيء ويُقترح عليهم، لكن يُفرض عليهم. يتمثل فن الإيحاء في إعطاء الانطباع بأن المرء لا يقوم إلّا بعرض واقتراح شيء ما وبأنه حر في قبوله أو رفضه عن طيب خاطر، لكن المرء يعمل في الوقت نفسه على التلاعب في حرية إرادته وسلطة قراراته، إلى أن يعتقد بأنه يختار هذه الأخيرة باستقلال تام عن التأثيرات الخارجية.

عندما يُوحَى للمرء بشيء ما، فإن التكتيك المستعمل يتمثل من جهة في ترديد المرء بأنه كزبون بمثابة «ملك»، ولهذا السبب فإنه حر في اختياراته، ومن جهة أخرى يبحث المرء عن إمكانيات التأثير في اختياراته هذه دون أن ينتبه لذلك. وهذا هو بالضبط الفهم الكلاسيكي لـ «الإغواء»، الذي



كشف عنه فانس بكار Vance Packard بالخصوص في كتابه «الإغواء السري» قبل خمسين سنة فيما يخص عصر الإعلام.

أصبحت تقنيات الإيحاء والتلاعب بفضل تقنيات إنتاج الواقع بمساعدة التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية معقدة جدًّا وبارعة. ذلك أن إنتاج الواقع يعتمد أساسًا على قوة الإيحاء، التي تنطلق من التوهيم (سنعود إلى هذه النقطة بالتفصيل في الجزء الثالث من هذا الكتاب). إن إنتاج الواقع الخيالي موجه بطريقة تُمكن من الوصول إلى حالات نفسية تشبه إلى حد كبير حالة النشوة، يعني أنه يوصل إلى ما يوصل إليه التنويم المغناطيسي بطريقة ملفتة للنظر: برمجة إنسان ما بطريقة يفكر فيها في أشياء ويشعر ويسلك بمحض إرادته، بعدما يتعرض لعملية إيحاء عميقة. وللحديث بمفردات دعاية معروفة: «إنه لسحر كبير إيقاظ اهتمام الناس بشيء جديد لا يستطيعون اقتناءه ولم يكونوا بحاجة له عشر دقائق من قبل. [...]»، كان المرء يقول وهو يعذب أناسًا آخرين في السابق: «ستتكلم». واليوم يُقال: «ستُريد»[1].

يستعمل الإنتاج الوهمي للواقع تقنيات المحاكاة، التي تؤدي إلى صعوبة التمييز بين الواقع «الفعلي» والواقع الخيالي. فإذا كانت هذه التقنيات تساعد جدًّا في ميدان علوم الفضاء وفي تقنية العمليات الجراحية في الطب أو في العلاج النفسي، فإنها مغررة وإيحائية جدًّا في ميدان تسويق عوالم المُعاشات وأنماط الحياة والمشاعر.

وصلت قوة إيحاء الغرور الحسي حده الأقصى في ميدان الاستهلاك. ذلك أن المؤثرات البصرية والسمعية تؤثر في السلوك دون أن يعي المرء ذلك ويستغلها سيكولوجيو الدعاية واستراتيجيو التسويق في عملهم. إن

(1) انظر: F. Beigbeder 2002, S. 42 und 48.



التغرير الحسي، الذي لا ينتبه له المستهلك إلّا بصعوبة جمة، عن طريق الروائح والعطور، التي تنبعث مثلًا من الأشياء الموضوعة في الثلاجة أو النكهة المحسنة في رقائق البطاطس، والتي لا تترك المرء على راحته إلّا بعدما ينهي أكلها، ما هي إلّا أمثلة على هذا الأمر.

تَكْمُنُ أكبر إمكانيات التلاعب في المثيرات الحسية، التي لا يدركها الناس بالتمام، بإنتاج مثيرات بعينها. اكتشفت حاسة سادسة، أطلق المرء عليها اسم vomeronasale(*): «يوجد في الجهتين السفليتين في الجزء الأمامي للحاجز الأنفي. ذلك أن إدراك الروائح لا ينتج كما هو الأمر عليه في حاسة الشم الأولى عن طريق حقل الشم بخليات الشم وشعيرات الشم، لكن عن طريق غشاء مخاطي صغير جدًّا مستقل، يتكون عن طريق انغلاف الغشاء المخاطي. وتوجد وراء الخرطوم خليات شم تحتوي على ألياف عصبية. [...] ذلك أن الروائح التي تُشم تكون عديمة الرائحة أو أن المرء لا يدركها. كما أن مُخَّنا لا يُعالجها بوعي. يتعلق الأمر إذن بإدراك مواد الإغراء الجنسي، أي ما يُسمى الفيرومونات(**) «Pheromene»(1).

(*) يسمى كذلك عضو جاكوبسون Jacobson-Organ

(**) الفيرومونات كيماويات تتركب من جزيئات عضوية معقدة. تستعمل لنقل الإشارة من حيوان لآخر، وهي أكثر تخصصًا من الروائح بحيث يستطيع الكائن المستهدف استكشافها بكميات ضئيلة جدًّا وهي محمولة بالهواء، وعادةً ما تكون مخففة جدًّا ونوعية التأثير على الأحياء. تهدف لجذب الحيوانات لبعضها كلٌّ حسب نوعه في موسم التزاوج، أو للتنبيه من خطر محدق أو للتوجيه لوجود غذاء، وتعتبر أحد أنواع البروتينات تستخدمها الحشرات لعدة أغراض. يشيع استعمال الفيرومونات حاليًّا كمبيدات للحشرات حيث إن الكثير من الحشرات تستخدمها لتبليغ جنسها الآخر عن موقعها للتزاوج، مما يتيح استعمال الفيرمونات للتشويش على الحشرات أثناء موسم تزاوجها وإبادتها. تطير بعض الحشرات عدة كيلومترات في طرق مجهولة لها وبعكس الرياح لمقابلة قرين متأثرة بالفيرومونات المحمولة جوًّا، ورغم كل الدعاية، فإنه لا يوجد مكافئ عند البشر لتأثير الفيرومونات على اختيار الشريك لتدخل العقل في الخيارات البشرية، بالرغم من تأثير الشم على الرغبة الجنسية عمومًا.

(1) انظر: j: Bensel 2003



ما هو رائع ومهدد في الوقت نفسه في هذه الحاسة هي أن المرء: «لا يمكنه أن يوقف تأثيرها اللاواعي، على الأقل رد الفعل الأول»(1). وتشرح التجربة التالية هذا الأمر: «إن الأندروستينول(*) Androstenol الناتج عن استعمال معطر مان Mann ضد رائحة الإبط يؤثر عند النساء عن طريق حاسة الشم الأولى كجاذبية جنسية، لكنه يتحول في وقت وجيز إلى أندروستينون(**) Androstenon ويعطي للنساء بالخصوص انطباع رائحة البول. من الواضح إذن بأن أندروستينون يدرك بواسطة حاسة الشم الثانية، الفوميرونزال vomeronasale، كجذاب ومُغْوٍ». هناك تجربة أخرى قام بها المرء في عيادة طبيب أسنان، حيث رُشَّ كرسي مُتْعِب في الجلوس في قاعة الانتظار سرًّا بالأندروستينون. وقد كان عدد النساء اللائي فضلن الجلوس على هذا الكرسي أكثر بثلاث مرات من اللائي جلسن على كرسي كان جانبه ولم يكن مرشوشًا بالأندروستينون»(2).

إن قوة التغرير في مجملها هي إمكانية من إمكانيات التأثير في البشر، وهو تأثير لا يدركونه أو لم يعودوا يدركونه. فقد فتح البحث في الإرسال للعلوم العصبية حقلًا جديدًا لإمكانيات التأثير والتلاعب هذه. ذلك أن إدخال مواد حاملة مختلفة في صناعة بضائع معينة يؤثر من بين ما يؤثر فيه على المزاج النفسي وعلى المُعاش العاطفي والشعوري للناس. تتمثل

(1) j: Bensel 2003.

(*) هو فيرومون جنسي يفرز في بعض أنواع الخنازير البرية رائحة تشبه رائحة المسك ويفرز منه كميات ضئيلة في العرق.

(**) ديهيدرو إيبي أندروستيرون أو dehydroepiandrosterone, (DHEA)
وهو الهرمون الستيروئيدي العارض الأكثر وفرة في الجسم البشري ويطلق البعض عليه اسم هرمون السعادة. واعتمادًا على مستوى هرموني خاص فإن هذا الهرمون يمكن أن يسلك سلوك الإستروجين أو الأندروجين. ويعد الـ (DHEA) الطور المبكر لكل من الهرمونات الجنسية المذكرة الأندروجين والهرمونات الجنسية المؤنثة الإستروجين.

(2) j: Bensel 2003.



نعمة الأدوية النفسية العصرية في كون المرء قد وجد طُرقًا في تكوينها الكيمياوي للتأثير في مواد إرسالها، وتنظيم الأحاسيس والأمراض النفسية التي لا تطاق بمساعدة هذه الأدوية.

يمكن للمرء، دون أن يكون مريضًا نفسيًّا، استعمال البروكسان Proxan ليبقى مزاجه مرحًا وليفكر ويشعر إيجابيًّا. هناك من يحاول التأثير في السيروتونين[1] Serotonin، المسؤول عن الشعور بالسعادة، بالهورمونات، وهناك من يؤثر بالفيتامين B6 على الأيض[*] métabolisme في المخ والرفع بهذا من مستوى السيروتونين. وهناك من يقاوم اكتئابه المزاجي

(1) السيروتونين (5ـ هيدروكسي التريبتامين أو اختصارًا 5-HT) ناقل عصبي أحادي الأمين يصنّع في العصبونات السيروتونينية ضمن الجهاز العصبي المركزي وفي الخلايا الكرومافينية الداخلية في الجهاز الهضمي. وتلعب هذه المادة دورًا مهمًّا في تنظيم مزاج الإنسان (لذا يسمى أيضًا بهرمون السعادة) والرغبة الجنسية ولها دور أيضًا في مرض الصداع النصفي (داء الشقيقة). وتسمى المادة أيضًا 5 ـ هيدروكسي تربتامين.
أحدث التعرف على هذه المادة ثورة في علاج مرض الكآبة حيث لوحظ أن معظم المصابين بمرض الكآبة يمتلكون نسبة أقل من المستوى الطبيعي للسيروتونين في الدماغ مما حدا بالعلماء إلى اختراع جيل جديد من الأدوية التي تقوم برفع مستوى مادة السيروتونين في الدماغ. وبالرغم من أن هناك جدلًا حول كيفية تأثير مادة السيروتونين على تنظيم مزاج الإنسان إلّا أن هناك اعتقادًا شائعًا أن السيروتونين تلعب دورًا لا يمكن تجاهله في الشعور بالطمانينة النفسية.
لمادة السيروتونين أيضًا دور بالشعور بالغثيان حيث لوحظ أنه إذا تم إغلاق مستقبلات مادة السيروتونين فإن ذلك يؤدي إلى تحسن في الشعور بالغثيان وعلى النقيض من هذا تمامًا إذا تم تحفيز مستقبلات مادة السيروتونين فإن ذلك يؤدي إلى تخفيف في حدة مرض الصداع النصفي. ومن أشهر هذه الأدوية: فلوكسيتين، زولوفت، باكسيل. وهذه الأدوية ترفع نسبة مادة السيروتونين وتعتبر من أكثر الأدوية المستعملة في الوقت الحاضر لعلاج الكآبة وتكمن فكرتها في منع إعادة امتصاص السيروتونين وبالتالي ازدياد نسبته في الجسم.

(*) الأيض أو عملية التمثيل الغذائي أو الاستقلاب هي مجموعة من التفاعلات الكيميائية التي تحدث في الكائنات الحية على المواد الغذائية المختلفة بواسطة العوامل الأنزيمية بغرض الحصول على الطاقة أو بناء الأنسجة . إنها إذن هي مجموع العمليات الحيوية الكيميائية التي تحدث داخل الجسم لضمان نموه وأدائه الوظيفي السليم بما فيها هدم المواد الغذائية لإنتاج الطاقة وينقسم التمثيل الغذائي إلى:
1 ـ الهدم Catabolism: حيث يتم تكسير المواد الغذائية الرئيسة سواء كانت كربوهيدرات=



بالمشي أو الجري لمدة ساعة. أصبح معروفًا كذلك بأن الضوء الذي يُمتص من طرف العين في الفصول التي يكون فيها الليل طويلًا يُخفض من العواطف النفسية الصعبة، تمامًا كما أصبح معروفًا بأن التجارب العاطفية الجميلة تؤثر جذريًّا في المشاعر النفسية.

تؤكد الدراسات الجديدة في علوم الأعصاب، التي اهتمت بالعلاج المموه Placebo، أي ما هو ممارس في التقاليد الشرقية والدين منذ القدم ويجد اهتمامًا حاليًّا في العلاج العلمي؛ بأن تمثلات ومضامين تفكير معينة تسبب في عمليات تؤثر في المُعاش النفسي إيجابيًّا أو سلبيًّا. وهناك من يستنتج من هذا الأمر بأنه من الضروري الاهتمام بالتمثلات الإيجابية فقط للعيش في سعادة. ويعتقد المرء، بأنه بإمكان كل إنسان اليوم أخذ قرار بنفسه واختيار ما إذا كان يريد أن يعيش بطريقة جيدة أم لا. ما على الإنسان إلّا اختيار الطرق والتقنيات المناسبة لذلك.

إن مثل هذه المعارف قد غيرت جذريًّا تصور غالبية الناس اتجاه التلاعب والتقنيات الإيحائية. فحتى الذين يتمتعون بملكة نقد عالية لا يهتمون ما إذا كان المرء يسلك بتأثير إيحاء ما أو بمحض إرادته. على العكس من هذا، فإن كل ما له علاقة بالتأثير في الآخرين يوقظ الاهتمام. وما يؤكد هذا الأمر هو القيمة الكبيرة التي تُعطى حاليًّا إلى تقنيات الإيحاء الذاتي autosuggestive Techniken للرفع من الشعور بالراحة والسعادة. من طبيعة الحال. هناك فرق كبير بين ما إذا كان المرء يعمل شيئًا لذاته

- أم بروتينات أم دهونًا خلال طرق مختلفة من التفاعلات الحيوية إلى جزيئات بسيطة وينتج عن ذلك الحصول على الطاقة.

2 ـ ابتناء (أو البناء) (Anabolism): الجزيئات البسيطة الناتجة من عملية الهدم يمكن استخدامها كنواة لبناء مواد أكثر تعقيدًا سواء كانت بروتينية أم أحماضًا نووية من خلال سلسلة من التفاعلات وذلك لبناء الأنسجة وتستهلك طاقة في تلك التفاعلات.



عن طريق هذه التقنيات أو ما إذا كان يُعمل به شيء لا يكون له علم به. وعلى الرغم من ذلك، فإن المواقف النقدية اتجاه الإيحاء والتلاعب قد تراجعت كثيرًا، بل تحولت جزئيًّا إلى الاهتمام بها وممارستها.

لهذا التصور الجديد للإيحاء والإيحاء الذاتي والمحاكاة وإمكانيات تلاعب أخرى علاقة مباشرة لإدراك الواقع المابعد حداثي. ويتضح ذلك في الإمكانيات الهائلة التي تتيحها التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية لإنتاج الواقع من جديد وبطريقة مغايرة وما يترتب عن ذلك من جاذبية وسحر من طرف الناس لما يمكن القيام به بمساعدة هذه التقنيات وما يمكن تحقيقه عن طريقها. وهذا ما أدى إلى إعطاء أهمية قصوى لكل ما يمكن «تحقيقه» بمساعدتها. وسنرجع إلى هذا الأمر في الجزء الثالث من هذا الكتاب، نكتفي هنا بالإشارة إلى أن الأمر يتعلق بكل ما له قوة وتأثير باستقلال عما يمتلكه الإنسان ذاته من إمكانيات. ولا تنتمي إلى هذا الأمر خصائص الإثارة التقنية فقط، لكن كل ما يُساعد على معرفة كيف يشتغل شيء ما وكيف يمكن التأثير في شيء ما. ما هو مهم هو كيف يشتغل شيء ما ويعرف المرء طريقة استعماله، لا يهم أتعلق الأمر بتقنيات الخطابة، التقنيات النفسية وتلك المتعلقة بالتأمل أم بالتعليمات الخاصة بالتأثير في خلايا الإرسال للمخ. وهذا الإعجاب بقدرات «العمل» يجعل من إشكالية ما إذا كان الأمر يتعلق بالتلاعب أو الإيحاء أو الإيحاء الذاتي، إشكالية نسبية.

إضافة إلى هذا، فإن تمثل الواقع الما بعد حداثي يقود أيضًا إلى قابلية قوية للإيحاء عند البشر. فإذا كان بالإمكان عمل الكثير من الأشياء بطريقة جديدة ولم يعد لما كان مُتفقًا عليه في السابق أية مصداقية، فإن النتيجة هي تعاظم خُسران معرفة التصرف الموروثة وتوجيه العمل والمهارات



المُتعلمة وضياع تمثل القيم والركائز الأخلاقية وأشكال تواصل بعينها ونماذج علاقات إنسانية إلخ. ويقود هذا الضياع ـ من وجهة نظر سيكولوجية ـ إلى تراجع/ نكوص Regression الأنا، الذي يُظهر اهتمامًا بليغًا بكل ما يُعطي توجيهًا جديدًا، في بعض الأحيان باعتقاد صبياني ساذج. يرافق الإمكانيات الحالية لإنتاج الواقع ارتباك فعلي وفقدان التوجه عند الإنسان، اللذان يجعلانه بالضرورة حساسًا اتجاه كل ما هو عصري وجديد ويقولان له كيف يشتغل شيء ما. ذلك أن سوق الكتاب وقصاصات استعمال منتوج ما وكذا برامج الإذاعة والتلفزة تعيش في جزئها الأكبر من وظيفة تقديم النصائح تحت شعار: «نقول لكم كيف تمشي الأمور». إن الانفتاح الكبير للإنسان المابعد حداثي يعني أيضًا قابليته للسقوط في الإيحاء الخارجي. لم يعد الإنسان قابلًا للتأثير، لكنه أصبح مستعدًّا لقبوله، لأن كل ما يهمه هو ما إذا كان تعامله مع مهاراته «المصنوعة/ المُنتجة» يتم على نحو فعال أو لا.

بغض النظر عن هذه البراغماتية، فإن هناك سؤالين يفرضان نفسيهما هنا: هل يصل المرء إلى مبتغاه عن طريق الأدوية أو بالإدراك الإيجابي، بالإيحاء أو الإيحاء الذاتي؟ والسؤال الأساسي هنا هو بالضبط ماذا تريد ما بعد الحداثة على الإطلاق؟ إذا كان التأثير المستدام هو الهدف، فإن تحقيق هذا الأخير لا يتم إلّا عن طريق تطور شيء ما ومن خلال هذا التطور ينمو شيء ما في الإنسان. لا يهم ما إذا كان المرء يعني بالتأثير المستدام سيكولوجيًّا مفهوم: «تغيير الطبع من أجل المزيد من الإنتاج» أو مفهوم: «النمو النفسي»، أو عصبيًّا تطور التشعبات والشبكات العصبية، أو ما يرافق هذا النمو من الديناميكيات المستقلة التي ترافقه؛ فإن الأمر لا يتعلق إلّا بإشكالية الوصول إلى الظاهرة نفسها: هناك تأثيرات لها خاصية مُستدامة وأخرى لا تتوفر على هذه الخاصيات.



تكون التأثيرات التي تغيب فيها الخاصية المستدامة مضطرة إلى البدء من جديد على الدوام. فمفعول أدوية الأمراض النفسية لا يكون إلّا لمدة معينة. ومفعول تمارين الإيحاء الذاتي، حتى وإن كانت تساعد في أوضاع معينة، لا تتوفر على أيّ مفعول مُستدام، بمعنى الغياب التام للصراعات الداخلية أو عسر النوم. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن تقنيات الإيحاء والإيحاء الذاتي، اللهمّ إذا كانت مرفوقة بممارسة جسدية ونفسية يومية شاقة، نابعة من القوى الداخلية للمرء ذاته. من زاوية ما هو ممكن بالنسبة للإنسان، فإن ممارسة أو تطبيق المهارات «المُنتجة»، غير المتوفرة على خاصية المُستدام، لا يكون مُرضيًا، بل يخيب الظن بها في نهاية المطاف. لهذا السبب بالضبط يُدرس الإنسان المابعد حداثي في هذا الكتاب من زاوية طباعية، يعني بالتساؤل عن التأثيرات المُستدامة التي تتوفر عليها طريقة العيش الجديدة هذه.

أما السؤال الثاني فإنه يتعلق بلماذا يحاول المرء بمساعدة تقنيات الإيحاء والإيحاء الذاتي دفع الناس للإحساس بالتمثلات والمشاعر الإيجابية فقط. ولا يتساءل المرء ما إذا كان هذا ممكنًا، لكن ما إذا كان المرء يقدم لنفسه ولمحيطه خدمة جيدة بإقصاء الأشياء المُضايقة وغير السارة والصعبة وغير المرضية وصلته بالآخرين من التصورات الذاتية. طبقًا لما يُعرف عن عمليات الحياة، وبالخصوص عن التطور النفسي، فإن كل شيء في حياة الإنسان خاضع للتغيير من التطور إلى الموت ومن العلاقة مع شخص إلى افتراق ومن الحب إلى الكراهية. لا يمكن للمرء أن يفترق وألّا يتطور بعد هذا الافتراق، إذا لم يكن المرء عدوانيًّا ويتمسك بمشاعر الرغبة في الابتعاد عن الآخر. الظاهر أن لحياة الإنسان قوانينها



الخاصة، تحاول فكرة إمكانية القيام بكل الأشياء التي تؤمن بها ما بعد الحداثة أن تضع لها حدودًا.

سنقدم فيما سيأتي النتائج النفسية للتكيف مع التغيرات الاقتصادية والتقنية، التي يوجد فيها توجه الأنا المابعد حداثي. وسوف لن نهتم بعد بإشكالية ما إذا كان لتوجه الطبع الجديد هذا تأثير إيجابي أو سلبي على الإنسان، لأن الجزء الثالث يهتم بهذا الأمر. لا يتعلق الأمر في الجزء اللاحق إلّا بمحاولة إظهار كيف تم استيعاب التغييرات المشار إليها أعلاه في الحياة العملية للناس كيف أصبحت تُعاش عن وعي كتوجه طباعي عاطفي كخاصية طباعية.




مكتبة
الفكر الجديد

الجزء الثاني

الإنسان المابعد حداثي

«فقط عندما تعمل على أن تصبح مهمًا، تكون مهمًا»

يسعى كل من له توجه مابعد حداثي بشغف لكي يكون حرًّا، عفويًّا، مستقلًّا، ودون عوائق وبإمكانه تحديد ذاته دون حواجز وبمقاييس معينة. والمحرك الحاسم بالنسبة لمابعد الحداثة هو الرغبة في تحديد الذات انطلاقًا من الذات وإنتاج الواقع من هذه الذات، وهو واقع يخلقه المرء بنفسه، تمامًا كما هو الأمر بالنسبة للحقيقة التي تُمثله، بإنتاج ذاته بذاته طبقًا لشعار: «فقط عندما تعمل على أن تصبح مهمًّا، تكون مهمًّا». وهذه الرغبة في إنتاج واقع موجه من طرف الأنا هي السبب في تسمية هذا التوجه الطباعي بتوجه الأنا المابعد حداثي.

إن الاقتناع الرئيس لتوجه الأنا المابعد حداثي هو: «لا تترك أيّ أحد يقول لك من أنت. إنك ذاك الذي هو أنت». وقد كانت عبارة: «ابق أنت أنت» شعارًا لمشروب «سبرايت» لمدة طويلة. لا يمكن التعرف على المابعد حداثي الأصيل والخاص إلّا في توجه الأنا الراديكالي الذي يفرض نفسه عفويًّا وبإخراج متقن. كل شيء هو اختياري ويمكن التعامل مع كل شيء ومع كل الناس بتلاعب. لا يوجد شيء لا يوجد، ولهذا السبب فإن كل شيء ممكن. وكل ما هو ممكن هو جيد. ليس هناك شيء



خارج التيار. كل شيء سلس وطليق وسَارّ. ليس من حق أيّ أحد تحديد ما هو صحيح وما هو خطأ، ما هو صحة وما هو مرض، ما هو عدل وما هو ظلم ما يتماشى مع الواقع وما هو خيال. كل ما يهم هو إنتاج واقع موجه من طرف الأنا: «أن أكون أنا، أنا بذاتي».

نقدم المثال التالي قصد شرح شغف توجه الأنا المابعد حداثي: تتمثل التجربة اليومية لإنتاج الواقع في الضغط على الزر المشغل للتلفاز أو على آلة التحكم من بعيد لهذا الجهاز. فبالضغط على الزر أُنتج واقعًا مغايرًا تمامًا لواقعي في الغرفة التي يوجد فيها جهاز تلفزتي. ويقوم الشخص الذي يُعتبر أناه موجهًا توجيهًا مابعد حداثي بهذا الأمر بشغف شديد: بما أنه يُنتج واقعه الخاص والواقع المحيط به بقرار ذاتي منه، فإنه يُصبح مُنتجًا ومديرًا تلفزيونيًّا. ولهذا السبب يكون بإمكانه أن يعيش مع ذاته بأصالة، حتى وإن مر من برنامج إلى آخر أو من قناة إلى أخرى.

كما هو الأمر بالنسبة لتوجهات طباع أخرى، هناك وظائف معينة تكون محببة أكثر من غيرها عند الشخص الذي يكون أناه موجهًا توجيهًا مابعد حداثي. وأكثر الوظائف المحببة في هذا الإطار هي تلك التي لها علاقة بالتقنيات الرقمية ووسائل التواصل أو التي تستعملها. ويمتد ميدان هذه الوظائف من صناعة تكنولوجيات المعلومات IT–Branchen، والبرمجة وإنتاج البرمجيات وتصميم المواقع الإلكترونية و«المنتجين الثقافيين» ومهن إنتاج الأفلام وبرامج التلفزة وصناعة الفرجة والترفيه ووسائل الإعلام المطبوعة والفنانين وصُناع الرأي والصحافين وفروع الدعاية والإشهار وخلق أو إنتاج أسواق جديدة وكل ما يُسمى علماء الحياة، الذين يدعون بأنهم يجددون ويحسنون المخلوقات. ما يهم اليوم هو

إنتاج وصناعة واقع ما، يُقرره المرء بنفسه، ولهذا السبب يكون في عرفه واقعًا جديدًا ومغايرًا وأفضل.

رسم حدود توجه الأنا المابعد حداثي بالمقارنة مع توجهات الأنا الأخرى

يتخذ شغف توجه الأنا المابعد حداثي ملامح أوضح عندما يتم رسم حدود له بالمقارنة مع شغف محاولات توجهات الأنا الأخرى تحديد ذاتها بذاتها (على الرغم من أنها تختلط بالواقع).

1 ـ من الضروري تمييز توجه الأنا المابعد حداثي عن النرجسية وعن التشويه الفصامي للواقع. وحتى وإن كان كل شيء يُفهم اليوم كنرجسية، وهو ما له علاقة بالاهتمام بالذات والغرور والتركيز المفرط على الذات، فمن الضروري تحديده بوضوح طبقًا للتعريف الذي أعطاه إياه إيريك فروم[1] كإدراك مشوه للذات الشخصية، والذي ينتج عنه تشويه لكل الإدراكات أو المُدركات الأخرى، التي لا تنتمي للذات الخاصة. ذلك أن النرجسي يفهم ذاته بتكلف كبير ـ سواءً إيجابيًّا أم سلبيًّا ـ فحتى الذي يعتبر نفسه أكبر الفاحشين أو إنسانًا عديم الكرامة يعاني من تصور عن ذاته، تحول لأسباب معينة إلى صورة سلبية. ويرفض في كل هذا الوجه المقابل الآخر لذاته (قبول ضعفه الذاتي وإخفاقه وخوفه وحاجته وتبعيته أو رفض قُدراته الذاتية وقوته ومواهبه وكرامته إلخ)، لكنه يجده بإسقاطه على محيطه. وهذا الرفض والإسقاط هما اللذان يحددان بالضبط علاقة النرجسي بمحيطه. يتميز ربط علاقة ما عند النرجسي بتمجيد الذات عن

(1) انظر بالخصوص: Erich Fromm 1964a, GA II, S. 199-223.



طريق الحط من قيمة المحيط الدائر به أو عن طريق الحط من القيمة الذاتية عن طريق تمجيد المحيط. لكن لا نجد مثل هذا الأمر عند الأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي.

حتى و إن كان الأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي يفضل الواقع الخيالي أو ينغمس عن طواعية في عوالم خيالية، لكي ينسى كل شيء آخر، فإنه لا يرى على العموم أية ضرورة لإدراك ما هو مَخفي في محيطه وترك هذا المَخفي يشد عليه شدًّا. وكون هذا الأنا المُنتج للخيالات والمستهلك لها يرفض الواقع الخيالي المَخفي ويحاول إبعادنا من ميدان إدراكه لا يتناقض مع ما سبقه ذكره. ما هو أكيد هو أن النرجسي يدرك ما هو مرفوض ويُصارعه، في الوقت الذي لا يدرك الأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي هذا الأمر ولا يقاومه؛ لكنه يُسكنه بمساعدة الإدراك الإسقاطي خارج فضائه النفسي، كما سنرى في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

2 ـ هناك شكل ثان لتحديد الأنا، وهو تحديد من اللازم تمييزه عن تحديد توجه الأنا المابعد حداثي، ويتعلق الأمر بالأنانية. يتضمن هذا المفهوم اليوم كذلك كل أشكال الحب والتحقيق الذاتيين والبحث الذاتي عن الذات، لذا من المهم الاتفاق ـ مع فروم ـ على معنى محدد لهذا المفهوم، يبدو معقولًا سيكولوجيًّا، نجده على رأس القائمة في تاريخ المفاهيم: «إن الأنانية في جوهرها هي شكل من أشكال الجشع. ذلك أن الأناني يريد كل شيء له وحده ولا يريد أن يقتسمه مع الآخرين، يرى في الآخرين تهديدًا عوض أصدقاء محتملين»[1]. على خلاف النرجسي، للأناني على العموم القدرة على تمثل محيطه بدقة وصحة، لأنه يريد ما

(1) انظر: Erich Fromm 1979a, GA VIII, S. 299.



يريده بسبب جشعه الأناني تحقيق أغراض بعينها. أما بالنسبة لتوجه الأنا المابعد حداثي ـ وكما أكد على ذلك كُويب[1] كذلك ـ فإن هذا الجشع الأناني غير نمطي عنده. قد يكون المابعد حداثي في طريقة سلوكه الطموح وقوة فرض ذاته لا يعير أيّ اهتمام للآخرين، لكن لا يكون شغفه أنانيًّا جشعًا، كما أنه لا يبحث عن تحقيق مصالحه بالإضرار بالآخر، كما نجد ذلك عند الناس الأنانيين.

3 ـ من السهل نسبيًّا تمييز توجه الأنا المابعد حداثي عن التوحد Autismus. فعلى الرغم من أن هذا المصطلح قد عرف في السنوات الأخيرة تضخمًا في معناه، تمامًا كما هو الشأن بالنسبة لمصطلحي النرجسية والأنانية، نعت كل من يعيش في عالمه الخاص بالمتوحد؛ فإن رغبة توجه الأنا المابعد حداثي في إنتاج واقع غني بالمُعاشات بطريقة مستقلة وعفوية، يوحي بأنه عكس التغليف الذي يعيش فيه المتوحّد.

4 ـ من غير الصعب التمييز بين توجه الأنا المابعد حداثي والسادي السلطوي المحدد لذاته بذاته: عندما تقول سلطة ما: إنني أحكم هنا، لي السلطة هنا، أعرف ما هو خير لك، أنا الذي أقرر ما هو صحيح، فإن هذا الأنا يحاول أيضًا إنتاج واقع ما. من الواضح إذن بأن هذا النوع من التحديد الذاتي وتوجه الأنا محكوم بشغف الرغبة في ممارسة السلطة وجعل الآخرين تابعين أو المحافظة على تبعيتهم؛ ولا نجد مثل هذا الأمر في توجه الأنا المابعد حداثي.

ينتقد المرء باستمرار كون شخصيات القيادة ذات توجه الأنا المابعد

(1) انظر: Heiner Keupp 2000, S. 32f.



حداثي تمتلك أسلوب قيادة سلطويًّا لا يأخذ بعين الاعتبار الآخرين. لكن دراسة طبع معمقة لهذا الأمر، توحي بأن مثل هذه الشخصيات القيادية لا تنتمي للميدان السادي السلطوي. ذلك أن القرارات التي لا تأخذ بعين الاعتبار الآخرين هي خاصية طباعية نمطية للنرجسي أو لصاحب أنا موجه توجيهًا مابعد حداثي، في الوقت الذي تريد فيه القيادة السلطوية ممارسة السيادة على الآخرين ولها الرغبة في إخضاعهم لها وتعذيبهم واعتبارهم أدنى قيمة منها.

5 ـ هناك نوع آخر من توجه الأنا، يظهر في الوهلة الأولى أنه يشبه الأنا الموجه مابعد حداثي، والمتمثل في الإنسان الواعي الميال للربح الذي يقدم نفسه بنفسه، والذي يسمى بطبع التسويق. يكون هذا الأخير خاصًّا بالأفراد ممن تتوفر فيهم شروط شخصية معينة تكمن خصائصها في الرغبة في النجاح وإمكانية بيع الذات. لا يتوفر على أنا: «يمكنه التمسك به وينتمي له ولا يتغير. إنه يغير أناه باستمرار طبق شعار: «إنني كما تريد أن تريدني»»[1]. يحاول صاحب طبع التسويق كذلك إنتاج الواقع بإظهار كفاءاته وحساسيته اتجاه الأشخاص واهتمامه بهم وتهذبه وتواصله وحزمه إلخ. وهنا بالضبط يظهر الفرق بينه وبين الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي. ذلك أن رغبة إنتاج الواقع لهذا الأخير تقوم على الرغبة في إنتاج ذاته بذاته، التي قد يكون لها في آخر المطاف قيمة ترفيهية بالنسبة للآخرين. أما الموجه تسويقيًّا، فإنه يحاول أن يُقبل من طرف السوق، يفهم نفسه كبضاعة معروضة للبيع ويُنتج لتحقيق هذا الغرض واقعًا يُمكِّنه من بيع نفسه بنجاح. فإنتاج الواقع هي استراتيجية تسويق عنده ووسيلة

(1) انظر: Erich Fromm 1976a, GA II, S. 374.



لتحقيق هدف ما، في الوقت الذي يكون فيه إنتاج الواقع هذا عند الأنا الموجه توجهًا ما بعد حداثي هدفًا في حد ذاته.

6 ـ يشترط فهم توجه الأنا المابعد حداثي كنموذج للذاتية أن يكون لهذا التوجه شيء ما يُشبه الذات وعيش هذه الذات. لكن غياب القدرة على الذاتية وعيش هذه الذاتية في معنى ذات متميزة ومستقلة هي عند الكثير من الكُتّاب الخاصية الأساسية للمُعاش المابعد حداثي: «لم نعد منذ مدة طويلة ذواتًا، لكن محطات يصل إليها الكثير من الشبكات»[1]، كما يلخص ذلك هانس يوخائيم بوش أعمال مؤلفين آخرين، اهتموا بالمُعاش الذاتي المابعد حداثي. كما أن إيلازبيث ليست Elisabeth List تستعمل مفهوم «الهيئات الطرقية Terminal Bodies» للتعبير عن الذات المابعد حداثية. وبغض النظر عن هذا، من الضروري تأمل كون المرء يعني غالبًا بـ «الذاتي» الإنسان الذي لا يأخذ بعين الاعتبار الأشياء إلّا من وجهة نظره الذاتية ـ انطلاقًا من نظرته الخاصة فقط ـ ولا يتوفر على انفتاح على الآخرين ولا على وجهات نظرهم، في الوقت الذي يكون فيه الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي «منفتحًا»، إلى درجة أنه يكون من الصعب التعرف فيه أو عنده على ذاته.

7 ـ ما هو جد صعب هو التمييز الدقيق بين الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي وبين الطبع الموجه باستقلال إنتاجي. ما يهم الاثنان معًا هو فرض وتحديد الذات بطريقة مستقلة وعفوية دون تدخل خارجي. لكن هناك اختلاف واضح بينهما: عندما يحقق صاحب طبع موجه باستقلال إنتاجي استقلاله، يعني عندما يحدد ذاته بذاته، فإنه يحدد ذاته انطلاقًا من

(1) انظر: Hans-Joachim Busch 2002, S.7.



وجوده من القوى والأحاسيس والحاجيات القابعة فيه؛ باختصار من كل ما يمتلكه ذاتيًّا وما لا يمكن خلطه إلّا بذاته وهويته الخاصين. ولا تهدد مُطالبات الآخرين ولا انتظاراتهم منه استقلاله. قد لا يستطيع الأنا الموجه توجهًا ما بعد حداثي بداية أي عمل بهذا الوصف للاستقلال، لأن التحديد الذاتي المستقل والعفوي يتحقق عنده بإنتاج الواقع، الذي يخلق الأنا دون إعاقة ولا مضامين ـ يعني من اللاشيء ـ كل مرة من جديد، وهنا بالضبط يعيش تحديد ذاته بذاته واستقلاله. وعكس الطبع الموجه باستقلال إنتاجي، فإن لا وجود للوجود ولا وجود لمُعاش هوية خارج الإنتاج العفوي للواقع عند الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي، وإلّا فإنه سوف لن يكون مُعاشًا ذاتيًّا.

تُفهم الديناميكية النفسية للأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي بطريقة صحيحة عندما يفهم المرء بأنها تتمظهر بطريقتين مختلفتين: في شخصية مقدمة نشيطة وفي شخصية مُستهلكة خاملة. كما سنوضح ذلك، فإن وجهي هذا الأنا ينتميان لبعضهما البعض. يمكن أن يوجدا عند أناس عديدين، على الرغم من أن وجهًا من هذين الوجهين لا يكون في وعي المعنيين بالأمر، لكن بالإمكان أن يُعاشا بطريقة واعية من طرف الشخص نفسه، حتى وإن كان ذلك عادة في إطارات ومضامين مختلفة.

النوع النشيط والنوع الخامل

لا يعني إنتاج الواقع من طرف توجه الأنا ذاتيًّا بالضرورة بأن كل أنا مُوجه يريد أيضًا إنتاج الواقع بطريقة نشيطة. يمكن للمرء أن تكون له الرغبة في إنتاج الواقع ذاتيًّا عندما ينغمس في هذا الأخير ويستفيد منه. لهذا السبب لابد من التمييز بين الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي النشيط



والخامل. ما يميز الأول هو أنه يعيش إنتاجه للواقع بطريقة نشيطة، في الوقت الذي يعيش الثاني إنتاج هذا الواقع كمستهلك. فالأول هو إذن مُقدم ومُقترح، أما الثاني فإنه مُستهلك يقرر بذاته ما يستهلكه من الواقع المُنتج. يعتبر إنتاج الواقع المُقرر ذاتيًا بالنسبة للأول شيئًا فاتنًا وجذابًا، بينما يشعر الثاني بأنه مجذوب اختياريًّا للمشاركة في هذا الواقع.

تقلص أهمية الملكية والخاص

يتمثل السبب السيكولوجي العميق الذي يوجد خلف التمييز بين شخصية مُقدِّمة أو مُقترِحة أو مُمَوِّلَة نشيطة وشخصية مستهلكة خاملة فيما يخص توجه الأنا المابعد حداثي، وكما يوحي بذلك مفهوم «المقدم» و«المستهلك»، في تغييرات السوق وبالخصوص السوق التجاري الرأسمالي وكذا الدور الذي يلعبه الامتلاك في هذه السوق[1]. لم يعد للمُلْكِ، سواء عند المنتج أم عند المستهلك تلك الأهمية الفائقة التي كان يتمتع بها. يُنتج المرء اليوم دون أن يكون له أيّ مُلْك ويتم الاكتساب أكثر فأكثر دون مِلْكية. ذلك أن البضاعة التي تُقْتَرَح وتُضاعف إمكانيات الوصول إلى العوالم المفيدة وإلى عالم المُعاشات؛ تهدف إلى توفير إمكانيات الحصول عليها كسلعة. طبقًا لهذا، أصبح البائع مُمَوِّلًا والمشتري مستهلكًا.

يفقد المُلكُ في الاقتصاد أهميته باستمرار. وهذا بالضبط ما يُؤكده علماء النفس الذين يهتمون بإنسان ما بعد الحداثة. لا يتحدثون عن نهاية «الملكية» أو نهاية مُعاش معين ومحدد للواقع أو نهاية الذات الشخصية، يعني مُعاش الهوية. وبما أنهما ينتميان لبعضهما، وهذا واضح لغويًّا

(1) انظر في هذا الإطار:.J. Rifkin 2000



كذلك، ذلك أننا نجد في مفهوم «الخصوصي Eigentümlichen» كلمة مِلْك Eigentum. وفي كلا الميدانين يفقد الخاص Eigene أهميته.

إن التغييرات الدائمة للسوق، حيث لم يعد الأمر يتعلق إلّا قليلًا بتبادل الخيرات والبضائع، بل أصبح أكثر فأكثر يتعلق بإنتاج عوالم المُعاشات والنجاح في تحقيق إمكانية الوصول إلى مُعاش الخصوصية النفسية، تتطابق والتغييرات النفسية عند الأفراد. وتجد تعبيرًا لها في نوعية الصلة بالواقع المحيط بالناس وعلى الفرد ذاته.

تقوم العلاقة بالواقع وبالناس الآخرين دون الاهتمام بما هو خاص عند الآخرين من قوة نفسية وخصائص متطورة. باستقلال عن الرغبة الشخصية للصلة بالآخرين ودون الأخذ بعين الاعتبار للخاصيات النفسية للناس، فإن العلاقة بكل شيء يوجد خارج الأنا الشخصي، مبني بنشاط ومُقترح على المحيط. أو يحاول المرء الحصول على إمكانية الوصول إلى هذا الواقع المُنتج والغطس فيه بـ «سلبيًّا/ خمولًا» أو المشاركة فيه بطريقة تفاعلية.

ما ينطبق إذن على العلاقة بالمحيط حيث يعيش المرء، ينطبق كذلك على علاقة المرء بذاته، يعني على الذات بذاتها أو على طريقة عيش المرء لهويته. لم تعد هناك كذلك خصوصية الوجود الذاتية والخصوصية في شكل الرشد والخصوصيات المميزة كالشجاعة أو الخوف، المرح أو الخجل؛ تلعب أيّ دور في تعريف ما هو ومن هو الإنسان: «إنني ذاك الذي يُنتج ويبني ذاته القيصرية بحرية وعفوية، بطريقة أكون فيها الآن هكذا وفيما بعد أكون مغايرًا وأعيش ذاتي هكذا». لا يحدد الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي انطلاقًا مما هو، ما يقبع في ذاته أو ما يمكنه أن يخرجه من ذاته. لا



يهمه ما سيصبح ولا يهتم بما إذا كان شيئًا قابعًا فيه يمكنه الرجوع إليه. لا يهمه الدور الذي يجد الإنسان المابعد حداثي نفسه فيه، لأن صورة الدور تشترط بأن هناك شخصًا يتقمص هذا الدور. فالموجهون توجيهًا مابعد حداثي يبنون ذواتهم وهويتهم المُعاشة أكثر فأكثر بطريقة حرة ومستقلة عن الخاصيات الذاتية المفترضة وعن خصوصيات الشخص. فالكيفية التي يعيشون بها ذواتهم تأتي من لاشيء، إنها إذن خلق خالص للذات عن طريق الذات، كما عبرت عن ذلك بطريقة نقدية إيديت فرانك ريزر Edith Frank-Rieser: «اختراع الذات المزمن».

تنعكس هذه الملاحظات في محاولات تحديد مُعاش الهوية للإنسان المابعد حداثي مفاهميًّا. ومن المفاهيم المعروفة في هذا الإطار هناك مفهوم «الهوية المرقعة أو المختلطة Patchwork-Identität»[(1)]. ومن المفاهيم الأخرى هناك مفهوم «التقلب الذاتي Proteische Selbst»[(2)] و«multiphre Zustand»[(3)] و«الهوية المتعددة multiple Identität»[(4)] أو «الأجزاء المتنوعة للذات»[(5)]. ويستعمل هاينر كُويب Heiner Keupp مفهوم «Ichlinge»، الذي استعمله أولريك بيك في كتاب «سجالي مع الأسقف فرانتس كامبهاوس Bishop Franz Kamphaus»، ليتميز عن أولريك بيك، الذي يفضل مصطلح «أطفال الحرية»، الذين: «يرقعون» سيرتهم الذاتية [...] وأخلاقهم الخاصة وكذا دينهم الخاص كمتذوقين

(1) انظر في هذا الإطار مثلًا: H. Keupp 1999 und 2000. وكذا R. Haubel 1997, S 68 ـ 75.

(2) انظر: R.J. Lifton 1993.

(3) K. J. Gergen 1996.

(4) S. Turkle 1995.

(5) H. Bilden 1998.



للحياة». أما ميخائيل إيرمان Michael Ermann فإنه يتحدث عن «نموذج التنشئة الاجتماعية عن طريق وسائل الإعلام»، وهو نموذج تطور عن طريق التواصل الأحادي الجانب للإنسان المعاصر بفعل وسائل الإعلام. يقود هذا إلى «هوية إنسية»، لكنها تُحبط حاجة الإنسان للتفاعل، إلى درجة أن هذه الهوية تُفهم كبديل نرجسي للهوية.

هناك مفهوم آخر قد يكون الأفضل للاستعمال هنا، أتت به الفيلسوفة إيلازبيث لِيسْت، التي عبرت عنه بعبارة: «الهويات العائمة floating identities». ويربط هذا المفهوم علاقة بظاهرة الخوف العائم الحر. ولا يكون هذا الخوف مرتبطًا بأيّ موضوع محدد. وطبقًا لهذا فإن الهوية العائمة بحرية هي مُعاش الأنا، الذي لا يكون مرتبطا بأيّ موضوع.

على العموم لا تطابق محاولات تعريف عيش الهوية من طرف الإنسان المابعد حداثي في مفهوم واحد وكون المرء يميز بين نوعين من طُرق عيش الذات، الأول نشيط والثاني خامل. ذلك أن الخامل لا يبني بنشاط معاشه الذاتي بنفسه، لكنه يشارك الآخرين فيما يقترحونه من مُعاشات الهوية. كما أنه لا يرى بأن مُعاشه الذاتي هو هدف في حد ذاته. إنه يستعمل ما يُعرض عليه من إنتاج ذاتي حر ويختار منه ما يوافق الوضع الذي يوجد فيه، ليس لأنه يوافقه، بل لأنه يُناسبه.

إن اختفاء قيمة وأهمية الملكية بالنسبة للسوق الاقتصادي يطابق إذن نفسيًّا عند الإنسان المابعد حداثي اختفاء أهمية «الخصوصي». وبهذا فإن العلاقة بالمحيط لم تعد ترجع إلى القُدرات الذاتية وإلى عيش الهوية للوجود الخاص. ما أصبح يهم أكثر هو اقتراح أو عرض واقع مُنتج بحرية، بما في ذلك الواقع الخاص وكذا إمكانية الوصول إلى هذا الواقِع



المُنتج واستهلاك أو استعمال الواقع المُعاش المقترح أو المعروض بما في ذلك المُعاش الذاتي. هناك إذن أشخاص يعرضون ويقترحون وآخرون يستهلكون، ليس فقط فيما يتعلق بالعلاقة الخاصة مع الواقع المحيط بالمرء، لكن أيضًا بمُعاش الهوية. لهذا السبب من الضروري التمييز في توجه الأنا المابعد حداثي بين الشخصية المُمولة أو المُقترِحة وبين الشخصية المستهلكة.

سنحاول فيما سيأتي تقديم الخاصيات الشخصية لكلا الطرفين. وسنقوم بهذا طبقًا لزوايا مختلفة:

1 ـ بالنظر إلى العلاقة بالواقع الخارجي وبالناس الآخرين.

2 ـ بالنظر إلى العلاقة بالذات وبالمُعاش الذاتي.

3 ـ بالنظر إلى المهنة المزاولة وكذا السلوك أثناء أوقات الفراغ والاستهلاك.

4 ـ بالنظر إلى التكوين والثقافة وكذا المسؤولية الاجتماعية والسياسية.

5 ـ بالنظر إلى نمط العيش وجماليات الحياة اليومية.

6 ـ بالنظر إلى التوجيه القيمي سواء على المستوى الاجتماعي أو الشخصي وكذا على مستوى فن العيش أو فن الحياة.

7 ـ بالنظر إلى نموذج التفكير والإدراك وكذا مُعاش الفضاء والزمن.

أضفنا ملحقًا في نهاية هذا الكتاب يوضح هذه الأمور.



خصائص شخصية توجه الأنا النشيط (الشخص المُقْتَرِح أو العارض)

1 ـ ما يُحفز في العمق الشخص النشيط أو المُقْتَرِح للارتباط بالواقع الخارجي وبالناس الآخرين هو الرغبة في إعادة إنتاج الواقع بقرار ذاتي شخصي واقتراح هذا الواقع كواقع مُعاش.

يُفهم العالم المحيط بنا ـ أي ما كان يسمى سابقًا «العالم الخارجي» ـ كصندوق بناء ولم تعد له أية وظيفة محدودة أو محددة، لكنه قابل للتغيير كما يريد المرء ذلك. إذا لم يطابق الواقع المعطى تصميم البناء الجديد المحدد ذاتيًا، لأنه مثلًا يفرض حدودًا أو لا يُحفز بما فيه الكفاية وغير مرضي، مليء بالألم، هدام أو يحتوي على إمكانية جعل المرء يمرض، فمن الضروري تعويضه بإنتاج واقع آخر بفضل الإمكانيات التقنية والتواصلية والافتراضية. ويتميز هذا الواقع الجديد بكونه لا يشعر بأنه ملزم بالحدود المتعارف عليها في الواقع المُعطى والفعلي.وبأن له جودة حياة نشيطة وقيمة ترفيهية، طبقًا لشعار شركة آلات التصوير نيكون: «اليوم يعيش والعيش هو خلق Today is Living: living is creating». إلى جانب جودة الحياة لهذا الواقع «المُنتَج»، فإن إمكانية مسح حدود هذا الواقع: «عدم وضوح الحدود» «blurring boundaries»، سواء في الزمان أم المكان، كما تقول دعاية شركة غيفانشي: «بعيدًا بعض الشيء بالمقارنة مع اللانهائي» هي من أهم المثيرات بالنسبة للأنا الموجه النشيط، زيادة على تجاوز الأسس والهياكل البيولوجية والنفسية والاجتماعية المتعارف عليها، أو كما تقول دعاية لشركة رون بولينك: «مرحبًا بكم في عالم أفضل».



ما يمكن تأكيده فيما يخص العلاقة بالواقع يمكن تطبيقه على العلاقة مع الناس الآخرين. ذلك أن نوع العلاقة المحددة ذاتيًّا وغير التقليدية تستبعد كل أنواع العلاقة بين البشر، التي تتأسس على الشعور بالمسؤولية والارتباط العاطفي وتتطلب الأخذ بعين الاعتبار للآخر وتحمل المسؤولية اتجاهه، ذلك أن ما ينتظره شخص من شخص آخر تقضي على العلاقة. فالعلاقات تنجح عندما يحاول كل واحد كفرد حُرّ جعل أناه مُعاشًا بالنسبة للآخر وتنظيم قيمة الترفيه المتبادل بهذه الطريقة. ويتضمن عدم الارتباط المرغوب فيه هذا نصيبًا كبيرًا من التسامح والاحترام اتجاه الآخر وكذا الاستعداد للتعاون والإنصاف في التعامل معه، لكنه يتضمن كذلك اللامبالاة اتجاه كل ما ليست له قيمة ترفيهية. فلا وجود للوفاء إلّا بطريقة مشاريع، يعني طالما أن المرء يكون قادرًا على إنتاج جديد للواقع. بعكس الموجه توجيهًا خاملًا، عند من تصبح الحياة العائلية انطلاقًا من حاجته للاتحاد العلائقي مهمة في كل ما هو جديد؛ فإن الموجه توجيهًا نشيطًا يفهم العائلة كمجموعة من المُوجهين لأناهم كفنانين للحياة، الذين يبهرون بروح العمل في مجموعة ما ويترك كل منهم إبداعه يتطور.

إن المابعد حداثي يحب الاتصال والتواصل جدًّا. ذلك أنه يفهم من القدرة على ربط علاقة الترفيه في المقام الأول. إنه فنان بالولادة. يعني التواصل بالنسبة له قبل كل شيء تقديم نفسه وإهداء المُعاشات بإبعاد الارتباط العاطفي والقرب.

ما يُلاحظ بالخصوص عند الأنا الموجه بنشاط هو تعامله مع الأوضاع الصعبة والمشاكل في العلاقات بين الناس. فعلى الرغم من أنه يضع كل ما هو مُعطى موضع تساؤل بطريقة ساخرة وغير مقنعة، فإنه يحاول إبعاد كل



نقد له عنه أو الهروب منه، بترك المشروع المشترك مع الآخر أو الآخرين ويبحث عن واقع علاقة جديد. إنه لا يفهم الفراق كخسارة، يمكنها أن تجعل منه إنسانًا وحيدًا وحزينًا، لكن كنهاية مشروع معين، قد تكون مهمة في تطوره اللاحق.

2 ـ معاش الهوية عند الأنا الموجه بنشاط: إذا كان الذي يُقدم مُعاشًا معينًا للواقع بالمراهنة على الإخراج الإعلامي والمحاكاة واعتبار هذا الأمر أكثر واقعية وإغراء من مُعاش يعتمد على قدراته النفسية، فإن المابعد حداثي النشيط يحاول أن يعيش ذاته وتقديم هذه الأخيرة بكل الوسائل المتاحة له عن طريق إخراج ذاتي لذاته وبمساعدة فن الخطابة ولغة الجسد والإيحاء إلخ، طبقًا لشعار الدعاية الإشهارية لمانهاتن: «شكل حياتك Make up your life». وينجح في هذا أكثر كلما كان إخراج ذاته بذاته بعيدًا عن الخصوصية المعطاة له أو المنتظرة منه. ذلك أن خصوصية المُقدم أو المُقترح لا تلعب في اقتراحه للعيش الذاتي أي دور، بل تكون عائقًا بالنسبة له ليس إلّا. وبهذا يحدث تناقض ما، يتمتع فيه المُقترح النشيط للمُعاش الذاتي بإشعاع وكاريزما وأصالة معينة، عندما لا يتدخل الخاص والخصوصي في الإخراج الذاتي للذات. والنتيجة هي فهم جديد للأصالة، التي تعني ذاك الذي يخرج ذاته بذاته بمصداقية ويقول دائمًا ما يفكر فيه دون الرجوع إلى الخاص.

بالنظر إلى معاش الأنا من طرف الشخص المُقدِّم النشيط، فإن توجه الأنا يعني الإنتاج الذاتي دون نموذج أو مثال، أو كما تقول دعاية إيبل: «فكر بطريقة مغايرة Think different». ما ينطبق على الأنا الموجه بنشاط هو التالي: «لا أتوجه إلّا بتوجيهي وليس هناك من يحق له أن يقول لي من أنا. إنني أنا من أنا. لا أستطيع ولا أريد أن أحدد من أنا. ذلك أن مُعاشي



الذاتي يتحدد بالضبط في غياب أي مُعاش هوية سابق، وبالتالي غياب أية معرفة لمن وما هو أنا. ليس لي كذلك أي تصور أو أية صورة عني، يمكنها أن تحدد مُعاش هويتي. وليس هناك إلّا جواب عن سؤال من أنا، وهو أنني ذاك الذي هو أنا. الآن هكذا وفيما بعد مغاير وغدا مغاير تمامًا». ليس هناك أيضًا أي «خيط ناظم» ولا أي ممر للأنا ولا أيّ شيء خصوصي فيه. إن الأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي هو ذاك الطبع، الذي ليس له حتمًا أيّ طبع قار ومستمر.

يريد المابعد حداثي النشيط أن يكون هو بذاته كليًّا، لكن ليس بسبب خاصيته وخصوصيته ـ يعني بحدوده الجسدية والنفسية والعقلية ومواهبه وكفاءاته الشخصية ـ؛ بل بالرغبة في تقديم نفسه عن طريق الإنتاج المستقل لأناه. ما يميزه (وما يميز المستهلك السلبي أو الخامل) هو أنه يبني مُعاشه الذاتي من اللاشيء، دون الرجوع إلى أنا معطى، كما تقول دعاية شركة نايك للأحذية الرياضية: «Just do it».

إذا كان المُعاش الذاتي هو نتاج نشأة الأنا، فإن هذا الأنا يتأهل عن طريق اعتقاد المرء بأنه مغاير للآخرين وبأن هذا الاختلاف ليس وسيلة للوصول إلى هدف، بل إنه هدف في حد ذاته. ولهذا السبب يكون الأنا الموجه توجيهًا نشيطًا منبسطًا ومنفتحًا إلى درجة «الفاحشة»؛ إنه يُقدم نفسه في كل مكان أتيحت له الفرصة فيه وله رغبة عارمة للعيش في تناقضات كبيرة ويترك الحرية لعواطفه للتعبير عن نفسها، لكي يُنتج عن طريق قوة أحاسيسه وحساسيته وانفعالاته عاطفة تجعل من طريقة عيش ذاته حدثًا بالنسبة للآخرين. في الوقت نفسه تصبح هذه الطريقة «الهستيرية» لإخراج الذات عن طريق الذات نسبية عن طريق مرونة كبيرة وانفتاح على كل ما هو جديد، بمساعدة الاستعداد الكبير للمخاطر التي



تتجاوز الحدود الذاتية وبمساعدة سخرية ذاتية والقدرة على الابتعاد عن الذات.

الملاحظ أيضًا هو طريقة التعامل مع المشاعر السلبية الذاتية. فإذا كانت هذه الأخيرة قابلة للاستعمال كمُعاشات، فإن الأنا الموجه بنشاط يتأقلم مع نوبات غضبه وعنفه وغيرته. أما إذا لم تكن صالحة لهذا الأمر، فإن الخوف والشعور بالعار والخطأ وإدراك الدونية والوحدة أو العجز تُعزل، بإخراج وتقديم الإدراكات الذاتية الإيجابية.

3 ـ تتحدد المهنة والسلوك الاستهلاكي وقضاء وقت الفراغ عند الأنا الموجه توجيهًا نشيطًا بما يشغل في اللحظة الاقتصاد والمجتمع والسياسة: يعني إمكانية تحقيق الحياة إنتاج أسواق وواقع على شكل أنماط حياة وعوالم مُعاشات معينة. لم يعد العمل أو المهنة يخدم إعادة إنتاج الحياة، بل إنتاجها في شكل تجارب وعوالم مُعاشات. وأهم فروع الإنتاج هذه هي إنتاج وتسويق المعلومات والمعرفة والترفيه أو الفرجة والفن والأدب والمشاعر إلخ.

يركز الأنا الموجه بنشاط كثيرًا على ما يعمله، يعني أنه يتمتع بكونه «فاعلًا»، متحمسًا، مستعدًّا للخطر، يعمل بجد، وإذا كان الأمر يتطلب ذلك ليل نهار، يربط العمل بالتمتع بحياة جميلة ويفهم عمله كمشروع محدد بزمن معين لتحقيق ذاته. والأمور نفسها تميز سلوكه في وقته الثالث. ذلك أن العطلة والوقت الثالث يُفهمان كمجالي حياة يجب تشكيلهما بنشاط.

يستهلك الأنا الموجه بنشاط ما يوافق إنتاج ذاته بذاته ونمط حياته، ولهذا يكون «جميلًا»، كما تقول الدعاية لسيجارة مارلبورو: «تعالَ إلى حيث النكهة Come to wher the flavor is». وحتى وإن كان موجهًا

توجهًا أدائيًّا، فإنه يريد تمتيع نفسه. فالتبضع يخدم عنده خَلْقَهُ الذاتي من جديد. زيارة المحلات والدكاكين التجارية يصبح بالنسبة له ولادة جديدة، وتحدث هذه الأخيرة في: «كاتيدرائيات القرن الواحد والعشرين»[1] ولها طابع ديني تقريبًا. والبضائع المفضلة بالنسبة له هي البضائع المُصمَّمَة والسلع الفاخرة والفريدة من نوعها والأشياء الصناعية أو التقنية وكذا الأحداث الثقافية بكل أنواعها.

4 ـ للأنا الموجه بنشاط فهم خاص للثقافة وللمسؤولية الاجتماعية والسياسية. لا يفهم هذا النوع من الأنا من التكوين إيصال وامتلاك المعرفة. ذلك أن الهدف من المدرسة والتكوين بالنسبة له هو تَعَلُّمُ التَّعَلُّمِ لمواجهة الحياة، على الرغم من أن ما يُفهم من التعلم هو القدرة على إنتاج وإخراج الواقع. وكما تقول دعاية شركة ليبري في هذا الإطار: «تحتاج الكتب إلى واقع ما». فالتعلم يحدث طبقًا لفهم هذا الأنا عن طريق الإنتاج الخلاق للمنتوجات الفكرية والإدراكية والمشاعرية، وكذا عن طريق الممارسة اليومية «lerning by doing»، وبالضبط دون الرجوع إلى ما سبق وما هو موجود إذا كان ذلك ممكنًا. وبهذا المعنى، ما يجب على المرء معرفته هو كيف يمكن للمرء الوصول إلى مصادر المعرفة والدراية بها.

ما يطبع الأنا الموجه بنشاط هو الانفتاح الثقافي («كل شيء ممكن») وبالخصوص الانفتاح على كل ما هو غريب، أو كما تقول الدعاية الترويجية لشركة تويوتا: «ليس هناك شيء مستحيل». بالنسبة لهذا الأنا، لا تعتبر الثقافة الغريبة غريبة بالمعنى القح للكلمة، لكنها تفتح ممرات على تجارب كانت مغلقة، ولهذا السبب يكون لها مفعول محفز على

(1) انظر: H. W. Opaschowski 2000.



الخلق الذاتي الخاص. إضافة إلى هذا، نجد عند هذا الأنا فهمًا خاصًا للثقافة كثقافة. إنها بالنسبة له ليس «الاعتناء» بالقدرات والفن، لكن «خلق» جديد عند طريق إخراج وإنتاج الواقع وعوالم المُعاشات، ولا تقاس أهمية الثقافة بنجاحها (كما هو الأمر بالنسبة لتوجه التسويق)، لكن بخاصية الحدث الذي تقدمه وبتأثير الجديد وغير المعتاد.

تعكس المناقشة العمومية لانخفاض التضامن والشعور بالظلم من جهة ومدح العمل التطوعي والإيثار من جهة أخرى الفهم الخاص للسلوك الاجتماعي والتآزر والشعور بالمسؤولية عند الأنا الموجه بنشاط. لا ينتج الالتزام الاجتماعي أو السياسي عنده لا من الشعور بالواجب ولا من المسؤولية التي تنتج عن المشاعر العاطفية للشعور بالارتباط بجماعة ما. إن العامل الحاسم في هذا الأمر بالنسبة له هو التأثير في شيء ما من أجل خلق وإنتاج واقع اجتماعي وسياسي جديد: «يجد الناس في الالتزام الشعبي إمكانيات لتحقيق عالم حياتهم». فكل التزام من أجل الآخرين يتضمن كذلك التحقيق الذاتي للمرء ومن اللازم أن يكون له طابع الحدث وقابلًا لتحقيق المصالح الذاتية للملتزم. لا يحدد الإيثار كمساعدة للآخر، بل كعمل يعمل فيه المرء شيئًا لذاته، بعمل شيء للآخرين. يجب على «حب الآخر» أن يحقق شيئًا لمن يمارسه.

5 ـ لنمط الحياة وجماليات اليومي أهمية قصوى بالنسبة للأنا الموجه بنشاط. ويعرف الجميل عنده تعريفًا جديدًا. الجميل هو ما يحدد نفسه بنفسه ويعبر عن طريقة حياته. يتمظهر توجه الأنا والتحديد الذاتي للذات في جمالية كل ميادين المُعاش، أو كما تقول دعاية شركة كارول: «كل يوم هو يوم جميل». يُزَيِّن ويُجمّل كل ما يتوافق مع نمط الحياة الخاصة بصفات مستقبلية أو حنين للماضي، بطريقة يتصدر فيها الأنا الذاتي

بطريقة لا غبار عليها المنصة. وبهذه الطريقة تُقدم الشخصية الفريدة من نوعها والمحددة لذاتها بذاتها، والأهم من ذلك هو عيشها بذاتها ولذاتها. يُستغل كل ما يمكن تشكيله للرفع من مستوى أداء الأنا انطلاقًا من الرغبة في الإخراج الذاتي: الجسد الشخصي، الملابس، الحلي، شكل ولون الشعر، تأثيث المنزل وكل الأشياء التي تستعمل بدءًا من النظارات إلى السيارة.

تكمن الخاصية الإستطيقية المابعد حداثية في كون المرء لا ينظر إلى الجمال وكأنه أسلوب موحد ومحدد أو وكأنه أسلوب منسجم ومتماسك، لكن ما يفضله المرء هو وضع الأساليب جنبًا لجنب أو الجمع بين المتناقضات المختلفة. فسواء تعلق الأمر باللباس أم بتأثيث المنزل أم الحلي، لا يوجد هناك شيء لا يمكن الجمع بينه وبين شيء آخر. يسمح المرء بكل نمط حياة وكل زيّ وكل أداء.

هناك خاصية أخرى لنمط حياة مابعد الحداثة وهي خاصية الحدث التي تؤكد عليها. يعني التأكيد على ضرورة أن تكون الحياة «جميلة» وضرورة كونها حفلة واحتفالًا، ولهذا السبب من اللازم أن يتمتع نمط الحياة بخاصية الحدث الاحتفالي. تظهر خاصية الحياة وأسلوب الحياة كحدث عام في الحفلات والاحتفالات، التي ينظمها الأنا الموجه بنشاط كمدير الحدث سواء كان ذلك بصفة رسمية أو خاصة، ويحشوها بالكثير من أفكار التنشيط والكثير من العمل والمفاجآت واللباس والموسيقى الصاخبة. يصبح كل شيء حدثًا، تجربة مُعاشية، حفلًا واحتفالًا: الدعوة للحفل، أمسية الشِّواء، رحلة يوم الأحد بالدراجة الهوائية، نهاية الأسبوع في محطة تزلج على الجليد، حفل عيد الميلاد، الحفلات المنظمة في الشوارع أو نهاية يوم عمل بسيط.



يتخذ الطعام المقترح في الحفلات ـ ومن الأفضل أن يكون عالي الجودة، أجنبيًّا أو خاصًّا بمنطقة معينة من البلد ـ أهمية قصوى، لأن الأكل والشرب كانا سمات الاحتفال دائمًا. إذن ليست ضرورة التغذية هي التي تحفز إنسان ما بعد الحداثة على استهلاك الطعام والشراب في كل حدث، لأنه ليس جشعًا شبقيًّا، لكنه «جشع فيما يخص الحدث». ذلك أن جوعه للتجارب المُعاشية لا تُشبع، ولهذا السبب لا يشبع من الحفلات والاحتفالات. ما هو حاسم في كل هذا بالنسبة له ليس هو هل سيكون هناك شيء للأكل والشرب في الحفل، بل كيف هي جودة هذين الشيئين وهل يقدمان كحدث.

6 ـ على الرغم من أن كل التغيرات المجتمعية وكل تغير في روح العصر يُصاحبان بتغير في القيم، فإن تعامل مابعد الحداثة مع توجهات القيم المجتمعية والفردية وفن حياة مابعد الحداثية يتميز بطريقة واضحة عن كل أشكال تغير القيم الأخرى. بالنسبة لما بعد الحداثة، يُسمح بكل القيم، بما أنها ممكنة. وبما أنه لا يوجد شيء مستحيل بالنسبة لها، فإنه مسموح بكل شيء. فنقطة الاتجاه ليست هي أخلاق الأنوار، الهادفة للاستقلال، وليست اعتباطية ولا نرجسية ولا ذاتية ولا عدمية ولا فاجرة وغير موجهة من طرف اللامبالاة، لكنها أخلاق تزيح الأقنعة وتفكك الشفرات.

يبتعد الأنا الموجه توجيهًا حداثيًّا عن القيم الموروثة أو السائدة بالتصدي إلى مُثُلها بفرض قيم متحررة ومحددة لذاتها بذاتها ويسرق منها الإلزامية التي تتضمنها. يقوي التعامل الساخر لهذا الأنا بما هو مقدس ومهم بالنسبة للناس وهناك انطباع خاطئ يقول بأن هذا الأنا لا يعرف أيّ توجه قيمي، لكن العكس هو الصحيح. فأصحاب الأنا المابعد الحداثي



النشطون، يحققون من طبيعة الحال قيمًا معينة، يعني تلك التي يحددونها بأنفسهم. لكن يكون سبب سلوكهم القيمي مغايرًا تمامًا: يتحررون من كل تحديد قيمي لا يكون منطلقه الذات. فقط عندما لا يكون هناك أيّ توجيه قيمي عام ومُلزِم، فإن توجه الأنا يكون أصيلًا ومحددًا ذاتيًا بالفعل. ويعتبر كل إلزام ناتج عن هذه القيم قابلًا للتغيير، بما أنه محدد من طرف الأنا الذاتي. ما هو مهم بالنسبة للمابعد حداثي النشيط هو ليس ما هو جيد للإنسان ومستقبله وحياته في جماعة، بل ما يعبر عنه تحديده الذاتي، يعني ما يقرره أناه.

يتميز التوجه القيمي للأنا الموجه بخاصيات أخرى. إنه متسامح اتجاه التوجهات القيمية المحددة ذاتيًا، لكنه غير متسامح اتجاه بشر ومؤسسات وفهم قيمي، يحاولون الاستيلاء على الحق في تحديد قيم للآخرين. وعلى الرغم من أن كل شيء مسموح به عند الأنا الموجه بنشاط، فإن هناك بعض القيم تعتبر طابوهات عنده. وتنتمي في المقام الأول إلى هذا قيم تكون تعبيرًا عن الإقصاء المجتمعي وتمارس التصنيف والتفضيل. وهكذا لا يعطي هذا الأنا أيّ اعتبار يذكر لقيمة الشكر، لأن المرء ينظر إلى هذا الأخير كتعبير عن تبعية المُتَلَقِّي للعَاطِي أو وِلاية لهذا الأخير على الأول. لكن عندما يكون هذا الأنا مقتنعًا بأن الشكر هو شيء جيد، فإن ذلك لا يتم عادة إلّا عندما يعتبر القيم المحددة ذاتيًا والمهمة بالنسبة له، مناقضة لقيمة الشكر كالقسوة والبحث عن المصلحة الخاصة. إن «تعايش» القيم المتناقضة هو مؤشر واضح على التوجه القيمي لهذا الأنا.

على الرغم من أن «فن الحياة ars vivendi» قديم جدًّا في الفكر الغربي والشرقي، فإنه يعرف انبعاثًا جديدًا في ثقافات المجتمع الصناعي، وبالخصوص مع فلاسفة مثل فيلهلم شميت (Schmid 1998)، ويرجع



سبب هذا إلى نهاية الديانات التقليدية واضمحلال قوة النظريات السيكولوجية أمام متطلبات الشعور بالحياة المابعد حداثي، إضافة إلى حاجة الإنسان المابعد حداثي إلى إمكانيات جديدة لتحقيق فن الحياة.

تُفهم الأديان المؤسساتية كأنسقة عُبُودِيَة وربط، ولهذا السبب يحاول المرء التخلص من كل عبودية وأوامر وانتظارات واستغلال بعض جوانب الدين بشكل متقطع (الولادة، الدخول إلى سن الشباب، الزواج، الدفن) من أجل الإخراج الذاتي لعتبات الحياة، حتى وإن كانت هذه الجوانب الدينية لا تلعب إلّا دورًا ثانويًا بالنسبة لتوجه الأنا النشيط. ذلك أنه يريد أن يكون هو خالق تدينه وروحانياته. إنه ليس لاديني، لكن له حاجة واضحة لإلحاق عالم اليومي والضروري والواقع المعطى والذات الشخصية إلى واقع أعلى وإلى روحانية ذاتية. وعندما يتعلق الأمر بفن الحياة، تكون رغبة توجه الأنا النشيط كبيرة في تحطيم كل الحدود. إنه يريد القيام بتجارب المباشرة والتمتع باللحظة والعيش في الآن والهنا وتجاوز حدود الفضاء والزمن عن طريق تمارين وممارسات دينية وروحية. وإذا كان الاهتمام بالتصوف والدين البوذي قد ارتفع في السنين الأخيرة، فمرد ذلك إلى جاذبية «المُلغّز» بالنسبة للإنسان المابعد حداثي.

7 ـ أخيرًا، ما يُلاحظ عند توجه الأنا النشيط كخاصية شخصية مهمة هو نمط تفكيره وتمثله وكذا مُعاش زمكاني خاص. على عكس أنماط التفكير المعتادة، حيث يفكر المرء بواسطتها عن طريق أصناف الأسباب والمسببات ويَتَحَاجُّ المرء فيها بمساعدة قواعد منطقية دقيقة، فإن التفكير المابعد حداثي يتميز بتجميع وترتيب وجهات النظر وجوانبها جنبًا إلى جنب. لا يتوجه التفكير طبقًا لتنظيم سببي منطقي ذي معنى للحقائق

وأفكار ومحاولات إيجاد معنى. يجب على التفكير أن يكون خلاقًا وإنتاج الجديد بتحليل السياقات وتجميع المعارف المختلفة بطريقة متحررة من كل قيمة من أجل تحريرها بطريقة جديدة من كل المعاني المعطاة مسبقًا لها، تمامًا كما هو الأمر في طريقة تحليل المجموعات والعوامل في البحوث السوسيولوجية التجريبية. ذلك أن التفكير التجميعي لا يعرف مبدأ الصرامة والتماسك ومضامين موضوعية وعامة ذات دلالة، باستثناء تلك التي يفرضها هو على ذاته بذاته. من هنا فإن عدم التماسك وغياب التناسق هو خاصية الجودة في نمط التفكير المابعد حداثي.

أصبح التمثل مغايرًا أيضًا عند هذا النوع من الأنا المابعد حداثي. فإذا كان فهم التمثل الموروث يُفهم كتبادل لتأثيرات المؤثرات الحسية، يعني للتمثل الباطني/ الداخلي ومعالجته عن طريق أنماط الاستجابة العاطفية له وربطه بسياقات معنى قد تشرحه؛ فإن التمثل المابعد حداثي يتميز بخاصيتين أساسيتين: من جهة إعطاء أهمية قصوى للإدراك البصري. ومن جهة أخرى الحضور القوي للصورة، أي الإظهار البصري لمواضيع البصر، الذي يقود إلى الاعتماد على التغيير السريع للمؤثر الحسي.

تعد أسبقية الإدراك البصري واضحة جدًّا اليوم: ليس لما لا يُقدم في شكل بصري (أو في صور سمع بصرية مُنَمَّطة بقوة، في لغة مصورة وفي تكوين مفاهيم بصرية) إلّا القليل من الحظوظ لإثارة اهتمام المُخرج والمستهلك. ويقود تفضيل الإدراك البصري كذلك إلى غياب استحضار أيّ صور تمثلية باطنية. من يقرأ أو يسمع رواية مثيرة يُنتج أثناء القراءة أو الاستماع بواسطة مقدوراته الخيالية صورًا دون انقطاع، يكون مصدرها كامنًا في ملكات التمثل الذاتية. وهذا بالضبط ما يُخسر عن طريق الإدراك البصري. ذلك أن البصر يسمح باستقبال صور فقط، دون إنتاج صور



داخلية، وبهذا يصاب المرء بالملل إذا لم يُقدم له مؤثر بصري آخر بسرعة ليتمكن من استهلاكه.

يعتمد الإدراك المابعد حداثي إذن على المؤثرات الحس ـ بصرية السريعة. ما يُدرك هو فقط المؤثرات البصرية التي يكون تتابعها سريعًا ومتغيرًا في إنتاجها للارتسامات، وتفضل في هذا الإطار المؤثرات التي تحدث في الوقت نفسه. وبما أنه لا يمكن الهضم والانفعال مع ما يُدرك بهذه الطريقة، بل إن هذا المدرك يُعاش فقط، فمن الممكن الحديث هنا عن إدراك مَشكالي أو مُلون kaleidoskopisch: كما هو الأمر عندما يستعمل المرء آلة مَشكالية، لا توجد فيها إلّا تتابعات صدفوية لصور ملفتة للنظر، دون التعرف على أيّ منطق لها. وعوض ترك ما يُدرك يُهضم من طرف ملكات إدراك المرء، ومحاولة فهمها وتنشيطها عن طريق المؤثرات الحسية، يُحَوَّل النشاط إلى خارج الذات كما هو معروف في أفلام الحركة والإثارة، التي توحي بالنشاط والحيوية أو أفلام الجنس، التي تترك انطباع الجنس، ودون ضجيج لا تكون هناك حياة ودون لذة لا يكون جهد ودون هدم يكون كل شيء ميتًا ومملًّا.

إن الأنا الموجه بنشاط مشغول دون انقطاع في نقل نشاطه إلى الخارج ـ بإنتاجه لصور واقتراحات مُعاشات ـ. ذلك أنه يُخرج طبقًا لرغبات أناه عوالم مُعاشات كاليودوسكوبية.

يُحدد المُعاش الزمكاني عند الأنا الموجه بنشاط بالرغبة في الاستقلال وهدم كل الحدود بينهما. ذلك أن الارتباط بإيقاعات إكراهات الأمكنة والأوقات (كإيقاع الليل والنهار مثلًا) لا يتطابق ومثال الأنا الموجه بنشاط. فالتنقل هو تعبير على السيطرة على المكان وشرط ذلك هو جعل



مجال الحياة فضاء للمُعاشات للذات وللآخرين. أما السيطرة على الوقت فإنها تتمظهر عند هذا الأنا في القضاء على استمرار الوقت كامتداد زمني عن طريق الإسراع من وتيرة الوقت أو عن طريق «الاسترخاء Relaxing»، «الرفع من سرعة الوقت» وعن طريق «اكتشاف البطء» والرغبة في خلود لحظة العيش في الهنا والآن.

لا يخضع الماضي والمستقبل لسيطرة الأنا الموجه بنشاط، ولهذا السبب فإن علاقة المابعد حداثة بهما هي علاقة مُتجاذبة. مبدئيًّا يرى هذا الأنا وجوب نسيان كل ما مضى، كما يعتبر كل موروث كتحديد خارجي وأجنبي، لأن الواقع يُفهم كاستمرار واستمرارية (هيرقلط). عوض الحدوث التاريخي الماضوي يدخل: «حاضر مخلوق ذاتيًّا في لحظة أزلية غير تاريخية، ليس لها أيّ تاريخ مُلزِم، ولا تتطلب إلّا سردًا متماسكًا من مشهد لآخر»[1]. وفي مقابل غير التاريخ هذا هناك تعامل نوستالجيا مع التراث، إذا كان هذا الأخير قادرًا على المساعدة في الإخراج غير العادي للواقع من جديد.

تتميز خاصية التعامل مع المستقبل بفكر مابعد أوتوبي، يقدم نفسه في غالب الأحيان كنقيض لليوتوبيا و«غير مسؤول»: ما يهم هو ما هو اليوم والآن («إننا المستقبل بذاته»)، («من بعدنا الطوفان»). وانطلاقًا من هذا النوع من التفكير تعتبر المقترحات الاجتماعية والسياسية المستقبلية بالنسبة لهذا الأنا مشتبهًا فيها أيديولوجيًّا. وعوض هذا هناك «افتراض الاستمرار»، يعني افتراض كون الإنساني سيعرف ويقدر على أكثر مما يعرفه ويقدر عليه الآن. لكن الوجه الآخر للميدالية هو أن الأنا المابعد

(1) انظر في هذا الإطار: E. Frank-Rieser 2002, S. 53.



الحداثي النشيط يستغل المستقبل، بل يُخرجه في شكل أفلام الخيال العلمي، حتى وإن كانت غالبية هذه الأفلام تتنبأ بالرعب والكوارث.

خصائص شخصية الأنا الموجه سلبيًا / المستهلك.

تميز الكثير من الجوانب التي ذكرناها سابقًا توجه الأنا سواء النشيط أو السلبي منه. تشبه محاولة وصف خصائص شخصية الأنا السلبي التي سنقدمها هنا الخصائص السَّبْع التي قدمناها عن شخصية الأنا الموجه بنشاط، لكنها تترك جانبًا عن وعي تكرار التأكيدات العامة التي قامت بها فيما يخص توجه الأنا المابعد حداثي.

1 ـ ما يحفز المستهلك السلبي فيما يخص حاجته الداخلية للارتباط بالواقع الخارجي وبالناس الآخرين هو رغبته عيش واقع جديد ومغاير طبقًا لذوقه الخاص. فكل ما يكون دون حدود، جديد، رائع، «واقعي أكثر» (مفرط الواقعية)، لافت للنظر، غريب، مثير؛ يكون مسليًا. وكل ما هو محبط، لأنه يفرض حدودًا، مقيدًا، مخيبًا للآمال، مُعَرِّضًا للمرض، عدوانيًّا وهدامًا، سواء أكان إنسانًا أم طبيعة، يكون منبوذًا. لكن البعدين معًا يحددان شخصية المستهلك السلبي. ومن المعلوم أنه أصبح بالإمكان اليوم إيقاف المشاعر السلبية بفضل الابتكارات التقنية والإمكانيات التواصلية بالتغيير إلى برنامج آخر والغطس في واقع مُنتج جديد، أو كما تقول دعاية ديزني لاند في باريس: «احضر واترك نفسك تُسْحَر».

يتوقف العالم «الجميل» الذي يريد أن يصل إليه شخص ما على الأنا المُحدِّد لذاته بذاته وعلى ما يوافق تصميمه العفوي له. وبما أن وضع الحاجات الحينية تلعب دورًا في اختيار الواقع الجديد، فقد يكون الوضع هكذا بالفعل، لكنه لا يُعاش هكذا. قد يعني كون المرء تابعًا



داخليًّا وخارجيًّا إلى أوضاع حاجات وتحديدات، بأنه مُقاد بأوامر عوض تحديدها بحرية بنفسه، كما نلمس ذاك في شعار دعاية شركة كالفين كلاين للعطور: «Just be». وليتمكن المرء من عمل هذا، لابد أن يتوفر على الإمكانيات التواصلية لذلك.

إذا كان ضغط البناء الجديد وإخراج الواقع خاصية مسيطرة عند الأنا الموجه بنشاط، فإننا نجد بأن للأنا المستهلك السلبي ضغطًا كبيرًا في رغبته الحصول على إمكانية الوصول إلى العوالم المحددة ذاتيًّا، وحضورها والانتماء لها وألّا يُستثنى منها وأن يكون وسط ما هو جديد وأن يكون زبونًا: «أن يكون مباشرة في ومع الحدث». يصرف المرء الكثير من المال اليوم ليحصل على إمكانية الوصول إلى هذه العوالم، إلى الإنترنيت أو قضاء نهاية أسبوع في عالم من هذه العوالم، والمشاركة في الأحداث الحينية/ الآنية، ومشاهدة برامج التلفزة بالكَابْل ودفع فاتورة الكهرباء وفيديوهات الإيجار وتنقله.

إن الرغبة للوصول إلى الأشياء والأشخاص والمشاركة فيها ومعهم، هي كذلك سبب عقد صلة بالناس الآخرين. يريد المرء عقد صلة بالآخرين، محددة بطريقة ذاتية، مربوط إليهم، على اتصال بهم، متشابك بهم، دون أن يُلزم بأيّ شيء أو يتحمل أية مسؤولية تذكر، وكما تقول الدعاية لشركة آلات التصويرت نيكون: «نوكيا تربط الناس Nokia connecting people». كما أن «شعور النحن» الجديد هو من بين أهم مقومات شخصية الأنا الموجه سلبيًّا. يريد المرء أن يكون جزءًا من الناس الذين يتطابق معهم ويحدد بذاته مع من يتقاسم الحياة ومع من يتواصل. ولهذا السبب يعني كون المرء متصلًا بالآخرين هو أن يكون المرء حرًّا، ذلك أن عكس الارتباط verbinden هو

العبودية Gebinden. يتضمن غير المُلزِم المُراد لشعور النحن درجة عالية من التسامح والاهتمام بالآخرين، المنتمين للمجموعة نفسها والذين لهم الذوق نفسه. ويكون المرء لامباليًا اتجاه كل الذين لهم نمط حياة مغاير، إلّا إذا هاجموا نمط حياة الأنا الموجه سلبيًّا. وفي هذه الحالة يستعمل المرء كل وسائل الهدم الممكنة للدفاع عن نفسه من الآخرين. لكن المنتمين للأنا نفسه يتمتعون فيما بينهم بالإنصاف والتعاون.

تلعب الرغبة في الوصول إلى إمكانيات بعينها بقرار ذاتي، دون أن يكون المرء ملزمًا بأيّ شيء، كما يلعب شعور النحن دورًا كبيرًا في المركبات والمجمعات السكينة. ويحددان بالخصوص العيش معًا في علاقة شراكة، سواء أكانت زوجية أو عائلية.

يبحث هذا النوع من الأنا عن علاقات شراكة يكون فيها الارتباط ذا توجه نفعي ويُقْسم فيها مُعاش النحن على عوالم وأنماط مُعاشية، بحيث إن المرء لم يعد مضطرًّا للاهتمام فيها بالمُغَايِرِ والمُختلف عند الشريكين. واستمرار مثل هذه العلاقات محصور على المدة التي يدومها مشروع المُعاشات المشتركة. وتعرف العائلة عند الأنا الموجه استهلاكيًّا أو سلبيًّا معنى جديدًا. تُفهم كفريق جيد، يُستحسن أن تعيش في حضنه أجيال كثيرة، لكن من اللازم ألّا يكون فيه أية تبعيات أو ولاية. يُحدد العيش معًا عن طريق قواعد اللعب النظيف Fairplay وكذا عن طريق استغلال متبادل لأعضاء الفريق تحت شعار: «الترابط غير الملزم». إذا نجح النموذج المابعد حداثي، فإن الافتراق الكبير عن الوالدين في سن المراهقة سيندثر.

يعرف ما كان المرء يسميه تقليديًّا «القدرة على الدخول في علاقة»



تحديدًا جديدًا كذلك: ذلك أن الذي يكون قادرًا على الدخول في علاقة هو الذي يكون في تواصل، يعني يُدرِك اقتراحات التواصل، يستعملها، يستهلكها تفاعليًّا، وبهذه الطريقة فإنه يضمن الترابط مع الآخر. فالاعتناء بالتواصل كطريقة مابعد حداثية لِعَيْشِ العلاقات هي همزة الوصل بين مساعي المابعد حداثي السلبي، فهو موجه من طرف الأنا وله ارتباط مع الآخر في الوقت نفسه. ذلك أن المرء يكون مرتبطًا، لكن ليس بطريقة تكافلية كالتبعية السلطوية أو الفُصامي أو النرجسي أو قشوريًّا، كمن يكون موجهًا عن طريق التسويق أو بسبب امتلاك تصورات عاطفية داخلية عن الآخر (كالموجه إنتاجيًّا)؛ لكن بطريقة مقررة ذاتيًّا بمساعدة الدخول في علاقة مع الآخر.

لا يستطيع لا المابعد حداثي النشيط ولا نظيره السلبي/ المستهلك تحمل الفراق، لأن هذا الأخير يعني المعاناة بالنسبة لهما ويمثل القضاء على التواصل، الذي يهدد توجه الأنا. ولهذا فإن توجه الأنا السلبي يحاول تقوية توجهه ويثق به أو عند الضرورة يقوم بعقلنة الفراق باعتباره تغييرًا مهمًّا لنمط حياة لم يعد يطابقه أو يغير الشريك بآخر أحسن منه كتغيير لمشروع كان لابد منه أو كاكتشافات جديدة لعلاقات أخرى. ويحدث هذا دون استياء ولا تخفيض من القيمة الذاتية ودون ضغائن.

ينفي/ يكبت المرء الصراعات والخصامات أو يتجنبها بمغادرة عالم المُعاش الذي تحدث فيه. وكما يحدث في بعض الأحلام، عندما يصبح الخوف كبيرًا جدًّا، ويغير الحالم دوره ويصبح مراقبًا يتحكم في مسار أحداث الحلم؛ فإن بناء الواقع من طرف الأنا الموجه سلبيًّا وتشكيل الارتباط بالآخرين يُسهِّل كثيرًا تغيير العلاقة أو الخروج من الدور. يترك المرء تحمل الصراع إلى الآخرين (المحامي، جمعية حماية المستهلك،

وسائل الإعلام، القصور، البرامج التلفزية التي تهتم بمشاكل العائلة وتربية الأطفال والطلاق والموت والهدم) ويعيش ذاته «كمُلاحظ مُهتم».

يحمي الأنا الموجه سلبيًّا نفسه من النقد بتقوية الانتماء إلى نمط الحياة المحددة ذاتيًّا. وأكبر مشكل يتعرض سبيل هذا الأنا هو قدرته على النقد الذاتي، لأنه يهدد ويقضي على ارتباطه بجماعة ما أو انتمائه لها. ولهذا فإنه يفضل طريقًا آخر، يمشي عليه للتعامل مع عدوانيته الشخصية: إنه يغير الاتجاه ليصبح ملاحظًا ويتسلى بكوميديات هجاء وسخرية، ويترك النقد لفناني تفكيك بارعين كهرالد شميت Harald Schmidt أو الفرق الموسيقية النقدية.

2 ـ أما فيما يخص مُعاش الهوية، فإن الأنا الموجه سلبيًّا يستغل إمكانيات عيش ذاته بذاته كما هي في عوالم وأنماط المُعاشات التي يختارها عن طواعية وتوافقه. يريد أن يكون هو ذاته بالكامل («لتكن أنت أنت بذاتك») باستعماله لذات مُنتجة مُقترحة ويشاركها أحوالها ويشعر بأنه مرتبط بها دون امتلاكها. فإذا كان عيش الذات من طرف الذات عند الأنا الموجه بنشاط نتاج فرض للأنا، فإنه عند الأنا الموجه سلبيًّا نتاج مُعاش النحن: «إنني أنا أنا في مُعاش النحن». ويكون هذا النوع من المُعاشات ممكنًا باشتراكه في عوالم مُعاشات مُخرجة، كما تقود دعاية شركة سييمنس: «ننتمي لعائلة واحدة».

إذا كان الأنا الموجه بنشاط يعيش ذاته كمُنتج و«فاعل» في المقام الأول، فإن الأنا الموجه سلبيًّا يعيش ذاته كمستهلك لما يقترح عليه من مُعاشات، يُنشط عن طريقها ويعيش ذاته من خلالها. وإذا كان ما يُعاش ذاتيًّا نتاج مُعاش النحن، فإن وظيفة هذا الأخير تكمن في تنشيط الأنا



المستهلك. فبدون مُعاش النحن والارتباط بعوالم ونمط حياة مُعاشات، لا يكون هناك عنده أيّ عيش ذاتي لذاته. يعيش الأنا الموجه سلبيًّا بأصالة ويكون أصيلًا مع ذاته عندما يُشارك مثلًا في عوالم مفرطة في الواقعية ويكون جزءًا من العلامات التجارية ومرتبطًا بعوالم حياة تكون أصالتها مُنتجة، وتُعاش اليوم بفضل الإمكانيات الرقمية التقنية المتاحة وكأنها أكثر واقعية من كل ما يملكه المرء من «خصوصية».

يتضح معنى بناء الهوية هذا في جزئياته عندما يهتم المرء عن قرب بالمُعاش العاطفي والمشاعري، يعني الاهتمام بالجوانب التي تميز مُعاش الهوية والذات. ذلك أن الأحاسيس والعواطف لا توجد في العالم الداخلي للأنا الموجه، الذي يمكن أن يرجع لها. فإذا كان النشيط يُنتجها كل مرة من جديد ومن اللاشيء بطريقة غير محتشمة وظاهرة للعيان، فإن الأنا المُستهلِك يمتلكها من خارج ذاته، باستهلاكه لما يُعرض عليه من مشاعر مُنتجة من طرف وسائل الإعلام (عن طريق صحافة الفضائح) والأحداث الثقافية. يُنشط المرء ويُجرف إذن عن طريق الفضائح المؤثرة و«المشاعر السلسة» ويصبح مشاعريًّا. يشعر المرء، حسب العواطف التي تُقدم له، إما مغتبطًا بدون حدود أو مكفهرًّا حد الموت، وفي كلتا الحالتين يكون «متأثرًا بعمق».

يعتبر التعامل مع القيود والحواجز نقطة حساسة في عيش الذات بالنسبة للأنا الموجه، الذي ينفيها/ يرفضها عن طواعية. فإذا كان الأنا الموجه بنشاط يحاول الاحتماء من محدوديته عن طريق اكتفاء ذاتي قوي، فإن الأنا الموجه استهلاكيًّا يحاول التصعيد من الارتباط بالآخرين إلى أعلى مستوياته لمسح الحدود بين الأنا والأنت.



لابد أن نشير أخيرًا إلى تعامل الأنا الموجه سلبيًّا مع المدركات الذاتية السلبية (مشاعر الخوف والشعور بالخطأ والعار وعدم القيمة والاكتئاب والفراغ الداخلي والعجز وعدم القدرة على الدفاع عن الذات إلخ). فإذا كان الأنا الموجه بنشاط يُبعِد عن نفسه مثل هذه المُدركات بمساعدة إخراج عواطف إيجابية، فإن الأنا المستهلك يغير ببساطة المُعاش المقترح ويغطس في مشاعر مُقترحة تُمكنه من إدراك نفسه إيجابيًّا. وفي حالة الضرورة يكون مضطرًّا للجوء إلى المواد المنشطة والمخدرات والأدوية، التي تؤثر على جهاز الإرسال عنده.

3ـ يتحدد ميدان شغل الأنا الموجه بخمول بتفضيله الانتماء إلى شركة عائلية واستعداده القوي للتماهي مع فلسفة الشركة «الهوية المؤسساتية». ويكمن فن تنظيم الشركة في رغبة هذا الأنا في الارتباط بهذه الأخيرة واستغلالها وتوجيهها بطريقة تلبي فيها رغبته في عيش وتحقيق التعاون عن طريق تنظيم النشاط المهني فعليًّا. إضافة إلى هذا من الضروري أن يكون هناك تجسيد وتنفيذ لمُعاش الانتماء، في شكل بذلة عمل أو مُعاشات وترفيه جماعي. في الغالب ما يكون الأنا الموجه استهلاكيًّا يفضل مناخًا تعاونيًّا في العمل عوض الوصول إلى درجة عالية من المسؤولية في عمله وبأجر أحسن.

كلما شعر الأنا الموجه سلبيًّا في عمله والقسم الذي يشتغل فيه وفي شركته بأنه غريب، كانت حياة عمله في صراع مع حياته الخاصة ووقته الثالث. ذلك أنه ينظر إلى الشغل فقط كشر لابد منه من أجل حياته الخاصة وتنظيم أنشطة وقت فراغه.

يتحقق الأنا الموجه سلبيًّا كليًّا في سلوك وقت فراغه واستهلاكه. ذلك



أنه يعتبر العوالم المُنتجة والواقع المُخرج «معاصرة»، «حيوية»، منشطة أكثر من الطبيعة أو ما يُمكن أن يحققه بمساعدة قواه الخاصة، لذلك يعيش على شعار شركة تشيبو: «كل أسبوع عالم جديد». وتستغل العطلة وأوقات الفراغ أساسًا للغطس في مثل هذه الفضاءات، التي لا تكون ممكنة في الحياة المهنية. ويعني الاستهلاك في المقام الأول بالنسبة له الوصول والمشاركة في عوالم حياة مُختارة ذاتيًّا ومناخات مُعاشية تلائمه. ما يستهلكه هذا الأنا هو قبل كل شيء إمكانيات مُعاشية، تمتد على مدى بعيد من المعروضات المقترحة من الأساطير والمُثل والمشاركة في مشاكل العلاقات والحياة وعوالم الثقافة الصناعية المؤسسة على الإخراج. إضافة إلى هذا يستهلك السلع ذات العلامات التجارية وتجسيدات أشكال وأنماط حياة هذه السلع، التي تطابقه ويرغب في الانتماء لها، حتى وإن لم يكن في وسع المرء اقتناؤها، ولهذا السبب يلتجئ إلى تصيد فرص الخصم من الثمن للشركات والمصانع أو يشتري عبر الإنترنيت. لا يُستغل التبضع في حد ذاته لا لضمان العيش ولا لاستعراض الذات أو ضمان الاحترام والهيبة، لكن له في الغالب صبغة دينية. ذلك أن التواجد في «جنات التبضع» و«أديرة الاستهلاك» يضمن الحصول على حصة من عالم معاشي يتمناه المرء.

4- إن فهم التكوين والثقافة وكذا تحمل مسؤوليات اجتماعية وسياسية تكون محددة من طرف الأنا الموجه سلبيًّا في المقام الأول طبقًا لتوجه الأنا المهيمن. هناك تحقيق آخر للأنا الموجه سلبيًّا تقود في جزئياتها إلى خصائص مغايرة تمامًا لخصائص الأنا الموجه بنشاط. وهكذا فإن الأنا الموجه سلبيًّا لا يفهم التكوين كتعلم دائم للتعلم، لكن كتتمة لمُقترحات التعلم وكإمكانية للوصول للمعرفة المُقترحة. يتعلم هذا الأنا قبل كل شيء



عن طريق المشاركة وتكرار وتخزين لما شارك فيه، ولهذا السبب أصبح استعمال وسائل الاتصال والإمكانيات البصرية أعلى نصيحة ديداكتيكية. ما هو حاسم في كل هذا هو وجوب تمتع التعلم بجودة المُعاش، التي لا تُثار عن طريق أسئلة واهتمام هذا الأنا بما يتعلمه، لكن تمكين المُتَعَلِّم منها وبالخصوص عن طريق وسائل الإعلام.

لا تحظى تجربة روض الأطفال الغابوي، حيث يقضي الأطفال يومهم في الغابة دون ألعاب مصنوعة، ويتعلمون معرفة الطبيعة وأنفسهم والأطفال الآخرين ومن يرعاهم ويتمرنون على التعامل مع بعضهم البعض ومع الطبيعة بطريقة غير أداتية بأيّ اهتمام في مستويات التربية الأخرى. على العكس من هذا فإن المرء يعتقد بأن سياسة التعليم والتكوين لا تتقدم إلّا عن طريق «التسليح» بوسائل الإعلام والتقنيات التقنية، التي تتطلب ذلك الفهم الذي يتعلق الأمر فيه بمعرفة من بحث للإجابة عن سؤال ما وكيف يمكن للمرء الوصول بنفسه إلى هذه المعرفة.

ليس للمسؤولية التربوية للأبوين وللمدرسة عند الأنا الموجه سلبيًّا في الواقع أية علاقة بتشجيع الأطفال والشباب للوصول إلى القدرة على الوصول إلى مُعاشات على أساس تعبئة قواهم الحسية والنفسية والجسمية والعقلية، حتى وإن كانت مقترحات التربية تباع بهذه الطريقة. ذلك أن التربية تعني بالنسبة للكثيرين اقتراح مُعاشات مُنتَجة جاهزة للأطفال والشباب، قصد تسليتهم لكي لا يملوا. من اللازم أن يقترح المرء كل شيء، ومن الضروري أن يكون لما يُقترح جودة المُعاش. وهكذا تحتاج المعلومات كـ «إعلام Infotainment» قيمة مضافة تتمثل في التسلية وتتطلب الأخبار مقترحات مشاعرية بالنسبة للمستمع أو للمتفرج وتقترح مضامين التعليم كمُعاشات.



للتفتح الثقافي، الذي يعتبره الأنا الموجه بنشاط مهمًّا، معنى آخر عند الأنا الموجه سلبيًّا؛ يكمن في جانبه الاستهلاكي. لا يبحث هذا الأنا عن التعدد والتفتح الثقافيين إلّا لتوزيع والرفع من القدرة على المُعاشات الذاتية. إن الاهتمام بالثقافات الأخرى والرغبة في الوصول لها ناتجة عن قيمة المُعاش التي توفرها هذه الثقافات للأنا الذاتي. وسبب تحول اللهجة هذا هو التعريف الذي يعطيه الأنا الموجه سلبيًّا للثقافة. تعتبر الثقافة بالنسبة له الاستقبال والمشاركة في العوالم المُنتَجة، التي تستمد أهميتها من قيمة المعاشات التي توفرها. ويؤثر تعريف الثقافة هذا على الأنشطة الثقافية ذاتها. فكلما كان الإخراج غير عادي ومرتبطًا بالكثير من العمل، وكلما كانت التقنية الإعلامية دقيقة ومغرية، وكلما كان التأثير الحسي والعاطفي والمعرفي مكثفًا، كانت قيمة مُعاش الثقافة المقترحة كبيرة. وقد لاحظ هيلموت كلاكس في هذا الإطار: «وجود إمكانية عائمة لروح مشتركة في المجتمع»[1]. ويوجد مثل هذا الالتزام بالخصوص في المجموعات التي لها الاهتمامات نفسها والموجهة بطريقة مشاريعية، التي تكون محددة بالرغبة في المشاركة في أنشطة معينة. ويصبح واضحًا عندما يمعن المرء النظر بأن السلوك الاجتماعي والتضامن والإحساس بالمسؤولية عند الأنا المستهلك يكون محددًا بالقيمة المُعاشية التي قد يوفرها الالتزام. وتعني قيمة المُعاش بأنه من الضروري أن يخدم الالتزام الرفاهية والتطور الذاتيين والحاجة للمؤانسة والمتعة واللهو والترفيه. ويوضح الالتزام المقرون بقيمة المُعاش لماذا ينتهي الالتزام ـ وبالخصوص في الأحزاب السياسية والمبادرات الوطنية ـ إلى الانسحاب المُحبط، لأن إمكانيات التغيير تكون ضئيلة ولا تتحقق قيمة المُعاش إلّا قليلًا.

(1) انظر: Körberstiftung 1993, S. 40; vgl. Helmut Klages 1998.



5 ـ يلعب نمط وجماليات الحياة عند الأنا الموجه استهلاكيًا دورًا مهمًا كذلك، وهما اللذان يمكن ملاحظتهما ببساطة كخاصيتين للأنا الموجه مابعد حداثي. ذلك أن ما يهم هذا الأخير في المقام الأول هو التحديد الذاتي لطريقة عيشه، التي تجد التعبير الواضح عنها في نمط عيشه وجماليات المُعاش اليومي. وعكس الأنا الموجه بنشاط، الذي يحدد نمط حياته بنفسه، فإن الأنا الموجه استهلاكيًا يلتجئ إلى العلامات التجارية وشعاراتها وإلى رموز أنماط الحياة، لكي يحصل على إمكانية المرور إلى عوالم وأنماط حياة معينة والمشاركة فيها طبقًا للشعار الدعائي لشركة تيليكوم الفرنسية: «مرحبًا بك في الحياة». يحاول هذا الأنا استهلاك وامتلاك كل ما يرمز إلى تشكيل نمط حياة مبدعة وما يكون معاصرًا ومُقترحًا، أو أنه يتقمصه ويتزين به. يستغل المرء كل ما هو مُشَكَّل بطريقة فنية للرفع من أداء الأنا، طبقًا لنمط الحياة الذي يشعر المرء بأنه ينتمي له. يُزَيَّن الجسد مثلًا عن طريق ثقب الأنف أو الأذن أو أيّ جزء آخر منه وعن طريق وشمه بكل أنواع الوشم وشفط الدهون والعمليات الجراجية التجميلية، لكي يطابق تصور ما هو جميل عند هذا الأنا. وما هو «جميل» في عرفه هو ما يعبر عن طريقة عيشه.

هناك مفهوم جد مهم في لغة جماليات اليومي عند المابعد حداثي، ألا وهو مصطلح الإبداع. ذلك أن توجه الأنا المابعد حداثي يعتقد: «فقط عندما تحقق شيئًا، تكون شيئًا مهمًا». فإذا كان الإبداع يعني بالنسبة للأنا الموجه إيجابيًا الإخراج بمعنى الوصول إلى شيء جديد، مغاير، غير عادي، خيالي، مستحيل، فإن المصطلح نفسه يعني بالنسبة للأنا الموجه استهلاكيًا التعبير الموجِّه. إنه يريد أن يكون مبدعًا في مجموعة مبدعة. ذلك أن إبداعه الذاتي يتوقف عنده بقوة كبيرة على مساعدة فنية من الخارج



أو على الأجواء التي يكون فيها سواء في التوسكانا أم الجنوب الفرنسي. فهالة الرسامة الكبار أو الزي الفني هي التي تسمح بالإبداع الذاتي، أو كما تحُثُّ على ذلك دعاية شركة سوني: «اذهب اخلق Go create».

تعتبر «المُعاشات» وكل نشاط يمثل «حدثًا» أهم قيم نمط الحياة وجماليات اليوم المابعد حداثي: لابد أن يحدث شيء ولا بد أن يعيش المرء شيئًا ما. ولهذا السبب تصبح الحياة في حد ذاتها حدثًا وتفهم كحفل واحتفال، بطريقة يريد المرء فيها أن يشارك في كل ما له صفة الحدث. أما فيما يخص نمط الحياة، فإن ما هو مهم بالنسبة لهذا الأنا هو أن يكون لأنماط الحياة خاصية المُعاشات تُطابق ذوقه وتساعد على الغطس في عوالم حياة مُنتجة، منشطة، جديدة، ومُخرجة بطريقة فنية؛ وماسحة لكل الحدود التي تفرضها أنماط الحياة التقليدية. بالمقارنة مع توجه الأنا النشيط، الذي يبحث في المُعاش في المقام الأول عن رفع الحدود وتجاوزها، فإن ما يهم الأنا الموجه استهلاكيًّا هي المُعاشات التي باستطاعتها مسح الحدود المفروضة، التي تسمح بالقيام بارتباط بها وخوض غمارها. وما يتشارك فيه معًا، أي الأنا الإيجابي ونظيره الاستهلاكي، هو أنهما «جشعان» وراء كل ما له صفة الحدث، يتذوقان كل حفل خاص أو عمومي له هذه الصفة.

6 ـ كما هو الشأن بالنسبة للأنا الموجه بنشاط، فمن الضروري للتوجه القيمي المجتمعي والشخصي بالنسب للأنا الموجه توجهًا استهلاكيًّا أن يسمح بكل شيء. ما يجمعهما كذلك هو كون تناقض القيم لا يُحرجهما (التغذية بطريقة أيكولوجية والدفاع عن البيئة، لكنهما في الوقت نفسه يستعملان مثلًا سيارات قوية تستهلك كمية كبيرة من الطاقة). إن القيم التي يفضلها الأنا الموجه والموجهة استهلاكيًّا هي التي تمثل نمط العيش



الذي تختاره المجموعة التي يشعر بأنه ينتمي إليها: «ما له قيمة هو ما يسمح لي أن أكون مرتبطًا». تُنعَّمُ طريقة تعامل الأنا الموجه بنشاط مع القيم، التي لا تعتبر في نظر هذا الأنا أصيلة ومحددة ذاتيًّا بالفعل، إلّا إذا لم تكن هناك قيم ومُثل مُلزِمة، من طرف الأنا الموجه توجهًا استهلاكيًّا. ينأى هذا الأنا بنفسه عن القيم الاجتماعية المُلزِمة بتعويضها بقيم المجموعة التي ينتمي لها. فقد تكون هذه القيم متناقضة فيما بينها، لكنها لا تكون على العموم عرضة لفك رموزها. إضافة إلى هذا فإن الأنا الموجه توجهًا استهلاكيًّا يتعامل مع التوجهات القيمية المُعاشة بطرق مختلفة، من جهة هناك تفضيل واضح للقيم التي تطابق «الطريق في الحياة way of life» الذاتية/ الخاصة، ومن جهة أخرى هناك الاستهزاء وعدم التسامح اتجاه توجهات قيمية وأنماط حياة مغايرة.

للدين بالنسبة للأنا الموجه توجهًا استهلاكيًّا أهمية ومعنى، لكن فقط عندما يوفر ارتباطًا دون إلزامية. وينطبق هذا بالخصوص في الأماكن حيث تُنظم بإخراج متقن شعائر دينية كعروض لمُعاشات جماعية لمناسبات معينة (ميلاد طفل، زواج، دفن إلخ) أو حينما تُنظم أنشطة دينية كبيرة بمشاركة ديانات مختلفة توفر شرط المُعاش. وعوض الانخراط في أشكال دينية وروحية تفرض الإخلاص، يجرب المرء أشكالًا دينية وروحية أخرى (مع تفضيل كل ما هو بعيد عن الكنيسة)، وبالضبط تلك التي تتطابق مع عالم المُعاش الذي استقر حال المرء عليه، والذي يسمح بالارتباط بالشيوخ الروحيين ومن يشاركهم الدين نفسه، بطريقة يشعر فيها المرء بأنه في موطنه الأصلي، سواء أكان ذلك واقعيًّا أم افتراضيًّا.

يعتبر الخليط الروحي المتعلق بفن الحياة المحدد ذاتيًّا خاصًّا بالأنا الموجه توجهًا استهلاكيًّا. ذلك أنه يتجاوز الصلة بالواقع المفروض



بالربط بين عناصر دينية وشبه دينية مختلفة ويتمثلها بذاته لذاته: تجارب الآخرة وممارسات سحرية، غير واقعية، خيالية، غريبة، باراسيكولوجية، وإيزيتورية (مقصورة على فئة معينة). يحاول عقد الاتصال بمثل هذه العوالم والغوص فيها إذا كان ذلك ممكنًا. وتلعب جودة المُعاش والحدث هنا دورًا حاسمًا أيضًا.

لفن الحياة عند الأنا الموجه توجهًا استهلاكيًّا ـ وباستقلال عن البعد الديني والروحي ـ علاقة بمُعاش مليء باللذة، يبحث عن هذا المعاش في عالم المتعة، و«العيش جيدًا» المابعد حداثي، (الذي يعتبر طبقًا لشولتسا Schulze أكثر من «البقاء على قيد الحياة» القبل حداثي وأكثر من «العيش جيدًا» الحداثي) وفي محطات ومراكز الاستشفاء والعافية Wellness والرفاهية Well-being. والشعار الطاغي في هذا الميدان هو: «تمتع بحياتك enjoy your Life»، كما تنادي إلى ذلك دعاية شركة كوكاكولا. ذلك أن التمتع يعني بالنسبة لهذا الأنا دائمًا قضاء وقت طيب والإحساس بالجسد والنفس والعقل، داخليًّا وخارجيًّا، إيجابيًّا فقط عوض تجاذبيًّا. يُنحى الموضوع المُعاش سلبيًّا من فضاء المُعاشات، كما ينحى عيش الذات السلبي لذاتها إن على المستوى الجسمي أو النفسي أو العقلي. وبهذا فإن التجارب السارة لا يكون لها أيّ مدخل ودخول «الجزيرة العافية»، ولهذا السبب لا تشكل أيّ خطر على «لذة الرفاهية».

7 ـ يشترك الأنا الموجه بنشاط ونظيره الموجه استهلاكيًّا في أنماط الإدراك والتفكير وكذا مُعاش الفضاء والزمن التي تميز توجه الأنا المابعد حداثي. ولهذا السبب سوف لن نتوقف عليها هنا لتجنب التكرار. لكن من اللازم أن نشير إلى اختلافين بينهما في هذا الإطار. ذلك أن عدم الاعتراف بتلاحم مضمون المعنى ومعناه لا يطبق إلّا على الأنا الموجه بنشاط. أما



الأنا الموجه استهلاكيًّا فيحاول المشاركة في مقترحات المعنى هذه، التي يرمز لها في العلامات التجارية وعوالم وأنماط الحياة. وقد تكون مقترحات المعنى هذه متناقضة في ذاتها أو لا معنى لها، لأن ما يهم هو ليس هي الصرامة المنطقية، لكن الرسالة المُرَمَّزَة بالصور لما يقترح من مُعاشات.

هناك فرق آخر بين الاثنين، يتعلق باختزال الإدراك في إنتاج واستقبال المؤثرات الحسية، وبالخصوص المتعلقة بالصورة، وهو استقبال لا يهضم ولا يشرح، بل يستهلك هكذا. ففي الوقت الذي يُنتج فيه الأنا الموجه بنشاط كما يحلو لأناه عوالم مُعاشاته الكاليدوسكوبية ويعرضها للملأ، دون الاهتمام بأهميتها ومعناها، فإن الأنا الموجه استهلاكيًّا يستقبل المعروض عليه دون اختيار ودون استجابة داخلية. فالمُعاش لا يعني بالنسبة له بأن شيئًا ما يخرج من الحياة عن طريق مؤثر ما، لكنه نتيجة كاليدوسكوبية لمؤثرات غير مهضومة، لا معنى لها من غير ربط المستقبل بالحياة عن طريق مؤثرات والمحافظة عليه في هذه الحياة.

المقارنة بين خصائص طباعية مُختارة

على الرغم من خطر إعادة تكرار البعض مما قيل، سنعمل فيما سيأتي على إعطاء بعض الأمثلة على الخاصيات الطباعية المميزة للأنا الموجه البعد حداثي وسنعمل على المقارنة المباشرة بين الأنا الموجه بنشاط ونظيره الموجه استهلاكيًّا. وبخلاف الوصف الذي قمنا به للخاصيات الشخصية للاثنين، فإننا سنستعرض هنا خصائص طباعية مُختارة، توضح التمظهرات المختلفة لتوجه الأنا. وقد أضفنا جدولًا في آخر هذا الكتاب تقدم خصائص التعرف على توجه الأنا المابعد حداثي.



العيش بنشاط كفاعل أو العيش بالتنشيط كمستهلك تفاعلي

أول خاصية طباعية للأنا الموجه بنشاط هو البحث بشغف على العيش بحيوية ونشاط. ويتمظهر هذا البحث بطرق مختلفة، لكنه يُظهر دائمًا خاصيات «الفاعل». فسواء تصرف كمخرج أم مبدع، مُقدِّم أم مُسلٍّ، فإنه «يفعل» دائمًا شيئًا ما. وقد يكون هذا الشيء مهنته، التي تُفهم كسلسلة من المشاريع ويكون جد متحمس لها. يريد أن يحقق ذاته عن طريق العمل، ولهذا السبب يزاول عمله في غالب الأحيان بشغف كبير. ومن الممكن أن يرتبط عمله بما يريد تحقيقه شخصيًّا. يمكن للمرء «أن يخرج من نفسه شيئًا ما» وإعادة إنتاج مظهره الخارجي وصورته، أنوثته أو رجولته عن طريق برامج اللياقة البدنية والعمليات الجراحية/ التجميل والتدريب الشخصي. ويتميز هذا الأنا بمخيلة لا تنضب فيما يخص تزيين مظهره الخارجي.

تتمظهر هذه الخاصية الطباعية عند الأنا الموجه استهلاكيًّا كرغبة ملحة في عيش ذاته كمُنَشَّط. ويحدث هذا عندما يشارك ويحضر أنشطة معينة أو ينتمي إلى مجموعة ما أو يقتني ويستهلك شيئًا ما. وتتمظهر الرغبة في التنشيط بطرق مختلفة، منها ضرورة امتلاك كل شيء له خاصية المُعاش: فالإجازة تصبح إجازة مُعاش، وزيارة متحف ما تصبح زيارة مُعاش والتبضع يصبح مُعاش التبضع وزيارة معبد يصبح مُعاشًا دينيًّا والبيداغوجية تصبح بيداغوجية مُعاشات إلخ. وهناك جانب آخر لهذا الأمر يتمثل في حاجته للترفيه، على الرغم من أن الترفيه لا يعني أن شخصين يتحدثان بتحفيز بعضهما البعض، لكن المرء يريد الترفيه عن طريق الحفلات الموسيقية والأوبيرا والمسرح وكذلك عن طريق الكوميديات وأفلام الرعب. إضافة إلى هذا فإن هذا الأنا بحاجة إلى



تحفيز عن طريق مؤثرات بصرية وسمعية ويُدفع الخيال الجنسي إلى الأمام ويمضغ المرء شيئًا ما وهو يتفرج، مما يحفز الذوق.

توفر وسائل الإعلام والتواصل الجديدة تنشيطًا، لا يُستهلك فقط، بل يكون «تفاعليًّا». وبما أن هذا التنشيط يكون اعتباطيًّا أو بالمحاكاة فقط، كما هو الأمر في برامج الكوميديات العائلية، فإن المرء لا يتحفز عن طريق السخرية التي تقدمها هذه البرامج، لكنه يُجرف بالضحك المبرمج في البرنامج، وهو ليس ضحك جمهور حاضر، بل يدرج تقنيًّا في حلقات البرنامج. وهذا بالضبط ما يُظهر الجانب التفاعلي لهذا الأنا. ويُستعمل هذا التفاعل في ألعاب الكومبيوتر في المقام الأول وغرف ومنصات الدردشة الإنترنيتية.

في الوقت الذي يمارس فيه الأنا الموجه بنشاط رياضة الجري أو يذهب إلى قاعة اللياقة البدنية لينشط جسده أو ينشط داخله عن طريق التأمل مثلًا، نجد بأن الأنا الموجه استهلاكيًّا يكون رياضيًّا بطريقة تفاعلية بحضوره الأنشطة الرياضية كمتفرج أو يتفرج على برامج رياضية في التلفزة ويتفاعل معها «مباشرة».

الإبداع بين الإنتاج الذاتي ذاتيًا أو العيش في النحن بطريقة مبدعة

هناك خاصية طباعية ثانية للأنا الموجه مابعد حداثي ويتمثل في رغبته لإنتاج أناه ذاتيًّا. ويتضح ذلك قبل كل شيء في الأهمية القصوى التي يعطيها للإبداع، على الرغم من أن هذا المفهوم اتخذ في ما بعد الحداثة فهمًا جديدًا. ذلك أن الإبداع لا يعني الغَرْف من القدرات الشخصية الخاصة، لكن تخطيط تصميم، وضع النفس في الصف الأول في كل



مشهد، إنتاج الواقع بمساعدة برامج البرمجيات والتقنيات والأدوات الجديدة، و«تزيين» الجسم، والمسكن ونمط الحياة. إن إبداع الأنا الموجه يعني تجميل عالم الحياة وما هو يومي ذاتيًّا. إن الإبداع يعني عنده أداء الأنا؛ وهو عند الأنا الموجه استهلاكيًّا وتعبيرًا يرشده ويوجهه، على الرغم من أن هذا التوجيه يعني بأنه يجب على المعلم والتقنية والأسلوب والتصميم ونوع الكرسي أو الأطباق أو اللباس أن يكونوا مبدعين أو مُبدعة.

يمكن القول عمومًا بأن المابعد حداثي النشيط يسعى بشغف بناء أناه باستقلال عن اللوازم والضغط والقيود ودون أخذ تطلعات وحاجيات ومتطلبات الآخرين بعين الاعتبار. ينتج إذن ذاته بفرض أناه بحرية وعفوية وبلذة كبيرة. وتتمظهر الخاصية الطباعية لهذا الأنا في ثلاثة مظاهر أساسية:

1 ـ يجب أن يكون نشوء الأنا جديدًا ومغايرًا ويتميز عما وُجد إلى حد الساعة. لهذا السبب من اللازم أن يكون مسرفًا باذخًا أو متطرفًا أو عجيبًا أو محفوفًا بالمخاطر أو استفزازيًّا أو منبسطًا أو فريدًا من نوعه أو وقحًا. وفي كل الأحول من اللازم أن يكون هذا النشوء منفتحًا على كل ما هو غير ممكن وغير عادي ومتناقض، وكما يقول جو غروبل Jo Groebel المتخصص في وسائل الإعلام: «يقفز Küblböck من داخل الكتلة، لأنه يرمز إلى نموذج من النماذج المختلفة».

2 ـ يمكن لنشوء الأنا أن يمثل محاولة مهاجمة وفك رموز كل ما هو مُعطى وقائم ومُثَمَّن ومضمون. ولهذا السبب فإن الأنا الموجه مابعد حداثي يُظهر الرغبة في الشك في كل شيء ويعتني بالسخرية ويسخر من نفسه حتى ويفكك كل القيم ويلطخ كل ما يُعتبر مقدسًا بالنسبة للناس،



ويطلي الأعمال الفنية لكبار الرسامين بأصبغة أخرى ويستغل التاريخ «كمستودع للاستشهادات»، لا يؤمن بأي شيء من غير ذاته ويعترف بإلحاده اتجاه نفسه. إنه متسامح إلى حدود اللامبالاة، يعتبر كل ما يمكن عمله مسموح به، يرفض كل تقمص وكل تحديد وتعريف، يُظهر نفسه وقحًا حُلوًا، وما يلفت النظر في هذا الإطار هو رغبته في اللعب: تُفهم الحياة والشغل والعلاقات والتربية كلعب ويُسيطر عليها باللعب. فعندما قام المرء مثلًا بإخراج كتاب الروائي ديتر بولن Dieter Bohlen في عمل فني، شعر الكثير ممن شارك في هذا العمل بأن المرء مَسَّهُم في حقوقهم الشخصية ورفعوا دعوة ضد هذا الإخراج، رافع محامي الناشر راندوم هوس Random House، راينر دريسن Rainer Dresen كالآتي: «أيمكن أخذ بولن محل الجد؟ إنه لا يأخذ نفسه بنفسه محل الجد»[1].

3 ـ هناك تمظهر آخر لنشوء الأنا النشيط يتمثل في الشعور بأنه مجذوب إلى كل ما ليس له حدود: الأنا مُسَيَّد على الفضاء والوقت. يحب هذا الأنا المخاطر، الحدود، لغير العُرفي، المستحيل. يجعل من الليل نهارًا ومن النهار ليلًا ويحب التحرك. يشعر بأنه في موطنه في التنقل، وهدف تنقله هو التنقل في حد ذاته في أيّ مكان. شعاره هو مقولة هرقليط: «كل شيء يتدفق panta rhei». توجد الحدود لكي تُتَجاوز، لابد من التغلب على القيود، لا يوجد هناك لا توقف ولا حدود. يعتبر الدين والروحانيات وسائل لرفع الحدود الداخلية والأُخروية، والبعد الزمني الوحيد المُعترف به هو اللحظة الحاضرة، الهنا والآن. والاستمرار هو من عمل الشيطان، وأقصى عقاب هو الملل. وهنا يتمظهر شكل آخر لنشوء هذا الأنا عن

(1) انظر وكالة الأنباء الألمانية dpa بتاريخ 11 تشرين الأول/ أكتوبر 2003م.



طريق رفع الحدود، ألا وهو إخراج واقع خيالي ووهمي، ينتمي فيه الفضاء والزمن، الأزلية، المعاناة، الفشل وخيبة الأمل إلى الماضي.

يتحقق نشوء الأنا عند المابعد حداثي الاستهلاكي في مُعاش النحن: إنني أنا أنا في النحن أو بتغيير طفيف لمقولة ديكارت: «إنني مُرتبط، فأنا موجود إذن». أكون حرًّا عندما أكون مرتبطًا وتكون عندي إمكانية الوصول إلى مُعاش مجموعة ما. ذلك أنني أكون أنا أنا وأشعر بأنني أصيل مع نفسي في الحدود التي أكون فيها مُتصلًا بالآخرين، مرتبطًا بهم، وأشارك في إحساس ما بالحياة وأنتمي إلى نمط عيش معين أختاره بنفسي. وعلى الرغم من أن هذا الأنا لا يكون مرتبطًا إلّا بمقدار ضئيل ويفهم ويقدم نفسه كفرد بهذا الشكل، فإن ما يكون حاسمًا (دون تناقض)، هو أنه يحس مع ذلك بأنه مرتبط بالشعور بالانتماء إلى نمط حياة أو حركة ما أو عالم حياة معين وحامل لعلامة تجارية محددة. إن الإحساس بالنحن، الذي يعتبر في الواقع نوعًا جديدًا من التنشئة الاجتماعية، ليس «نهاية للأنانية الهوسية Egomanie»، كما يحلو لهورست غيبرهارت ريختر ـ (Horst Eberhard Richter 2002) أن يرى ذلك، بل يُظهر بأن ليست له علاقة بالتعاطف والتضامن وتحمل المسؤولية إلّا بدرجة ضئيلة جدًّا. إنه في العمق «حاجة» أساسية للأنا المابعد حداثي الاستهلاكي، لأنه يسمح له بعيش الشعور بأناه. ولهذا السبب فإن مثل هذا الأنا لا يكون طموحًا مهنيًّا ومنافسًا لتسلق درجات الهرم المهني وله رغبة للظهور والتميز في شغله، بل يُفضل العمل في مجموعة جيدة وجو الزمالة. وحتى الازدحام على الطريق السيار وهو مسافر في عطلة ما يُفرحه، وكما قال ميخائيل شريكينبيرغ Michael Schrekenberg، أحد المتخصصين في حركة المرور: «يتعلق الأمر، عندما يسمع المرء أخبار



ازدحام حركة السير في الراديو، بالإحساس بمشاعر النحن، عندما يقول الإنسان: لقد كنت كذلك من بين المزدحمين»[1]. وتتمظهر هذه الخاصية الطباعية للأنا المابعد حداثي الاستهلاكي، يعني رغبته في عيش أناه في النحن، في تمظهرات خاصة:

1 ـ يبحث المرء عن أشكال جديدة ومغايرة لتكوين الجماعات الاجتماعية لمُعاش هذا النحن، مغايرة لما يوجد في الواقع، ومُوجهة بارتباطات ومواضيع دينية وثقافية وسياسية. من اللازم في هذا الإطار أن يُجسد هذا النحن نشوء هذا الأنا ويُمكِّن من مُعاش الأنا والهوية خاصين. ويتحقق هذا بالخصوص في تعبير النحن على نمط حياة خاص ومُغاير، يجد رموزه في العلامات التجارية للباس والمُوضة والشعارات التجارية والنجوم والبرامج التلفزية الترفيهية والأنواع الموسيقية وأناشيد الوقت الثالث وعوالم المُعاشات. ولا يعيش الأنا المابعد حداثي الاستهلاكي أناه إلّا في مُعاش النحن هذا. إنه يريد أن يكون مُغايرًا مع الآخرين. وينتج نشوء الأنا هنا بتمييزه عن المتعارف عليه والمفروض، يعني أنه ينتج عن طريق التماهي مع عوالم المُعاشات البديلة والإسراف والغريب والاستفزازات إلخ.

2 ـ يحدث فك ألغاز وحط كل ما هو مفروض محط تساؤل والشك فيما هو موجود وما له قيمة في مُعاش المشاركة في مشاعر النحن. ما يحصل في هذه الحالات هو التماهي مع من يحل الألغاز ويسخر من الآخرين ويفضحهم ويكذبهم، سواء أسمي هذا الشخص هارالد شميت Harald Schmidt أم Stefan Raab شتيفان راب(*).

(1) انظر: .Sudwestpresse Ulm vom 26. Juli 2003

(*) مقدما برامج ساخرة في التلفزات الألمانية، لا يستثنيان فيها أيّ أحد، سواء أكان رجل دولة أم مسؤولًا سياسيًّا أم مفكرًا أم فنانًا إلخ. الفرق الوحيد بينهما هو أن شميت يتمتع بثقافة عالية =

3 ـ يقوم تجاوز الحدود في نشوء الأنا عند الموجه مابعد حداثي، بطريقة مغايرة للأنا المابعد حداثي النشيط، ولو كان ذلك جزئيًّا فقط. ذلك أن تجارب تجاوز الحدود تتم في التجمعات والحفلات الشعبية العمومية كالحفلات المُنظمة في الهواء الطلق ومهرجانات الحب أو التظاهرات الرياضية الكبيرة تحت شعار: «المشاركة هي كل شيء». إضافة إلى هذا تلعب المخدرات كالكحول والحبوب المنشطة دورًا مهمًّا في هذا الإطار. ويحاول هذا الأنا تصعيد صعوبات الواقع الفعلي بالغطس في عالم متعة خيالي ووهمي.

عيش المشاعر دون كُلفة أو عيشها مع الآخرين

هناك خاصية أخرى للأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي تتعلق بمُعاش مشاعره. على خلاف الأنا الموجه توجيهًا تسويقيًّا، الذي يود أن يكون ممتازًا، ما لم تكن رغبته في عرض وتقديم مشاعره هي بيعها، فإن ما ينطبق على الأنا الموجه مابعد حداثي هو أنه يترك كل الحرية لمشاعره للتعبير عن نفسها. ـ ويتم هذا في بعض الأحيان، كما هو الشأن بالنسبة لفيرونا فيلدبوش(*) Verona Felddbusch، بتدفق للمشاعر ـ. على كل حال، يقوم الأنا المابعد حداثي النشيط بهذا بطريقة مغايرة لنظيره المستهلك.

يُظهر الأنا المابعد حداثي النشيط أناه بطريقة توحي بأنه عاطفي وبأن أحاسيسه القوية هي ورقة رابحة وبفضلها يمكن أن يكون رقيقًا وعاطفيًّا.

= وسُخريته موجهة لعموم المثقفين والمفكرين والساسة، بينما يتوجه راب إلى عموم المشاهدين.

(*) لفيرونا فيلدبوش Verona Felddbusch، أو باسمها الآخر فيرينا بوث Verona Pooth، منشطة برنامج تلفزيوني ألماني، استغلت زواجها لمدة أربعة أسابيع من ديتر بولن Dieter Bohlen، أحد أشهر المغنين الألمانيين، لتصبح مشهورة على الرغم من بلادتها.



وينجح كل مرة كان فيها مخرجًا ومنتجًا للترفيه والتواصل ودراما الحياة أن يلعب بالعواطف ويُنتج أحاسيس تبكي الجمهور أو تدفعهم للذعر أو النشوة. يجب على كل من يريد اليوم أن يكون فعالًا اتجاه وسائل الإعلام، سواءً أكان سياسيًا أم ممثلًا أم موسيقيًا أم عالمًا، أن يظهر عواطفه، لكي يكون أصيلًا وموضع ثقة. وقد كان لجريدة «الصورة» الأسبقية في ألمانيا في هذا المجال، فهمت هذا الأمر واستغلته لصالحها.

إذا كان الأنا المابعد حداثي النشيط مُقترحًا للمشاعر، فإن نظيره السلبي مستهلك ومستعمل للمشاعر المُنتَجَة. فالحظ الكبير للسوق الرأسمالية الحالية المُنتجة للثقافة هو عرض وبيع المشاعر، ويقابل هذا المستهلك الذي يشتري هذه المشاعر. ويتم هذا الاكتساب في المقام الأول عن طريق الغطس في العوالم المُخرجة للأوبيرات والحفلات الموسيقية والأفلام الدينية والمسلسلات الغرامية وقصص الحب والقيل والقال عن القصور والملوك والمشاهير والأخبار المثيرة وصحافة الفضائح وأفلام الرعب والإثارة. فالعواطف، وككل ما يخدم إنتاج الأنا، ليست شخصية نابعة من العمق، لكنها أمور تُنتج وتُكتسب أو تُشترى.

ما يهم الأنا المابعد حداثي المستهلك هو النحن فقط، لكن كذلك الإحساس المشترك. فعندما يشارك هذا الأنا في المشاعر التي تُقترح عليه، عوض الشعور بها بذاته، فإنها تكون وجدانية وعاطفية.

يجد المابعد حداثي صعوبة كبيرة في البكاء على شخص قريب مات، لكنه يبكي على غريب عنه، إذا كانت أخبار وفاة هذا الشخص مُخرجة بطريقة محكمة وتضغط على غُدَدِ الدموع وتمكن من التعاطف مع الميت. نشارك بكثافة عاطفية قوية ما يُقارب ثلاثة آلاف شخص ماتوا فى



أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001م، ولا نتأثر لكون أكثر من ثلاثة آلاف طفل يموتون يوميًّا بالجوع والأمراض في إفريقيا. الواقع أنه لا علاقة لهذا التأثر المُخرج بإتقان للمشاعر بما يُفهم إلى حد الآن بالتأثر العاطفي.

الرغبة في التواصل المحدد ذاتيًا أو الشعور بالارتباط والبقاء على اتصال

هناك خاصية طباعية أخرى للأنا الموجه مابعد حداثي تتعلق بالطريقة التي يعيش بها علاقاته. فالأنا المابعد حداثي النشيط يسره ربط علاقات، مسلٍّ، مهم، مرح في غالب الأحيان. يمكنه التحدث عن نفسه دون صعوبات ودون حدود ويحاول باستمرار وضع نفسه محط اهتمام الآخرين. ما يهمه في الواقع ليست هي العلاقة في حد ذاتها في معنى ارتباط عاطفي وما يرافق ذلك من مشاعر الاشتياق للآخرين في غيابهم واعتبارهم في حضورهم والولاء لهم، بل فقط اتصالات لحظوية لقضاء غرض ما سواء كان ماديًّا أم معنويًّا. وينتج عن هذا في بعض الأحيان مشروع علاقة، يحاول المرء التعامل معه بتلاعب أو بلعب. وإذا قادت هذه الاتصالات إلى شراكة فعلية (علاقة شراكة لمرحلة حياتية معينة)، فإن هذه الشراكة تصبح في غالب الأحيان مليئة بالمُعاشات، غير تقليدية أو يُشكلها المرء كما يشكل حياته المهنية. لهذا الأنا حاجة أساسية في مثل هذه العلاقات، تتمثل في التحكم بنفسه فيها. ويعترف الكثيرون بأن العلاقة المفضلة عندهم هي التي تشبه «جهاز التلفزة، يمكن للمرء تشغيله أو إيقافه متى يشاء».

هناك خاصية أخرى لهذا الأنا، تتمثل في كونه لا يكون حَقُودًا، وحتى وإن لم تنجع علاقة شراكته يبقى صديقًا جيدًا. لا تكون الغيرة في غالب



الأحيان موضوعًا عنده. أما في الجانب الجنسي فإنه يشعر بالحرية وبتحقيق الذات. فكل شيء مسموح به بما في ذلك الامتناع عن ممارسة الجنس. ما يعتبر طابوهًا غير مسموح به هي العلاقات التي تتطلب اعتماد النواح على الآخر والرغبة المستمرة في البقاء في العلاقة.

يستغل الأنا الموجه استهلاكيًّا العلاقات كحاجة للبقاء مرتبطًا في المقام الأول وكوسيلة للوصول باختيار ذاتي إلى الآخرين. لا يريد هذا الأنا أن يصبح مُقيدًا في علاقة ما، لكنه يريد أن يكون مُرتبطًا. فكل طُرُق بناء وعيش العلاقات المتعارف عليها ـ كإشعار الآخر، المحادثة، الاُقتراب منه، لمسه، البحث عن تبادل النظرات، توفير إمكانية ليعبر الآخر عن مشاعره، الانشغال معًا بشيء ما، اقتسام الحلو والمر إلخ. ـ غير صالحة. تعني العلاقة مع شخص أو أشخاص آخرين بالنسبة له في المقام الأول إمكانية التواصل مع أكبر عدد ممكن من الناس باستقلال تام عن المكان والفضاء وضمان إمكانيات هذه العلاقات. وتكشف عن هذا بالفعل وسائل التواصل: الهاتف المتنقل، الإنترنيت، المايل، الرسائل الهاتفية. لا يتعلق الأمر في غالب الأحيان في هذا النوع من التواصل بالمحافظة على العلاقة (ولهذا السبب لا يعاش تحديد عدد الحروف في رسالة هاتفية من طرف شركات الهواتف في 160 حرف كتقييد)، ولا بالإخبار بشيء ما (كما يمكن لكل واحد أن يستمع لمكالمة هاتفية بين شخصين في مكان عمومي على الرغم منه)؛ بل بالدخول في تواصل والتخفيف من خوف عدم الاتصال من طرف الجانب الآخر والتسلية بما قد يقوله هذا الأخير. لهذا السبب بالضبط يعتقد هذا الأنا بأنه من الضروري امتلاك هاتف نقال، إذا كان المرء لا يريد أن يُقصى.



يرغب هذا الأنا كذلك في عيش الجنس بحرية والحصول طبقًا لهذا على اقتراحات مُعاشية و«عناوين للاتصال». إذن، يُعوِّض الاتصال بالعلاقة. وعوض الاعتناء بالعلاقات التي تربطه بالآخرين، يعتني بضمان الشعور بالارتباط.

عيش الذات بأصالة أو المُعاش الأصيل

الخاصية الطباعية الأخيرة للأنا الموجه مابعد حداثي التي نود التطرق لها هنا هي شغف الأنا النشيط للعيش بأصالة ورغبة الأنا الاستهلاكي في مُعاشات أصيلة. ولهذا الأمر علاقة وطيدة بمُعاشات الهوية الأخرى للأنا الموجه مابعد حداثي.

تعتبر «الأصالة»، أو ما يمكن اعتباره في العمق «المصداقية» من القيم الأساسية في طباع الأنا الموجه مابعد حداثي. وحتى وإن كان المُوجَّه من طرف السوق يتوق كذلك إلى الأصالة، فإن ما يهمه هو تقديم نفسه كأصيل، لكي يستطيع بيع ذاته أحسن عن طريق تقديم نفسه هكذا. تخدم الأصالة هنا تسويق الشخصية الذاتية وتتوقف على ما يعتبر السوق الآن، في اللحظة الراهنة، أصيلًا.

لكن ليس مثل هذه الأصالة هي التي نجدها عند المابعد حداثي. لا يريد أن يبيع بطريقة أحسن ويجتهد ليكون في نظر الآخرين جيدًا. إنه يريد أن يكون هو ذاته ويعيش هذه الأخيرة بأصالة. ولا يتوقف هذا الأمر على خصوصيته الوجودية ومحدداته الجسدية والنفسية والعقلية ومواهبه وقوته الخاصة، كما هو الشأن بالنسبة للذي يكون موجهًا إنتاجيًّا، أي الذي يريد أيضًا أن يكون هو ذاته بالكامل بعيشه انطلاقًا من ذاته ومن غناه الإنساني. على العكس من هذا يريد الأنا المابعد حداثي عيش ذاته بأصالة



بإنتاج أناه بحرية بمساعدة ما هو متوفر اليوم من إمكانيات تقنية للإخراج، وهو إنتاج يأتي من اللاشيء دون ضغوطات ولا نماذج مثالية مسبقة.

لا يُحدَّد طباع مُعاش الأنا المابعد حداثي انطلاقًا من مُعاش هوية سابق عليه ولا يرجع أيضًا لأي علم سابق عليه ليَعْرف ما هو ومن هو المرء. ليس هناك أيّ شيء فيه، أيّ تمثل عن ذاته يُمَكِّنُه من تحديد هويته عن طريقه. وحتى وإن بحث المرء عن خيط ناظم لهذه الهوية، فإنه لا يجد أيّ شيء قار أو أصلي فيه، مميز وصحيح.

لا يريد الأنا الموجه بنشاط شيئًا آخر غير عيش ذاته بأصالة. يقول دائمًا ما يفكر فيه وما يحس به، ولهذا السبب فإنه في نظر ذاته صادق كليًّا وموضوع ثقة. يُعتبر إذن أصيلًا كل من يقدم أناه للآخرين مباشرة ودون أيّ تأثير من أية جهة، يحكي عن إدراكه العفوي مباشرة وعن مشاعره وتخيلاته دون تأملها ودون قبول أيّ رقابة عليها. والأصيل من وجهة نظر مثل هذا الأنا هو من يسمح مشاركة الآخرين في معاشه اللحظويّ ومزاجه وردود فعله وكل من يتمتع بالحدس والإبداع.

نقدم هنا قصاصة من جريدة «الصورة» بتاريخ 20 أيار/ مايو 2003م، بخصوص حمل فيرونا فيلدبوش Verona Feldbusch، كمثال على الطريقة التي يعيش بها الأنا الموجه بنشاط أصالته: «إن فيرونا فيلدبوش سعيدة جدًّا بكونها حاملًا وكون الجنين ذكرًا وهذا ما كانت تتمناه، قالت وهي في سنها الثامنة والثلاثين: «يا للسعادة سيكون ذكرًا، يا للسعادة سيكون فانيو الصغير (اسم أب الجنين هو فانيو بوث)». وتضيف: «أريد أن أقبل العالم كله. أريد أن أشتري علب الكتابة على الحيطان وطلاء كل الحيطان». وتشرح لماذا هي جد فرحة بالحمل بذكر عوض أنثى كالتالي:



إذا كان المرء يحب شخصًا كثيرًا، فليس هناك شيء أجمل من الحصول عليه مجددًا في صيغة مُصغرة. سوف لن أرسم فيرونا صغيرة، ستكون ثرثارة كثيرًا». وعندما وُلد ابنها أربعة شهور بعد هذا الحديث، اعترفت للجريدة نفسها بأنها: «ارتجفت برعب بكل جسدها. من جراء الفرحة والخوف والهيجان». عندما ولد الابن بعملية قيصرية صاحت على التو: «أريد آخر». ليس هناك أيّ شك بأن هذه الإنسانة تعيش ذاتها بأصالة بفعل هذا النوع من «تدفق المشاعر»، لا تعيش ذاتها فقط، بل إن محبيها يعيشون التدفق نفسه.

يريد الأنا الموجه استهلاكيًّا مُعاشات أصيلة، كما سبق القول. وبما أن نمط العيش المابعد حداثي قد أعطى لمفهوم «الأصالة» مضمونًا جديدًا كُليًّا، فإن الأصيل يعبر عن نفسه في الأشياء التي تكون عجيبة بطريقة خاصة ومُخرجة بطريقة حساسة وقوية عاطفيًّا. عندما يلتقي مرشحان في انتخابات ما في برنامج تلفزي، فإن الأسئلة المتعلقة بالبرنامج الذي يدافعان عنه، تكون ثانوية. الأهم هو ما إذا كان ما يقولانه محط ثقة وما إذا كانا أصيلين، يعني من يكون قادرًا أكثر من الآخر على إخراج أناه بعفوية، على الرغم من أن هذا الأمر لا تكون له علاقة مع الشخصية الفعلية، الطبيعية والحقيقية للمرشحين، لكن نتيجة التدريب الذي تلقياه قبل ذلك وتقمصهما لشخصية ما.

لا ينحصر هذا النوع من عيش الأصالة عند الأنا المستهلك على المشاهير في السياسة والثقافة وصناعة الفرجة، بل يتعداه ليشمل العلامات التجارية المُخْرَجة بأصالة وعوالم وأنماط الحياة، التي يحاول أن يشارك فيها. وتكون هذه الأخيرة موضعًا للثقة وللأصالة عنده، عندما تظهر «مفرطة في الواقعية» بمساعدة إمكانيات التقنيات الرقمية والتواصلية.



الجزء الثالث

التحليل النفسي للأنا المابعد حداثي

اقتصر عرضنا لتوجه الأنا المابعد حداثي بشكل كبير إلى حد الساعة على مستوى وصف سلوك هذا الأنا، ولهذا السبب فُضِّلَ الحديث عن أنماط شخصيتهما ومميزاتهما. وسنعمل فيما سيأتي على تقديم طريقة تأمل للخصائص التحليل نفسية لهذا الأنا وفهمنا له. طبقًا للفهم التحليل نفسي فإن السلوك الإنساني محكوم بقدر كبير بالرغبات الواعية وغير الواعية. وتقوم هذه الأخيرة من خلال التفاعل بين مصالح الناس (الرغبة في الاستمرار في الحياة ورغبات إنسانية خاصة أخرى) ومصالح المجتمع (متطلبات البيئة والاقتصاد والعيش سويًّا). تُعاش بعدما يُدمجها المرء داخليًّا في نفسه كقوة عاطفية دافعة كرغبة مُلزمة. وبما أن هناك إمكانيات كثيرة لتشويه التمثلات والمتطلبات والمتمنيات والأوهام والمشاعر والرغبات اللاواعية لكي لا يتعرف عليها المرء أو للحيلولة دونها والوصول إلى الوعي، فإننا سنأخذ بعين الاعتبار هنا التمثلات اللاواعية لتطور الاقتصاد والمجتمع والثقافة ونشاطها النفسي.

القدرة «المُنْتَجَة» والقدرة «الإنسانية»

بمجرد نشوء توجه طباعي جديد وما يرافقه من متطلبات نفسية، فإن هذا يعتبر مؤشرًا على أن النفس البشرية تواجه مشكلًا، كنتيجة لمحاولة



تكيف الحاجيات الإنسانية الخاصة مع المتطلبات السوسيو ـ ثقافية الجديدة. والسؤال الذي يطرح نفسه من وجهة نظر نفسية في البدء هنا هو: ماذا يتمثل إنسان اليوم بطريقة مغايرة لما تمثله فيما قبل؟ ما هي المشاكل النفسية التي يقاوم ضدها الإنسان حاليًّا؟ وفقط عندما يُجاب عن هذين السؤالين، يكون من الممكن معرفة كيف تُهضم هذه المشاكل وما هي أشكال التعويض التي تلجأ إليها خصائص شخصية هذا الإنسان.

ذكرنا فيما سبق التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية كابتكارات مدهشة بالنسبة لإنسان ما بعد الحداثة. ذلك أنها تُقدم إمكانيات هائلة لإنتاج الواقع من جديد وتعمق الانطباع بأن هذه العوالم بالضبط هي أحسن بكثير وأقوى مما يمكن للإنسان الوصول إليه انطلاقًا من قدراته الجسمية والنفسية والعقلية.

ظهر اعتبار الإنجازات التقنية المحققة من طرف الإنسان أقوى بكثير من الإنسان، عندما أصبحت الآلة البخارية تنتمي للحياة اليومية للإنسان. فالآلة ليست فقط أقوى من الإنسان، لكنها أقوى من أقوى الحيوانات التي كان يعول عليها، ولهذا السبب لم يعد المرء يقيس قوة آلة ما طبقًا لقوة فرس واحد، بل بقوة مجموعة من الأفراس.

انطلاقًا من تفوق الآلة من حيث القوة على الإنسان، يمكن طرح سؤال كيف عاش الإنسان تخفيض قيمته هذه في واقعه الوجداني وكيف تعامل مع هذا الأمر نفسيًّا. لا مجال للشك في أنه عاش هذه التجربة ككائن ضعيف. لكن إشكالية ما إذا كان قد شعر بهذا الضعف على مستوى الوعي تظل قائمة. ما يمكن ملاحظته هو أن هناك الكثير من أشكال التعويض النفسية لمعاش الضعف الجسدي سواء على مستوى الوعي أم اللاوعي منذ بداية العصر الآلي.



كُبتت قوة الآلة من جهة بالتأكيد على أهمية الجانب الفكري ـ العقلي والعاطفي والروحي ـ الديني للإنسان. فبالتأكيد على القوة غير الفيزيقية للإنسان، حاول المرء إذن التعويض عن الضعف الجسدي لهذا الإنسان. ومن جهة أخرى مجد المرء الآلات والتقنية وتماهى معها. فبالنسبة لبعض الناس، ليس هناك أجمل من تعلم مهارات تقنية شاملة لكي يشتغلوا دون مشاكل وبطريقة جيدة كهذه الآلات. وفي وقت متأخر نسبيًّا، يعني ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، تطور رد فعل آخر فيما يخص مُعاش الضعف الفيزيقي للإنسان. ويتمظهر هذا الأمر في تعاطي بعض الناس تمارين رياضية ومنافسات من مختلف الأنواع، ليس لها أيّ هدف عسكري.

من الضروري الأخذ بعين الاعتبار من وجهة نظر نفسية محضة أخطر تغير، يرافق بالخصوص استعمال التقنيات الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية، في كون كل أبعاد القدرات الإنسانية من أجل تشكيل الواقع انطلاقًا من القوى والكفاءات الذاتية قد قضي عليها من طرف الإمكانيات الرقمية والتواصلية: «إن فكرة إمكانية عمل الكثير هي أكبر سحر لمجمل العصر»[1]. فالموسيقى المؤلفة بمساعدة الحاسوب تثير الأحاسيس بدرجات أكثر بكثير من تلك الملعوبة على البيانو لأيّ مقطع من مقاطع سوناتات بيتهوفن. كما أن المُعاش المشاعري أثناء مشاهدة فيلم مُنتَج بمساعدة التكنولوجيا العالية يكون أحسن بكثير مما يُنتج من صور في ذهن قارئ الرواية التي اقتبس منها هذا الفيلم. إضافة إلى هذا فإن البحث عن قصيدة شعرية ما بمساعدة أيّ محرك بحث رقمي، يأتي

(1) انظر: G. Schulze 2003, S. 183.



بنتيجته في ثوان معدودات وبالضبط ومعصومة من الخطأ، بالمقارنة مع محاولة تذكر هذه القصيدة بمساعدة الذاكرة. أما استعمال الزمان في أية مدرسة مهنية كبيرة، فلم يسبق أن كان بهذه الدرجة العالية من الدقة والحكمة والموهبة التنظيمية والعناية والإحساس بحاجات العاملين في هذه المدرسة، بسبب استعمال البرمجيات الحالية. ولا داعي للتركيز على كون التدور المقطعي النووي يسمح بإلقاء نظرة عميقة في الجسم الإنساني وبأن عملية التصوير تُمكِّن من كسب معارف عن اشتغال المخ، وهي معارف كان المرء يعتبرها في وقت غير بعيد مستحيلة.

إن توجه الأنا هو النقطة النهائية لتطور بدأ منذ مدة طويلة. ذلك أن الإنسان يمكنه أكثر عندما لا يعتمد على قدراته الإنسانية الذاتية، بل باعتماده على القوة «المُنتجَة»، يعني على قوة التقنية والتقنيات وأدوات تسيير وبرامج معينة. ويتم إدماج هذه التجربة عن طريق الأنا الموجه كتوجه للطبع. ونتيجة هذا هو أن الأنا الموجه يسعى بشغف شديد إلى العيش على ما يُنتج عوض العيش بمساعدة إمكانياته الإنسانية وإلى تسيير إدارة الواقع بمساعدة التقنيات والبرامج عوض اللجوء إلى قدراته العقلية والنفسية والجسمية.

يعبر هذا التغيير الجذري عن نفسه من وجهة نظر سيكولوجية انطلاقًا من مفهوم «القدرة التقنية». فقد كان لمصطلح «تيكنا techne» عند اليونان حسب قاموس بروكهاوس معنى «الفن» و«المهارة»، وكان يعني: «المهارة الإنسانية للوصول إلى شيء محدد». وعندما يتحدث المرء اليوم هنا عن «القدرة التقنية»، فإن الأمر لا يتعلق إذن بمهارة إنسانية، لكن بمهارة الأشياء التي تُنتج من طرف الإنسان. فقد أصبحت «التيكنا» القديمة دراية أو معرفة know-how في تعاملها مع المنتوجات. لم يعد من اللازم أن

نعرف شيئًا ما، لكن معرفة كيف يمكن التعامل معه لاستعمال مهارته. لم تعد الذات الإنسانية هي القادرة، لكن الحاسوب والبرمجيات هي التي أصبحت كذلك.

أصبح إذن واضحًا بما فيه الكفاية بأن التقنية هي التي تحدد ما يقدر عليه الإنسان على كل المستويات تقريبًا. من يقدم نفسه عن طريق كلمات طيبة ومحيا مبتسم وحركات مليئة بالتقدير ومجاملات، يتمرن عليها في دروس إنماء الشخصية، لا يكون ناجحًا فقط، بل إن مثل تقديم النفس هذا يكون مرضيًا ومفيدًا للجميع أكثر من التواصل الشخصي الحقيقي أو طبقًا للقواعد الشخصية للسيد كنيغا(*) Knigge. لم يعد من الضروري تطوير وتحقيق الأمنيات والطموح الذاتيين إذا كان بالإمكان الوصول إليها والإحساس بها بمساعدة المجموعات الكاريزماتية، التي تستعمل الإخراجات السيكولوجية. لم يعد من الضروري كذلك تنظيم الوقت الثالث أو العطلة، بما أنه بإمكان المرء الحصول عليها بشرائه لتذاكر سفر تتضمن كل هذا وتكون الأنشطة المقترحة أهم بكثير مما قد يفكر المرء فيه بنفسه. لم يعد من اللازم في آخر المطاف عمل شيء بالمجهود الذاتي، طالما أن إمكانيات الفعل «التقنية» «المُنتجَة» وكذا أدوات التسيير تقوم بذلك على أحسن وجه وبطريقة أحسن وطالما أنه باستطاعة المرء الوصول إلى الواقع الرقمي والتواصلي، الذي يكون أكثر تأثيرًا وسحرًا من كل ما يمكن للمرء تحقيقه عن طريق قدراته الشخصية.

(*) ولد فرايهير أدولف فرانتس فريديريك لودفيغ كنيغا Freiherr Adolph Franz Friedrich Ludwig Knigge يوم 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1752م في مدينة هنوفر وتوفي يوم 6 أيار/ مايو 1796م بمدينة بريمن. اشتهر بعد نشر كتابه: «حول التعامل مع الناس Über den Umgang mit Menschen»، المعروف حاليًا تحت اسم «كنيغا Knigge».



لقد تجاوزت القدرة التقنية والآلية التي اخترعها الإنسان القدرة الإنسانية بكثير على كل الأصعدة تقريبًا. والملاحظ هو أن مصطلح «القدرة التقنية» هو مصطلح مضلل بعض الشيء. من جهة، يوهم بأن التقنية هي السبب في كون الإنسان لم يعد يُمرن قدراته الذاتية ولهذا السبب عليه الابتعاد عن إنجازاتها. لكن ما لا يراه المرء هنا هو أن المشكل الحقيقي ليس هو التقنية في حد ذاتها، لكن استعمالها من طرف الإنسان وطريقة فهم هذا الاستعمال. من جهة أخرى، يتضمن مفهوم «القدرة التقنية» على سوء فهم مهم، يتمثل في الاعتقاد بأن لا يمكن اليوم عمل أكثر مما يمكن للآلات وللتقنية عمله. ويجد التغيير النفسي الناتج عن هذا الأمر في الميادين التي كانت منظمة كليًّا أو جزئيًّا من طرف القدرات الإنسانية: في ميدان الشخصية الذاتية وفي ميدان العيش سويًّا أو معًا في مجموعة أو مجتمع ما. لم تقد التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية إلى أجهزة ومنتوجات جديدة، لكنها تمكن من تقنيات سيكو ـ اجتماعية جديدة تمامًا. فبعد انهيار الأنظمة القديمة، تقدم التقنية «أنظمة تشغيل» و«برمجيات» لتطور الشخصية وتنظيم الحياة الاجتماعية.

يتحسن تمثل الذات وتُكَوَّنُ الإرادة الشخصية عن طريق التدريب الشخصي وبرامج التدبير التي تطابقها، ويُكَوِّن المرء كفاءات اجتماعية ويُحسِّن القدرة على الإدراك والتواصل ويرفع من القدرة على الصراع والتعلم ويمتلك المهارات الإدارية.

ما يمكن للتقنيات النفسية القيام به في ميدان تكوين الشخصية، تقوم به التقنيات الاجتماعية كذلك في ميدان العيش سويًّا وتنظيم المجتمع. ويطبق المرء أدوات التحكم مثل الشفافية والمراقبة إلخ. في التدريب وبرامج التدبير. فسواء تعلق الأمر بالتفاعلات الاجتماعية بين شخصين

أو بالعيش معًا في المجتمع أو في تنظيم سياسي أو مهني، فإن الكل تقريبًا يستعمل مصطلح «البرنامج» أو «التدبير» أو يربط نشاطه به، أتعلق الأمر بتدبير الإنتاج أو الوقت أو التربية. ويُظهر تضخم مفهوم «التدبير» و«البرنامج» بأن الإنسان لم يعد الذات المتحكمة في إنتاج الواقع، لكن البرامج وأدوات التحكم هي التي تتحكم بالإنسان نفسه. وحتى مدبرو الأمور في شركة ما لم يعودوا «رجال التدبير» فيها. ذلك أن سلطتهم ومسؤوليتهم تكمن في اختيار أدوات التحكم وتطبيقها.

يمكن ملاحظة التغيير النفسي المهم لعصر ما بعد الحداثة من جهة في كون الإنسان يكتشف شيئًا فشيئًا، بأنه يكون أقوى وأنجح عندما يستعمل القوة «المُنتجة» والتقنية، عوض القيام بذلك بفضل قواه الذاتية وكفاءاته. ومن جهة أخرى حصل هناك عمومًا نوع من تبادل الأدوار، فبالمقارنة مع الماضي لم تعد القوة «التقنية» اليوم أداة في يد الإنسان، تساعد على تقوية الكفاءات الإنسانية (كأن تحفر حُفر أنابيب المياه العادمة بآلات عوض القوة العضلية للإنسان مثلًا)؛ بل إن الجديد الحاسم هو أن الإنسان لم يعد يتحكم في زمام الأمور كلية، لكن الإنسان ومحيطه الاجتماعي محكوم من طرف أدوات وقوتها الخاصة بها.

لكي نُظهر النتائج الخطيرة لتغيير الذات في البناء المابعد حداثي للواقع، فلن نتحدث هنا عن «القدرة التقنية» عوض «القدرة الإنسانية» فقط، بل سنتحدث كذلك عن «القدرة المنتوجة» (كما التقطناها من مناقشة مع غيرد ميير Gerd Meyer). ما نعنيه هنا هي القوة التي تنطلق من المنتوج، لتصبح بذلك القوة التقنية والتقنيات موضوع العمل أو الفعل. يقصد «بقوة المنتوج» ما يمكن لما يُنتج ويُصنع عن طريق برنامج ما أو تقنية ما القيام به وتدبيره والتحكم فيه وخلق وإخراج واقع معين.



إن الهدف من استعمال مفهوم القوة «المُنتَجة» عوض «القوة» التقنية هو إظهار الفرق الذي يتمظهر بقوة عندما يتعلق الأمر بإنتاج الواقع. وفي كل هذا يكون المعنى المزدوج لكلمة «مُنْتَج» مرغوبًا فيه ومرحبًا به. من يعتمد على القوة «المُنْتَجَة»، فإنه يُطابق بذلك فاعلية الأنا الموجه مابعد حداثي، لكن طريقة تعبيره تتضمن كذلك مظهر «المُنْتَج»، الموحى به، الصناعي، المُصنع، المقلد، على الأقل بالنسبة للذين لم يمروا كليًّا إلى قارب الفاعل النشيط. من يعتمد على القدرة «المُنتجة»، تكون مشاعره «مُنتجة» كذلك. يُدهش بشخصية «مصنوعة»، ومع ذلك لا تكون ثقافته ثقافة «مصنعة»، لكن يكون مُعاش علاقاته محكوم بتفاعلات «اصطناعية»، ولا تكون تربية الأطفال مركزة على الوالدين، بل على ما تقدمه مجلة «الوالدين» وتنصح باستعماله. كما أن أصالة السياسي لا تقاس بشخصيته الذاتية بل «تُنتج» عن طريق تدريب يتعلم فيه كيف يظهر بطريقة يعطي فيها الانطباع بأن المرء يمكنه الثقة به.

فيما يتعلق بالديناميكية النفسية للطبع المابعد حداثي

إن الحجة القائلة بأن كل قوة تقنية و«مُنتجة» هي في آخر المطاف نتاج القوة الإنسانية، لا تكون لها أية أهمية من منظور سيكولوجي، لأن ما هو حاسم هنا هو ليس البناء العقلي (يعني القول بأن القوة الإنسانية هي التي أتت بمعجزة التقنية أو بالتقنيات السيكولوجية والاجتماعية)، لكن ما يهم هو التمثل الوجداني والحالة النفسية الفعلية للأفراد. فالفرد الذي يواجه خطوة خطوة تفوق القوة «المُنتجة»، يتمثل قبل كل شيء بأن القوي ليس هو ذاته بإمكانياته الإنسانية المتواضعة، لكن القوي هي المنتوجات والواقع المُنتج عن طريقها.



الملاحظ هو أن الاقتصاد الذي يعيش على إنتاج عوالم استهلاك جديدة لا تفوته أية مناسبة ليوهم الناس بأن استعمال القوة «المُنتجة» وامتلاك الواقع المنتوج هو أحسن بكثير وأفيد من الاعتماد على الكفاءات الإنسانية. بالنظر إلى المُعاش فإن التفوق الساحق للإمكانيات «المُنتجة» والعوالم المنتوجة رقميًا وتواصليًا تشكل تقليلًا مستمرًا من قيمة ما يمكن للمرء أن يقوم به انطلاقًا من قوته الذاتية. ويشمل هذا التقليل من القيمة الكفاءات الخاصة والواقع المُنتج ذاتيًّا.

إن تخفيض قيمة الإنسان هي كبيرة إلى درجة أنه ينتج الإحساس بعدم القوة والعجز والضعف، وهي أمور لا تعيها ولا تتحملها إلّا قلة قليلة من الناس، في الوقت الذي تكبته الغالبية العظمى منهم، حتى وإن كانت تتمظهر في الأحلام أو في تكون أعراض نفس جسدية. وبما أن تخفيض قيمة الكفاءات الإنسانية قد أصبحت عامة، فإنها تعوض في الغالب بتكوين طباعي للأنا المُوجه، يمجد الإمكانيات التقنية و«المُنتجة»، ويحاول المرء بمساعدة هذه الأخيرة أن يُنتج الواقع أو أنه يمتلك هذا النوع من الواقع المصنوع ويستعمله.

لا تتقلص أهمية القوة الذاتية النفسية والعقلية في تشكيل الواقع فقط عن طريق الإمكانيات «المُنتجة»، ذلك أن ما يهم توجه الأنا المطبوع بالعوالم المُنتجَة عن طريق الاقتصاد هو مُعاش أنا وواقع جديدين، مغايرين ومُحدَّدَين ذاتيًّا؛ يعطيان الانطباع بأنهما لا يرجعان إلى قوى وكفاءات سابقة ومُعطاة. ما يمكن للإنسان التأثير فيه ليس فقط ما هو أقل جاذبية، بل كل ما يُعيق إنتاج الواقع. إنه يعيق المرء في إنتاج الواقع بطريقة حرة وعفوية أو الغوص في واقع مُنتج، ولهذا السبب من الضروري تعويضه. والنقطة الحاسمة في كل هذا هو الهدف المتوخى والمتمثل في



تعويض القوة الإنسانية بالقوة «المُنتجة» وعوض استعمال القوى الذاتية يلجأ المرء لاستخدام البرامج وما تنتجه من إخراج وأوهام ومحاكاة للواقع. وعندما يعوض المرء القدرة الإنسانية عن طريق قوة «مُنتجة» فإن ديناميكية جديدة تظهر، تُنتِج توجهًا غير مُنتج. وككل الميولات النفسية الأخرى، فإن هذه الديناميكية تملك كذلك الميل للتطور.

يمكن للمرء التساؤل عن كيفية تعويض الإحساس السلبي وإدراك القيمة السلبية الذاتية عندما يأخذ بعين الاعتبار حصول تخفيض قيمة الكفاءات الإنسانية، وبهذا فقط يمكنه فهم لماذا لا تدرك الإمكانيات التقنية والبرامج كتوسيع واستعمال للكفاءات الإنسانية، لكنها تُعوض بالإمكانيات التقنية هذه.

قد تكون النتيجة المباشرة لكل هذا هو استخدام الإنجازات التقنية والتقنيات السيكو ـ اجتماعية كأداة لخدمة أمثل للقُدرات الإنسانية الذاتية. لكن الملاحظ هو أن أغلبية الناس لا تريد هذا ولا تقدر عليه أو لم تعد قادرة عليه. يُفتن الناس بالتفوق غير المشكوك فيه لمهارات المنتوجات «المُنتجة» ويتعرضون باستمرار إلى ضغط إيحاءات اقتناء واستعمال هذه المنتجات ويعيشون بذلك ذواتهم بضعف وبدون حول ولا قوة. ولكي لا يتركوا معاش الأنا السلبي هذا يطفو على سطح وعيهم، فإنهم يحددون معاش أناهم بطريقة جديدة. فعوض استعمال الكفاءات الذاتية، يحدد مُعاش الأنا عن طريق استعمال مهارات المنتوجات التقنية. لا يهم توجه الأنا المابعد حداثي الرفع من القدرات الإنسانية الذاتية بمساعدة الإمكانيات الرقمية والتواصلية، بقدر ما يهتم بإنتاج واقع دون الرجوع والأخذ بعين الاعتبار كفاءات القيم الإنسانية السابقة عليه ولا للخصوصيات الفردية.



يعني «توجه الأنا» إذن تعويض المهارات الإنسانية عن طريق المهارات «المُنتجة». ولا يحدث هذا التعويض بطريقة مفاجئة، بل خطوة خطوة: فكلما كان تحديد معاش الأنا من طرف استعمال كفاءات الأنا ضعيفًا، تطور الميل إلى تحديد مُعاش الأنا بطريقة تعويضية باستعمال المهارات المُنتجة عوض تطبيق المهارات الإنسانية. وينتج عن هذا عدم قدرة الأنا الموجه على استعمال الحاسوب والإنترنيت دون أن يصبح تابعًا لها، ولهذا السبب بالضبط أصبح الحاسوب المحمول والهاتف المتنقل أهم مُرافق في السفر، لسماحهما بالدخول للإنترنيت في أيّ وقت.

أشار أولريك بيك Ulrich Beck من جانب سوسيولوجي إلى عملية هذا التعويض، الذي يقود إلى تبعية جديدة، عندما تحدث عن «التناقضات الواضحة في صيرورة الفردانية». يقول في هذا الإطار: «دخلت سلطات ثانوية ومؤسسات عوض الارتباطات التقليدية وأشكال اجتماعية أخرى»، تجعل من الفرد: «وضدًا عن قوانينه الذاتية، التي تفرض نفسها كشكل من أشكال الوعي، كالموضة وعلاقات معينة ودورة الاقتصاد والأسواق. وهكذا تصبح الحياة الخاصة الفردانية تابعة بالتأكيد وبوضوح إلى أوضاع وشروط تفلت لسيطرته»[1]. من ناحية سيكولوجية، عشرون سنة بعد صدور كتاب بيك «مجتمع الخطر Risikogesellschaft»، فإن الأمر لا يتعلق فقط بـ: «التبعية للسوق في كل أبعاد الحياة»[2]، لكن بتبعية وجودية للقدرة «المُنتجة». ومحاولة شرح هذه التبعية عن طريق «التناقضات الواضحة في صيرورة الفردانية» قاصرة من الناحية السيكولوجية، وهي

(1) انظر: .Ulrich Beck 1986, S. 211

(2) المرجع السابق نفسه، ص 212.



كذلك أيضًا بالنظر إلى استنتاج بيك نفسه، الذي يؤكد تعرض الإنسان الفرداني إلى: «سيطرة خارجة عنه»[1].

التناقض بين القدرة أو القوة «المُنْتَجَة» ونظيرتها الإنسانية

من أجل فهم أمثل لما نصطلح عليه هنا «الإنتاجية Produktivität» و«عدم الإنتاجية»، من اللازم التأكيد بأن لا علاقة للإنتاجية النفسية بنظيرتها الاقتصادية، لكن لها علاقة بقوة وأصالة النفس البشرية[2].

هناك شرطان أساسيان يبرران نعت توجه الأنا المابعد حداثي «بعدم الإنتاجية»: إذا صح كون الإنتاجية الإنسانية تابعة في المقام الأول إلى ممارسة وتطبيق القوة الإنسانية (يعني باستعمال كفاءات الأنا وقواه الذاتية)، فإن النتيجة هي كون ممارسة التوجه الطباعي المابعد حداثي ليست له جودة إنتاجية. وهذا الشرط بالضبط هو ما يضعه التفكير المابعد حداثي محط التساؤل. إضافة إلى هذا لا يكون نعت توجه الأنا غير المنتج، إلّا إذا كان هدف تفضيل القوة «المُنتجة» هو إعاقة وإحباط القوة الإنسانية، وبهذا فإنها تعوضها بالفعل. وهذا البعد بالذات هو الذي يهمنا فيما يأتي.

ليس من الضروري أن يحدث التناقض الذي يميز عدم إنتاجية توجه الأنا بين القدرة الإنسانية والقدرة «المُنتجة». ذلك أنه بإمكان المرء أن يتصور نوعًا من التعاون بينهما لإنتاج الواقع. ويمكن ملاحظة هذا الأمر عند الكثير من الفنانين وفي العديد من المهن الخلاقة وكذا عند بعض

---

(1) Ulrich Beck 1986, S. 212.

(2) انظر في هذا الإطار فونك، 2000 أ.



الأفراد. ذلك أن هؤلاء الناس يستعملون القوة الرقمية والتواصلية لتقوية كفاءاتهم الجسدية والروحية والعقلية، عوض إنتاج واقع للأنا المُوجه. يوجد إذن تعامل «مُنتج» بالمفهوم الفرومي باستعمال التقنية الرقمية والتواصلية، لا يكون مدفوعًا من طرف أي شغف للأنا المُوجه، وهذا ما سنتحدث عنه في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

ينتج التناقض بين القوة «المُنتجة» ونظيرتها الإنسانية في خلق واقع جديد بسبب ضغط التكيف في اقتصاد، يعرض ويبيع واقعًا ما ويحاول عن طريق تقنيات دقيقة التلاعب والتأثير والإيحاء والتوهيم وإزاحة القوة الذاتية للإنسان، لكي يُبهر ويعطي الانطباع بأن الواقع المُنتج هو الأفضل. وكلما نجح في ذلك، شعر الإنسان نفسيًّا بتبعيته وعدم قوته وضعفه وعدم حيلته اتجاه هذا الواقع المُنتج.

بما أن هذه المشاعر قوية جدًّا ومن الصعب التحكم فيها، فإنه يكبت هذه الإدراكات ويطور تعويضيًّا توجهًا للأنا، يشعر فيه بأنه قوي جدًّا، ولهذا السبب يكون مستقلًّا عن الكفاءات الإنسانية لكي يُنتج الواقع أو المشاركة في الواقع المُنتج. وكلما كانت هذه الديناميكية غير المنتجة قوية، كانت القدرة على الغَرف من القوة الذاتية ضئيلة، لأنه من الضروري التعويض عن النقص الناتج عن الأنا الموجه مابعد حداثي.

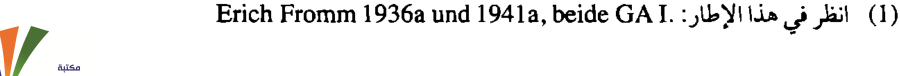
كما هو الأمر بالنسبة للطبع التسلطي، فإن الطبع المابعد حداثي يقع/ يحدث/ ينتج في صيغة نشيطة وأخرى خاملة/ سلبية، وتتبادل طريقتا تمظهر هذا الطبع التأثير فيما بينهما. لابد من إزاحة سوء الفهم الذي قد ينتج هنا والاعتقاد بأن للجانب النشيط للأنا الموجه ـ يعني الإنسان الذي يُنتج الواقع بالكثير من المتعة وبمساعدة التقنية ـ خاصية إنتاجية أو أنه



يكون على الأقل أكثر إنتاجية من الأنا السلبي/ الخامل، الذي لا يقوم بأكثر من استهلاك معروضات عوالم المُعاشات. ما هو حاسم ليس هو ما إذا كان المرء يقترح أو يستهلك واقع الأنا الموجه. من الناحية النفسية، فإن الإنتاجية تنتج من الواقعة التي مفادها أن كلًّا من الأنا النشيط ونظيره الخامل غريبان اتجاه قدراتهما الإنسانية، يعني اتجاه قواهما الإنسانية الذاتية وكفاءات أناهما.

من أجل توضيح هذا الأمر، يمكن مقارنته بما جاء به فروم في الثلاثينيات من القرن الماضي حول ما سماه التوجه الطباعي السلطوي غير المنتج[1]. لا يتعلق الأمر في نقد التوجه السلطوي بوجود أو عدم وجود السلطة، أو بوجوب التقليل من السلطة إلى أقصى حد، وقد كان هذا فهمًا خاطئًا لما يسمى بـ «التربية الضد السلطوية». تنتج الخاصية غير المنتجة للتوجه السلطوي من جهة من كون السلطة، بسبب الإلزامات الاقتصادية والاجتماعية، هي سلطة، يعني أنها تستغل كفاءاتها وقوتها (القوة كرجولة Power als potency) لكي تبسط سلطتها (القوة كهيمنة Power als domination) وجعل الآخرين تابعين لها أو استمرار تبعيتهم لها. ومن جهة أخرى تنتج هذه الخاصية غير المنتجة لتوجه الطبع من عدم تجاوز تبعية الناس للآخرين عن طريق اكتساب كفاءات ذاتية، لكنهم يخضعون للمسيطرين ولا يريدون الاستقلال عنهم.

إن الأمر لا يتعلق في نقد التوجه الطباعي المابعد حداثي بتجاوز الواقع المعطى والوصول إلى مُعاش واقع جديد بمساعدة الإمكانيات التقنية الجديدة، لكن كون المرء يستغل هذه الإمكانيات للهروب من


(1) انظر في هذا الإطار: Erich Fromm 1936a und 1941a, beide GA I.



الواقع الشخصي باستغنائه عن إمكانياته الإنسانية. وتقدم دي دي جوردن Dee Dee Gordon، باحثة متخصصة في شؤون الشباب بشيغاغو، في حوار متعلق بتعامل الشباب الياباني مع هواتفهم النقالة: «إنهم يضعون هواتفهم النقالة في ملابس أو يُلبسونها وكأنها دبة لعب ويضعونها على كراسي صغيرة ... وقد استأنس الكثير منهم بآلاتهم التقنية إلى درجة أنها أصبحت جزءًا منهم. يلاحظ المرء الشباب الياباني يتجولون ويكتبون في الوقت نفسه رسائل هاتفية، دون أن ينظروا إلى مفاتيح الهاتف ولا إلى شاشته»[1].

كما أن نقد الأنا الموجه سلبيًّا لا يرتكز على ولوجه إمكانيات مُعاشات جديدة ومشاركته فيها، لكن لأنه بالاعتماد على عوالم المعاشات المصطنعة يقصي بالفعل قُدرة مُعاشاته المؤسسة على مشاعره الشخصية وتمثلاته وخياله وإدراكاته الحسية الداخلية.

ما يغري في التوجه السلطوي ليس فقط توفره على قوة وكفاءة، لكنه، ونظرًا لتفوقه، يتسبب في خلق تبعيات له ويُخضع أكثر من هو تابع له. ما يغري في التوجه السلطوي ليس فقط خلق واقع فاتن بمساعدة الإمكانيات التقنية والإبداع في ميادين شتى بمساعدة المؤهلات «المصنوعة»، لكن خلق واقع يتسبب في إفراغ المستهلك داخليًّا من قدراته الشخصية ليصاب بالسأم وغياب الإبداع الذاتي عنده وفيه. وعن طريق هذا يحصل عنده «استلاب» نفسي ويصبح تابعًا وجوديًّا لولوج الواقع المصطنع لكي يُنشَّط من جديد.

تشرح المقارنة بالتوجه السلطوي كذلك كيف يجب فهم تصنيف

---

(1) انظر: Dee Dee Gordon 2002, S. 93.



توجه الأنا المابعد حداثي النشيط ونظيره السلبي. فقد فهم إيريك فروم الطبع السلطوي كوحدة تكافلية للميل السادي المازوخي. وأكد على تبادل التبعية بينهما ووضح ذلك في كونهما موزعين نفسيًّا باطنيًّا على أشخاص متعددين، يلتحمون عن طريق صلات عاطفية قوية. كما أنه مقتنع بأن الجانب النشيط (السادي) ونظيره السلبي (المازوخي) يوجدان عند كل إنسان، على الرغم من أن جانبًا من هذين الجانبين يبقى لاشعوريًّا عندما نصنفه نفسيًّا باطنيًّا ويُهضم بطريقة إسقاطية، يعني أن المرء يبحث عنه في الآخرين ويجده.

إذن، يُجذب السادي بحالة الخضوع، لكنه يسقط هذا الجانب من شخصيته على المازوخي ويجده عنده كمُعاش، وبهذا يكون تابعًا للمازوخي. على العكس من هذا، فإن المازوخي يُسقط جانبه السلطوي والاستغلالي على السادي يجده عنده كمُعاش ويصبح بهذا تابعًا له. لا يمكن للسادي أن يعيش دون مازوخي والعكس صحيح[1].

يمكن للطريقة التي يتمظهر بها جانب الطبع السلطوي أن تكون مختلفة: قد يُتَمَثلان ويُعاشان بطريقة واعية نسبيًّا ويكونان موزعين في الغالب على أناس كثيرين (يكون المرء ساديًّا اتجاه الأطفال وخاضعًا لرئيس العمل مثلًا) أو يكون متسلطًا في ميدان التربية ومؤمنًا ومُستعْبدًا في ميدان الدين، أو في علاقته مع ذاته ومع الآخرين (منضبطًا وقاسيًا ومسيطرًا مع ذاته ومنقادًا وضعيفًا وخاضعًا اتجاه الآخرين). وقد يتم هذا التعيين كذلك عن طريق كبت أو إسقاط الجانب السلبي أو الإيجابي/ النشيط على أناس آخرين أو مؤسسة أو على فكرة معترف بها اجتماعيًّا،

(1) انظر: Erich Fromm 1941a, GA I, S. 302 f.



وبهذا قد يعيش الدولة أو الزوجة بإحساس القهر والضغط ولا يريد من التلميذ إلّا أن يكون منضبطًا.

تتمظهر الخاصية غير المُنتجة لتوجه الطبع السلطوي، التي تشجع عليها المجتمعات السلطوية سياسيًّا واقتصاديًّا، في استغلال السلطة والكفاءات. ويكمن هذا الأمر في خلق أساس تبعية تكافئية من ممارسة السلطة النشيطة والخضوع السلبي للناس، وهي سلطة تتمظهر عند كل إنسان سلطوي، حتى وإن كانت تجليات هذه السلطة لا تُعاش عادة من طرف الشخص نفسه في الوقت نفسه، ولهذا السبب فإنها تقود إلى تبعية عاطفية قوية وإلى ترابط بين الأشخاص.

على أساس الخاصية غير المُنتجة للتوجه السلطوي، سنعمل على شرح الخاصية غير المُنتجة للأنا الموجه مابعد حداثي.

يلعب نظام اقتصادي، ينتج ويبيع أكثر فأكثر ليس خيرات مادية وخدمات، لكن عوالم اصطناعية، دورًا أساسيًّا في عدم إنتاجية الأنا الموجه مابعد حداثي. يزدهر اقتصاد يبيع عوالم اصطناعية قبل كل شيء عندما تعرض وتبيع بمساعدة القدرات «المُصطنعة»، ما وصل إليه الإنسان من قبل عن طريق قُدراته الذاتية: أفكار، مُعاشات، علاقات، مُعاش القيمة الذاتية، فرحة الحياة إلخ. وبهذا فإن هذا الاقتصاد يُعوض القدرات الإنسانية بقدرات «اصطناعية» ويُشجع بكل وسائل الإيحاء والتوهيم تشكيل وبناء طبع غير مُنتج، عند الناس الشغوفين بالعروض «المُصطنَعة» عوض تلك التي تكون منتجة بمساعدة القدرات الإنسانية.

يلعب الاقتصاد إذن دورًا حاسمًا في إنتاج الأنا الموجه بطريقة غير مُنتجة. وله في الوقت نفسه وظيفة نموذج/ مثال بالنسبة للإنتاج والتنظيم



في ميادين السياسة والإدارة والثقافة والشؤون الاجتماعية. ويُعتبر الفاعلون في ميدان إنتاج هذا الواقع الاقتصادي في الوقت نفسه الممثلين المهمين لتوجه الأنا النشيط. لا يهم بأيّ ميدان يتعلق الأمر، فإننا نجد دائمًا من يقترح/ يعرض واقعًا ما بطريقة نشيطة، مُنتَجة بواسطة قُدرات تقنية وتقنيات سيكو ـ اجتماعية؛ ومن يستهلك هذه الأشياء بطريقة سلبية.

يُقابل نمط الشخصية السادي للتوجه السلطوي السادي كنسخة نشيطة لتوجه الأنا المُنتج وعارض المعاشات بخاصيات الفاعل، بينما يقابل النمط المازوخي المتلهف على المُعاشات والمستهلك. ويوجد لذا الأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي تبعية متبادلة قوية بين العارض والمستهلك: ماذا قد يكون هارالد شميد دون جمهور وماذا سيكون المستعمل للإنترنيت دون مزود Provider؟

تصنيف توجه الأنا النشيط ونظيره السلبي

طور إيريك فروم في التحليل النفسي للطبع السلطوي فكرة كون الجانب النشيط والجانب السلبي في الإنسان ينتميان إلى بعضهما البعض[1]. ويمكن البرهنة عليهما عند كل إنسان سلطوي، عندما يكون جانب من هذه الجوانب لاشعوريًّا ولا يُعاش إلّا كإسقاط على أُناس آخرين. ويمكن تطبيق هذه الفكرة بطريقة مثمرة على الأنا النشيط والسلبي الموجه مابعد حداثي. ذلك أن كلا الشخصين ما هما إلّا تعبيران مختلفان لتوجه الطبع نفسه، الميال إلى تعويض القُدرات الإنسانية بالقدرات التقنية «المُصنعة». ويقوم الأنا النشيط بهذا بطريقة مُنتِج ومُزوِّد، أما الثاني فإنه

(1) انظر: E. Fromm 1936a, GA I, S. 171.



يمارس هذا كمُستَخْدِم، يعني كزبون وكمُستهلك. لكن كلاهما مسحوران بإنتاج/ صناعة الواقع بالرجوع إلى القدرات «المُصنعة»، لاعتقادهما بأن الأنا لا يمكن أن يعيش باستقلال عن الآخرين إلّا باستقلاله من التبعية إلى حتمياته الذاتية والإكراهات الخارجية أو ما يُنتظر منه من طرف الآخرين. وهكذا يسود الاعتقاد بأن إنتاج الواقع بمساعدة القدرات «المُصنعة» يُمكِّن ويضمن توجهًا للأنا حرًّا ومستقلًّا ومحددًا ذاتيًّا.

تطلب أطروحتنا القائلة بأن كل تَوَجُّه للأنا المابعد حداثي يكون في الوقت نفسه وبطريقة شغوفة الفاعل النشيط والمُستهلك السلبي، على الرغم من أن جانبًا من هذه الجوانب لا يُعاش شعوريًّا، المزيد من الشرح لتفهم جيدًا.

لابد من التساؤل في البداية كيف يتم التمييز سيكولوجيًّا بين شخصية فاعلة نشيطة وأخرى مستهلكة سلبية. من الأكيد أن هناك أسبابًا مؤسسة تشرح لماذا يعيش البشر إما فاعلين وإما مستهلكين. ويكمن السبب العميق لهذا الأمر في المتطلبات الاقتصادية. فإذا كان الاقتصاد مُنظمًا على أساس متطلبات السوق، فإنه يكون بحاجة دائمة إلى أناس يُنتجون وآخرون يستهلكون. ففي كل مكان يُحَلُّ فيه اقتصاد مبني على الملكية وعلى أهداف معينة عن طريق اقتصاد مُزوِّد/ عارض وآخر مستهلك، فإنه يحتاج لكي يشتغل إلى تنظيم متكافئ لبشر يكونون إما مزودين أو مستخدمين ومستهلكين.

طبقًا لفهم التحليل النفسي، فإن ما يجر الناس بشغف إلى شيء ما، ناتج عن تكون طبع معين. ذلك أن تطور الشخصية الفاعلة النشيطة ونظيرتها المستهلكة السلبية هو الشرط النفسي/ السيكولوجي لاشتغال

النظام الاقتصادي والاجتماعي الحالي. ولهذا السبب بالضبط يعطي فروم لهذا النوع من تشكل «التوجهات الطباعية الاجتماعية» وظيفة تلحيم مجتمع ما[1].

إن إكراهات الاقتصاد الحالي هي السبب الرئيس في تَكَوُّنِ فاعل نشيط وآخر سلبي مستهلك، وفي عدم عيش الشخص نفسه شعوريًا للنمطين معًا، لكنهما يتمظهران في أدوار مختلفة وعند أناس متعددين. وبهذه الطريقة فقط يمكن استغلال التبعية المتبادلة لكليهما اجتماعيًّا واقتصاديًّا ومساهمتهما في استقرار هذين الميدانين.

ما يُعتبر اجتماعيًّا ضروريًّا ويساهم في المحافظة على النظام القائم تحت شروط اقتصادية معينة، لا يمكن أن يكون من الناحية السيكولوجية مُنتجًا. ويتأسس اعتبار كلا توجهي الأنا المابعد حداثي غير مُنْتِجين سيكولوجيًّا على واقعة كونهما لا يعتمدان على قُدرات التجربة الإنسانية، بل على المهارات التقنية و«المُصنعة»، ولا يرجعون في علاقتهم بالواقع إلى الكفاءات والمهارات الإنسانية، لكنهما يتوكلان على طرق وبرامج وتقنيات بعينها. وحتى وإن كانت هذه الأخيرة نِتاج الروح المخترعة للإنسان، فإنها مستقلة كل الاستقلال عن قدرات المستهلك. تُقَوَّى إذن أسس الخاصية غير المنتجة لتوجه الأنا بإقامة تبعية متبادلة بينهما.

شرح إريك فروم هذه التبعية المتبادلة في التوجه السلطوي بمصطلح «التكافل Symbiose». وبما أن «للتكافل» معنى بيولوجيًّا في المقام الأول، وبما أن «العلاقة الاقتصادية» لا تعني أوتوماتيكيًّا تبعية متبادلة، فإننا نفضل

(1) انظر: E. Fromm 1962a, GA IX, S. 89-95.



المفهوم الذي طوره يورغ فيلي Jürg Willi «تواطؤ Kollusion» للحديث عن خاصية التبعية المتبادلة بين الشخص الفاعل ونظيره المستهلك.

استعمل مصطلح «التواطؤ» في أول الأمر استعمالًا قانونيًّا كموافقة غير مسموح بها بين اثنين أو أكثر ضد شخص آخر، واستعمله يورغ فيلي للدلالة على التفاعل اللاشعوري بين شخصين. ما يُقصد بـ «التواطؤ» هو «التفاعل السري بين شخصين»، «يقود إلى علاقة تبعية حتمية/ مفروضة بينهما، وفي الغالب تترك لكل منهما إمكانية الخروج من هذا الانحياز»[1]. ويوجد غير المُنتج في هذا النوع من العلاقة في تبعية متبادلة، دون أن يكون الشريك واعيًا أيّ «ضرر» ينتج عن هذا «الاتفاق السري» بالنسبة للاثنين، وماذا يعني هذا الضرر بالنسبة لهما. وطالما أن التفاعل يبقى قائمًا، فإنه لا يُعاش كألم.

يمكن لمفهوم التواطؤ أن يشرح جوانب مختلفة للتبعية المتبادلة بين الشخصية الفاعلة ونظيرتها السلبية للأنا الموجه. يظهر كيف تتوافق هاتان الشخصيتان على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وعلى مستوى العلاقات الشخصية، طالما أنهما لا يحسان بالخسارة المتعلقة بضياع القدرات الإنسانية فيهما والتواطؤ بينهما الذي يتقوى من خلال هذا الضياع، لأنهما يُتاجران ببضائعه المهارات الإنسانية بهذه التبعية المتبادلة. لم يعد يهم مثلًا ما يقدمه عرض الأخبار من أخبار فعلية ولا ما قد يعبر عنه برنامج ترفيهي من مهارات إنسانية، لكن ما يهم هو القيمة الترفيهية التي تقدمها هذه الأخبار وما إذا كان هذا الترفيه يُمتع أم لا. وفي كلتا الحالتين، فإن ما هو حاسم هو الإخراج، يعني الاعتماد على التقنية والتقنيات. ولا يراهن

(1) انظر: .Jürg Willi 1978, S. 35



الأنا الموجه سلبيًّا كذلك على عيش قُدراته الذاتية، لكنه يريد أن يُشَارَك ويُنشَّط فقط. ولكليهما معًا (الأنا الفاعل والأنا السلبي) اتفاق سري بينهما، يتمثل في اتفاقهما على أهمية ما هو «مُصنَّع»، على الرغم من أنهما غير واعيين بهذا الاتفاق السري أو لا يعترفان به.

كلما كانت القدرات الإنسانية/ البشرية ضعيفة في تشكيل العلاقة بين الأنا الفاعل ونظيره السلبي، كان من الضروري على المرء تقوية التواطؤ. ذلك أنه يكون بالإمكان الرفع من وفاء بعضهما للبعض الآخر عن طريق قوانين حماية المستهلك أو بمساعدة تدابير ضمان الجودة. ما يكون مهمًّا في هذه الحالة هي شروط وأحكام التبادل، ولهذا السبب نشطت شركات الضمان على مختلف أنواعها وقانون العقود. ذلك أن الشعار لم يعد هو: «الثقة جيدة، والمراقبة أحسن»، بل: «انتهت الثقة وبدأت السيطرة/ التحكم»، على الرغم من أن هذا التحكم عن طريق البرمجيات يعوض الانطباع والحكم الشخصيين، لأنهما يعنيان الرجوع إلى القدرات الإنسانية، التي تُشكل خطرًا على الاتفاق السري.

تعتبر الانتظارات المتبادلة بين الفاعل والمستهلك القوة الواعية المُلزمة لبعضهما البعض، بينما يعتبر الاتفاق السري المتمثل في الاعتماد الكامل على التقنية والقدرات «المصنوعة» في التفاعل بينهما القوة اللاشعورية لالتزام الواحد اتجاه الآخر. ذلك أن المستهلك ينتظر من الفاعل إشباع توجه أناه المستقل والمُحدَّد ذاتيًّا، بتمكينه كمستعمل من دخول العوالم وأنماط الحياة المُنتجة ويتعامل معه بلطف، ويسمح له كمستهلك أن يكون «ملكًا» وأن يكون في خدمته على الدوام. يريد أن يُثنى عليه كمُستعمِل ويُسلّى ويُنشط وتُؤخذ مُتطلباته مأخذ الجد، يعني يطالب أن يعترف له بحق المفعول به والسلبي غير النشيط.



أما الفاعل فإنه ينتظر من المستهلك/ المفعول به أن يلتزم بسلبيته وأن يترك نفسه يُسلَّى ويُنشط وعدم قطع حبل التواصل ويَظهر بمظهر التابع، ببقائه وفيًّا للفاعل ويُربط كزبون ويصرح علانية بانتمائه لعلامة تجارية معينة وللعوالم المُصنعة ويسمح أن يكون وسيلة للدعاية وأن يكون قادرًا على دفع ثمن ما يطلب الفاعل عن منتوجاته، على الرغم من غلائها، لأن هذا ما يرفع من الالتزام اتجاه الفاعل، وأن يكون شفافًا ويصرح بما يحتاج إليه ويعلن عن عاداته الاستهلاكية وما يفضله وعن أنشطته في الوقت الثالث وعن هويته المرتبطة بسلعة معينة.

تقود التبعية المتبادلة، على الرغم من أن المرء لا يعترف بها ـ لأنها تكون مُقَنَّعَة اليوم بمساعدة إمكانيات الإخراج وتُقَدَّم كميزة وحرية ـ، إلى تقييد كبير للحرية الشخصية. ذلك أنه على المستوى الاجتماعي والاقتصادي يرتفع الخطر السريع لعدم التمكن من تقديم عالم مُعاشات حيوي أو البرنامج «الصحيح» لتدريب الشخصية أو تدبير الصراعات والإقصاء السريع من ساحة الفعل.

تقلل كل تبعية من إمكانية الإنتاج الإنساني وتشجع بسبب ذلك توجهًا غير منتج. وإذا حدث هنا تواطؤ بالمعنى الذي قدمناه، فإن مشاكل إضافية تظهر عند الجانبين. ذلك أن خوفًا خاصًّا يحدث في الأماكن التي تكون فيها تبعية. فالخاضع في التوجه السلطوي يخاف أن يصطدم بشيء يَنْتَقِده أو يُضعِفه أو يكون على خطأ. في الوقت الذي يخاف فيه المُتسلّط من تمرد وجُموح الخاضعين له والاستقلال عنه، ولهذا السبب يُقضى على كل عصيان في مهده.

تتمثل المخاوف الخاصة بالأنا الفاعل، الذي يقترح/ يعرض عوالم



استهلاك جديدة وترفيه ومُعاشات ونصيحة علاج ومعارف وفهم وثقة ومعلومات واستشفاء وتجربة تجاوز الحدود وتبديل الدين إلخ، إلى فشل أو نضب قدرة فعله وخسران زبائنه. وقد يتجاوز هذا الأمر ببقائه دائمًا على اطلاع بما جد في ميدان التقنية والتقنيات ويكون على الدوام عارفًا بالمُوضات الجديدة وعلى اتصال «بزبائنه» ويقترح برامج ترفيه وعطلة وتصوره العلاجي.

ما يُعْتبر عند المتسلط النشيط تفوقًا شخصيًّا سيطرة وحصانة هو عند الفاعل المابعد حداثي النشيط المهارة في إنتاج مواد بشرية يخلق بها عوالم ويبيعها باستقلال عن القدرات الإنسانية الذاتية وباستقلال كذلك عن القدرات نفسها عند زبائنه وشركائه التجاريين أو جمهوره، وبهذا يظهر مُنَشِّطًا وحيويًّا. لكن التركيز على القدرات التقنية والتقنيات بصفة عامة وعلى إقصاء القدرات الإنسانية يتسبب في خوف دائم من فقدان السيطرة على كل شيء، عندما لم يعد «للفعل» أيّ توافق مع مستوى التقنية وحاجة المستهلك والقلق على هروب هذا الأخير منه و«التبضع» عند آخرين والتَّقَيُّدِ بهم.

يقود الاستبدال الكبير للقدرات الإنسانية باستعمال المهارات التقنية عند الأنا الموجه سلبيًّا إلى خوف خاص كذلك. إذا كان الخوف العام والمهم عند الخاضع في التوجه السلطوي يتمثل في احتمال فقدان السلطة لقوتها ونجاحها وقدرتها على السيادة، فإن الخوف الخاص بالمستهلك السلبي هو عدم التمكن من استعمال الواقع المُصنع، لأنه قد يفقد إمكانية الوصول إليه. يخاف من تضييع الصلة بهذا العالم وأن يصبح تابعًا ومقصيًّا ومُبعدًا عنه ولا يعود بإمكانه المشاركة فيه. يخاف أن يصبح كزبون غير ذي قيمة ويخسر إمكانية الانتماء إلى هذا الواقع ويُعزل منه



ولا يتوصل بقروض إلخ. إنه يعاني إذن من خوف وجودي يُهَدد بالفصل والضياع. إنه يخاف من الواقع «المصنع» ومن نفسه ذاتها ومن عالم الحياة، الذي يتشبث به كلما تضاعفت خسارة قدراته الإنسانية وانفصاله عن كفاءات أناه وقواه الذاتية. ما يهدده في هذه الحالة هو فقدان الواقع، إذا لم يكن بإمكانه أن يبقى مستهلكًا سلبيًّا.

يعتبر التواطؤ إمكانية من الإمكانيات الكثيرة لتصنيف توجه الأنا الفاعل والمفعول به، وهو التصنيف الذي يشجع عليه الاقتصاد والمجتمع ويطالب به. ويكون فيه الجانب الآخر لتوجه الأنا لاشعوريًّا في غالب الأحيان، يعكس على الآخرين، وبهذا تتحقق رغبة الاقتصاد المتمثلة في الربط القوي بين الفاعل النشيط والمفعول به المستهلك. لا بد من التأكيد هنا بأنه من اللازم فهم مصطلحي «الفاعل» و«المفعول به» وتواطؤهما في معنى ديناميكي، يعني اعتبارهما نوعًا للشخصية أو توجهًا طباعيًّا. بطبيعة الحال يكون كل «فاعل» في الكثير من المواقف «مفعولًا به»، والعكس صحيح. يتعلق الأمر بتأمل ديناميكي للتوجيه والتوجه، اللذين يمتلكهما الإنسان في سلوكه ومساعيه بالفعل.

وراء التواطؤ هناك إمكانيات أخرى لتصنيف الفاعل النشيط والمفعول به السلبي، وهي تصنيفات تشرح بأن الأنا الموجه يمتلك دائمًا في الوقت نفسه مسعى الفاعل النشيط ومسعى المستهلك السلبي. يمكن ملاحظة بأن عيش وعي هذا الأنا يكون متوقفًا على أوضاع وأشخاص وبالخصوص في الأماكن التي لا يُكبت فيها جانب من هذين الجانبين ويُعكس كما رأينا في التواطؤ. عندما يكون العمل الذي يزاوله هذا الأنا الموجه مليئًا برغبة قوية في إنتاج واقع «مُصنع»، فإنه يستعمل آليات اشتغال الأنا المستهلك السلبي، بما في ذلك الرغبة في أن يكون متصلًا ويُنشط في ميدان الوقت



الثالث مثلًا، حيث لا يريد شيئًا آخر من غير الاستهلاك وعيش شيء ما سلبيًّا. على العكس من هذا، إذا كان هذا الأنا الموجه يزاول مهنة مليئة بالملل ولا تتطلب منه أيّ جهد خَلَّاق ـ كما هو الشأن في مهن معينة أو عند النساء اللائي لا يزاولن أية مهنة مقابل أجر ـ فإنه يستغل الوقت الثالث للانضمام إلى فضاءات مثل نوادي اللياقة البدنية والاستشفاء وحضور الندوات ودروس استكمال التكوين والتجربة الذاتية وتوسيع الأفق الروحي وممارسة الرياضة المتطرفة إلخ، ليكون خلاقًا أو للعناية بنمط حياة للتجارب غير المحدودة.

ما قد يربك الملاحظ الخارجي هو تصنيف يؤكد على أن جانبًا من هذين الجانبين للأنا الموجه يُعاش باتصال مع أناس آخرين، في الوقت الذي يظهر الجانب الآخر في علاقة هذا الأنا بذاته. ويكون مثل هذا الأنا الموجه، إما أحسن مُنشِّط، عندما يتخذ من الآخرين مُعاشًا بالنسبة له، وبهذا يتدفق أفكارًا ويسبب انفجارات ضحك متتابعة، في الوقت الذي يكون فيه في علاقته مع ذاته عديم الخيال، سلبيًّا ودون متطلبات. أو يكون مستيقظًا تمامًا وخلاقًا عندما يتعلق الأمر بمصالحه الشخصية، بحيث يكون بإمكانه إنتاج واقع عن ذاته، في الوقت الذي يكون فيه في علاقته مع الآخرين غير مبالٍ، دون حوافز ولا اهتمام، وفي أحسن الأحوال ينشط من طرف هذه الأخيرة. يظهر هذا التصنيف نرجسيًّا، لكنه ليس كذلك. ما يهم الأنا الموجه ليس هو الرضى الكبير عن نفسه ووعي الواقع بطريقة مشوهة، لكن بالرغبة الكبيرة ولربما التافهة في خلق جديد لذاته.

ليست هناك حاجة للبرهنة على عدم تمظهر إنتاجية هذا التوجه الطباعي في هذا التصنيف الأخير لتوجه الأنا السلبي والإيجابي غير المتواطئ. وحتى وإن لم يكن هذا الأنا الموجه لا يتميز بتبعية متبادلة



لاشعورية لجانب من جوانبه للجانب الآخر، فإننا نجد على الرغم من ذلك نوعًا من التبعية في العلاقات الشخصية أو في العلاقة مع الذات: بما أن الجانبين معًا يضغطان لكي يتحققا، يكون من الضروري على مثل هؤلاء الناس أن يعيشوا هذا الجانب أو ذاك بطريقة متبادلة، وقد يتعرضون لضغط نفسي حاد في حالة ما إذا قُصِّر في هذا الجانب أو ذاك. كما أنهما يقتسمان التوجه غير المنتج الأساسي: يريدان إنتاج الواقع باستعمال القدرات المُصنعة عوض القدرات الإنسانية أو أنهما يستعملان نوعًا من أنواع الواقع «المصنع».

تفهم محاولة تقديم الديناميكية النفسية لتوجه الأنا المابعد حداثي في شقيه النشيط والسلبي كتوجه غير منتج. وسنحاول فيما سيأتي شرح لماذا هو هكذا من خلال مُعاش الأنا. ويشترط هذا توضيح ما نعنيه بمعاش الأنا المُنْتِجِ.

معاش الأنا المُنْتِج كممارسة للكفاءات الإنسانية

دون الدخول في تفاصيل التصورات السيكولوجية المختلفة للأنا، الذات، الهوية، فإن هناك اجتماعًا واسعًا يتمثل في الإقرار بأن مُعاش الأنا محكوم بعملية تطور، تتميز بزيادة في كفاءة الأنا. ويتحدث مارتين دورنس Martin Dornes، الذي يلخص دراسة عن الرضع والأطفال الصغار بطريقة مقنعة، عن «كفاءة الرضيع»[1]. وترافق كفاءة الأنا هذه استعمال/ استخدام القدرات الجسمية والنفسية والعقلية وتستقل أكثر وأكثر عن كل المهارات الغريبة عن الأنا. ذلك أنها تقود بالكمية التي

(1) انظر: .Martin Dornes 1993; vgl. 1997 und 2002



تمارس بها المهارات الذاتية الحركية والسمعية والوجدانية والعاطفية والعقلية في تفاعل مع المحيط إلى تمييز دقيق بين تمثل داخلي ذاتي والواقع الخارجي. وبهذا فإن كفاءة الأنا تتأسس على العيش من القدرة على العيش انطلاقًا من القوة الذاتية وعلى القدرة على التمييز بين ما هو ذاتي وما هو غريب، بين ما هو شخصي وما هو غريب، أي بين الواقع الداخلي والواقع الخارجي.

من بين الأمثلة على كفاءة الأنا هناك القدرة على التمييز بين ما هو أمنية، تخيل، وهم، انخداع وما هو واقع، أو التمييز بين أناي وأناك: يعني كُنْهَ حاجتي الذاتية وخوفي الشخصي ومُلكي الخاص وانتظاري وانتماء هذه الأشياء إلى الآخر. وتتمثل كفاءة أخرى للأنا في قدرته على حماية نفسه بتطوير تمثلات خوف تحميه مثلًا من لمس النار أو سياقة دراجة هوائية بسرعة في منعرج. ويتطور جزء من بُنية متكاملة من هذه الكفاءة، تسمى منذ فرويد «الأنا الأعلى» و«مثال الأنا».

من بين كفاءات الأنا هناك أيضًا القدرة على اختبار الواقع وهي القدرة التي يزن بها المرء ما يهدده بالفعل وما يَظهر له أو يَشعر به هكذا، والتمييز بين ما هي الرغبة التي تطابق الواقع والتي لا تطابقه. على العموم فإن الرغبات والدوافع التي تُعاش بطريقة غريزية وتقويمها وتعدلها وتُرجئها أو حتى تستغني عن تحقيقها هي كفاءات الأنا وبُنياته الجزئية. وحتى بمساعدة ما يسمى بـ «ميكانيزمات الدفاع» ضد الأحداث التي تُعاش كخطر على الشخص والمخاوف والدوافع وإقصاء مثل هذه التمثلات من الوعي وكبتها أو مقاومة تحققها في الوعي، لكي يحتفظ المرء بالوظائف النفسية الأساسية، هي كفاءة مهمة للأنا تساعد كثيرًا الفرد.



أما الكفاءة الأخرى للأنا فهي المعرفة الإجرائية. لكن مع كل معرفة إجرائية تضيع المعرفة المكتسبة. فقد أظهرت سلسلة تلفزية، تابعت مَقام عائلة بورو Boro من برلين لمدة ثلاثة أشهر في مكان يسمى «كالتفاسرهوف» في الغابة السوداء، بوضوح كاف الارتفاع المستمر لضياع المعرفة الإجرائية.

ما كان مهمًا في الحياة في هذه المزرعة في الغابة السوداء كان هو ضرورة تسيير هذه العائلة المكونة من خمسة أفراد (الوالد مهندس والوالدة مربية) لهذه المزرعة بقدراتها الإنسانية لليوم والقدرات «المكتسبة» قبل خمسة قرون. وبما أن هذه العائلة التي كانت تسكن مدينة كبيرة لم تكن تتوفر على معرفة إجرائية لكي تسير هذه المزرعة بإمكانيات 1902م في خريف وشتاء 2001م، بما في ذاك المراعي وتربية الماشية من أجل أن تتغذى من عملها. لم يَضَع المرء رهن إشارة هذه العائلة آلات ذلك الوقت فقط، لكن أيضًا كُتيبات تشرح كيف تستعمل هذه الآلات. وبهذا كان لهذه العائلة كل ما كان متوافرًا لعائلة عام 1902م، لكن بفرق مهم: ما لم تكن تتوفر عليه هو معرفة إجرائية موروثة، وكان عليها العيش بمساعدة كُتَيِّبات استعمال الآلات التي وُضعت رهن إشارتها.

كانت النتيجة في مجملها تدعو للتفكير. فلم يجمع المرء الكلأ الضروري لشهور الشتاء مبكرًا، وبهذا تعفن هذا الكلأ وكان على هذه العائلة شراؤه ببيع رأس كبير من ماشيتها. وعندما أرادت العائلة ذبح دجاجة لأكلها، وهي دجاجة ربط بها أفراد العائلة علاقة شخصية، لم يتم ذلك إلّا بعد مناقشة طويلة، وهناك أفراد من العائلة لم يأكلوا منها، لأنهم أَلِفُوهَا. كما أن ما جُمع من خُضر لم يُحتفظ به بطريقة تضمن استعماله



لمدة طويلة، فالجزر تعفن. لم يكن من حق هذه العائلة في هذه التجربة الذهاب لشراء خضر أو لحم دجاج من أيّ محل تجاري.

لم تُظهر التجربة فقط كيف كانت الحياة في مزرعة قبل قرن من الزمن متواضعة وبسيطة وغير مريحة، لكن ما معنى أن يعيش الإنسان دون مهارات موروثة. وكلما لم يتوفر المرء على مثل هذه المهارات، كان يتوقف على المنتوجات المُصنعة والمهارات التقنية، التي ليس لها أية صلة أصلية بالأفراد، والتي لا تكون لها أية علاقة مباشرة بهؤلاء الأفراد. إنها توجد وجهًا لوجه مع الإنسان وهي الفاعلة الحقيقية، تتمثل وظيفتها في تعويض كفاءات ومهارات الإنسان.

ليس هناك حاجة لشرح كيف أن عملية استلاب/ تغريب الإنسان عن كفاءاته الذاتية، كالمعرفة الموروثة مثلًا، وضرورة إعادة اكتسابها عن طريق القدرات التقنية، تهيمن على الحياة اليومية. على كل حال، فإن الإمكانيات التقنية قد طُورت إلى درجة أن كل واحد بإمكانه اقتناء ما يحتاجه لكي يعيش من معابد الاستهلاك «وكاتيدراهات القرن الواحد والعشرين»، كما عبر عن ذلك هـ. ف. أوباشوفسكي .H. W Opaschowski، أو اكتساب معرفة إجرائية بالضغط على زر حاسوب، وبهذا تكون له الإمكانية لكي يعرف كيف يطبخ المرء طبقًا معينًا وكيف يزرع الخضر وكيف عليه أن يسلك عند اندلاع عاصفة وما هي حاجات الأطفال الصغار وكيف يقلل من ارتفاع حرارة جسده وكم عليه إعطاء ابنه ذي العشر سنوات كنقود للجيب.

زيادة على كفاءات الأنا التي ذكرنا (والتي يمكن تسميتها كذلك «وظائف الأنا») فإن لكفاءات الأنا التي سنذكر فيما يلي خاصية ضرورة ممارستها باستمرار، لكي تكون رهن إشارة الأنا كقوة خاصة به.



على كل إنسان، طبقًا لفروم[1]، «استيعاب» المعطيات الطبيعية والمجتمعية ـ الثقافية كهدف للحياة، وبالضبط في كل التجليات الخارجية الثلاثة لوجوده الإنساني: في تفكيره وإحساسه وسلوكه. وقد يحقق الإنسان هذا الاستيعاب مثلًا بأخذ ما هو بحاجة إليه («التسخير») أو أنه ينتظر إلى أن يحصل على شيء ما («استقبالي») أو أنه يجمع كل شيء ويحافظ عليه («الاختزان») أو أنه يستحوذ على الأشياء والأشخاص ويستغلهم («النرجسي») أو أنه ينفي مصالحه الخاصة ويبيع ذاته، يعني أنه يتكيف بطريقة انسياقية مع ما ينتظره منه محيطه («الموجه بطريقة تسويقية») أو أنه يُهَدِّمُ ويغالي في استعمال الموارد («النيكروفيلي») أو أنه يستعمل منتوجاته الذاتية وغير الذاتية ويحدد نفسه انطلاقًا منها («توجه الأنا مابعد حداثي»). كل هذا إذن هي إمكانيات يمكن تدبير الحياة عن طريقها دون ضرورة الاعتماد على الكفاءات الذاتية.

يمكن للمرء تحقيق قدرة الاستيعاب هذه بتنشيط قدراته الجسدية والروحية والعقلية وتطوير قُدراته الكفوءة («خصوصياته»)، يستقل بها عن كفاءات الآخرين وكفاءة المنتوجات («المصنوعة») والتقنية ويحتفظ بهذا الاستقلال بطريقة («يُنتج») بها ما هو ضروري بقُدراته الإنسانية الذاتية. وهذا ما يعنيه فروم بمصطلح «التوجه المُنتِج»[2].

للإنسان إمكانية عيش حياته بمساعدة القدرات والكفاءات الغريبة عنه أو بمساعدة قوته الذاتية. وقد تكون هذه الأخيرة عقلية، روحية أو جسدية. ومن بين القدرات الذاتية الروحية ـ الثقافية هناك مثلًا القدرة

(1) انظر: .Erich Fromm 1947a, GA II, S. 41f

(2) انظر في هذا الإطار: .Rainer Funk 1978 und 1995



على التذكر والتفكير والمعرفة الإجرائية أو الخيال. أما القدرات النفسية فهي مثلًا القدرة على الثقة، والحنان والتركيز والاهتمام بالأشياء والأشخاص والحب. وتتمثل القوة الجسدية في القدرة على التحرك أو قوة العضلات مثلًا.

في الوقت الذي تتطور فيه القوة الجسدية أساسًا عفويًّا من خلال النمو الفيزيولوجي واكتمال النمو الطبيعي للجسد، فإن إمكانيات التطور النفسي والعقلي تكون بحاجة إلى مؤثر مُنَشِّط عن طريق الحضور الفيزيقي والنفسي لشخص يرعى المرء، لكي تتطور أنشطته، يعني لكي تتمظهر كقوة ذاتية وكفاءة خاصة ولتصبح في آخر المطاف في متناول الشخص المعني بالأمر. وتتأسس الدراسات والملاحظات الجسد ـ عصبية ونظيرتها النفسية المتعلقة بالرضيع على فرضية مشتركة، قوامها أن القوى النفسية والجسدية تُظهر نشاطها الذاتي، عندما تلاحظ وتدرك وتُؤيد وتُلبى وتُعكس من طرف الأم الراعية، يعني عندما يكون بإمكان هذه الأم التعبير عن هذا من خلال ارتباط عاطفي مكرس للرضيع وحده.

لا يمكن لهذه القدرة أن تتطور إلى نشاط خلاق عندما لا تكون الصلة العاطفية للأم واهتمامها برضيعها تقوم بوظيفة مؤثر مُنشط للنشاط الذاتي لهذا الرضيع (إذا كانت الأم مثلًا تعاني من اكتئاب حاد) أو إذا تجاهلت عن قصد النشاط الذاتي لرضيعها وأعاقته وخنقته (إذا لم يكن مرغوبًا في الطفل مثلًا وتمظهر عداوة واضحة أو مقنعة اتجاهه من طرفها). ويؤثر هذا القانون الخاص لهذا التطور النفسي والعقلي بالتأكيد في السنوات الأولى من حياة الطفل أكثر منه في حياته اللاحقة. لكنه يكون صالحًا نفسيًّا ابتداءً من الولادة ويرافق المرء إلى نهاية حياته.



على الرغم من أن للقوة النفسية والعقلية الذاتية شروطًا مغايرة لشروط النمو الجسدي، فإن لهما معًا شيئًا مشتركًا: لا تكون في متناول المرء إلّا في حدود ممارستها من طرفه. ويتضح ذلك بالخصوص في قوة العضلات الجسدية. فمن كان مضطرًّا لعدم تشغيل عضلات ساقه أو ذراعه لمدة معينة إثر إصابته بكسر مثلًا، فإنه يفقد القوة الجسدية لعضلات هذا الجزء من جسمه ويكون عليه إعادة استرجاعها بصعوبة وفي غالب الأحيان بألم كبير عن طريق تحريك هذه العضلات وتمرينها.

لا يمكن للمرء اكتساب القدرات النفسية إلّا بتمرينها. ولشرح هذا الأمر نقدم بعض الأمثلة على القدرات النفسية التي تتطلب تمرينًا. فالقدرة النفسية على الحب لا تتوقف على العموم على واقعة كون المرء يُحَبُّ، لكنها تعتبر نتيجة الممارسة الشخصية للحب. فإذا اكتفى المرء بالحب عندما يُحَبُّ فقط، فإن ما يحصل هو على الأكثر إعادة سيلان ما يتوصل به المرء من حب في اتجاه الشخص الآخر: «فالحب هو في المقام الأول عطاء وليس استقبالًا»[1]. فقط عندما يقوم المرء من تلقاء نفسه بخطوة نحو الآخر و«يتطور» وجدانيًّا من خلال ذلك، ولا يُرْفَضُ في ذلك، فإنه يكون مُحبًّا وقادرًا على الحب. وإذا حدث هذا في الخيال أو بقي رغبة فقط، فلا يقوم في الغالب أي شيء.

لا تعتبر الثقة مشكلة أمن أو ضمانة ولا تتوقف كذلك على ضرورة تقديم الآخر لدليل على ثقته. ذلك أن الثقة بالآخر هي إمكانية نفسية، تصبح قدرة بتقديم المرء لأفعال ثقة ولا يسقط بسبب ذلك في خيبة الأمل دائمًا. ويعتبر الحنان كذلك قدرة ذاتية للإنسان، لا يصبح خاصية ذاتية

(1) انظر: Erich Fromm 1956a, GA IX, S. 453.



إلّا بممارسته: «من يكون حنونًا لا يطلب أيّ شيء من الآخرين»[1]. ولا يتوقف الحنان على ثياب داخلية شفافة أو على مشروب يوهم بذلك، كما توهمنا الدعاية بذلك.

لا يمكن للمرء أن يكتسب الحيوية عن طريق سيجارة مارلبورو أو حذاء الريبوك، قد تُنشط بمساعدة بعض المواد كالكافيين مثلًا، لكنها لا تقوم كقوة نفسية ذاتية مُستدامة للإنسان إلّا بممارسة النشاط الداخلي الذي تنبع منه. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن القدرة على مُعاش خاصية نفسية ما، تنمو بطريقة نتجرأ فيها بالسماح باهتمام حيوي بأشخاص أو أشياء ونشعر عن طريق هذا بحيوية ونشاط داخليين.

في كل أمثلة القوة النفسية الذاتية يكون من الممكن إعادة قدراتها مؤقتًا عن طريق مواد فعالة أو تدخل شخص ما. ذلك أن الكثير من الناس يُنَشَّطُون بالحب والحنان والنشاط أو بثقتهم في أناس آخرين ويحذون حذوهم، لكن لا ينتج عن هذا، إلّا في حالات استثنائية قليلة، قدرة قارة، يعني خاصية طِباعية قائمة بذاتها. ويتعلق الأمر في الحالات الاستثنائية في الغالب بحالات أناس يعيشون تجارب علاقة جديدة، لا يلتقون بعوائق أو لا يُرفضون ـ كما حصل لهم في السابق ـ في ثقتهم وقدرتهم على الحب، أو وكما يحدث في الحالات العلاجية يتحررون عن طريق علاقتهم العلاجية من عُقدهم وموانعهم. وعلى الرغم من هذه الأوضاع الخاصة، فإن ما هو صحيح مبدئيًا هو: لا تتحول القدرة الذاتية أو الكفاءة الخاصة إلى خاصية ذاتية أو ملك ذاتي إلّا عن طريق ممارستها.

ينطبق الشيء نفسه على القوة الذاتية الروحية والعقلية وعلى الكفاءات. ذلك أن الذي لا يُمرن ويستعمل قدرة التذكر عنده مثلًا، لكنه يكتب كل ما

---

(1) انظر: Erich Fromm 1968a, GA IV, S. 318.



يريد تذكره على ورقة أو مذكرة أو في حاسوبه، فإن عدم تذكره هذا يتطور أكثر. والأمر نفسه يحدث في الحساب البسيط. والنتيجة هي أن التمرين وحده هو الذي يحافظ على قدرة معينة من القدرات الإنسانية.

على الرغم من أن الذين يحاولون اليوم تعويض ضعف هذه القدرات عن طريق آلات حساب، فإن لخسارة قدرة عقلية أخرى نتائج وخيمة. فالذي لم يعد يمارس قدرته على التخيل، يصبح دون تخيل ويكون عليه تعويض عجزه على التخيل ونقص الصور والتمثلات الداخلية عن طريق تقنيات إنتاج التخيل أو عن طريق استهلاك الصور الخارجية الخيالية. ذلك أن التخيل هو نتيجة صور التمثل الداخلية، نتوقع من خلالها أوضاعًا واقعية معينة ونحاكيها ونكررها، دون أن نعيشها بالفعل أو دون أن نكون مضطرين لعيشها.

تحقق التخيالات أهدافًا مختلفة. يمكنها أن تستعمل للهروب من الواقع واللجوء إلى أحلام اليقظة ويمكنها أن تعوض الشريك إذا كانت تخيلات جنسية أو المساهمة في تكثيف الإشباع الجنسي، كما أنها تُمَكِّنُ من مُعاش الحرية والتصالح والخلاص، إذا كانت ذات طبيعة دينية. وقد تسمح بمُعاش التقليل من العجز وتزيد في القوة الذاتية إذا عِيشت كتهديد أو اضطهاد أو إدانة. وقد تقلل من عتبة ممارسة العنف في الواقع. وعلى الرغم من أن التخيلات لا تكون دائمًا مفيدة، بل قد تكون هدامة أو مليئة بالخيال القسري، فإنها تُمثل مبدئيًّا قُدرة إنسانية مهمة للغاية.

دون صور خيالية داخلية، لن يكون هناك فن ولا أدب ولا شعر ولا أفلام ولا علم ولا رُؤى ولا اكتشافات ولا يوطوبيات ولا أمل. ذلك أن القدرة على التخيل هي قدرة إنسانية أساسية، تشبه القدرة على التفكير وعلى وعي الذات.



يمكن أن تضيع القدرة على التخيل، عندما لا تُمارس. وكما قلنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب، فإن التصور المُقَدَّم/ المقترح بقوة يقود إلى تقلص القدرة على التخيل، ذلك أن سرعة تتابع الصور تُعيق صور الخيال، بل تُعوضها. وعلى الرغم من كل تعويض، لا تمارس القدرة على التخيل إلّا بقدر قليل جدًّا وتفقد قوتها وأرضيتها/ أساسها. وفي الوقت نفسه يزيد غياب التخيل بطريقة تصبح فيها القدرة على التخيل مُحددة وتابعة أكثر فأكثر للصور الخيالية المُقدمة.

تنتمي الصور الخيالية والخيال بالفعل وبقوة إلى حياتنا اليومية، بحيث إنه لا يمكن التفكير في أيّ حياة ولا في أيّ تنظيم بدونها. حتى وإن لم تكن هناك أية حياة خالية من الخيال، بل حياة لم يعد المرء فيها ينتج أفكاره الخاصة ـ يعني غياب أية صور خيالية ـ وبالمقارنة مع تطور العنصر البشري، لم يعد للإنسان أيّ تفكير خاص، بل يستهلك فقط ما يُعرض أمامه. لا يوجد التخيل الذاتي إذن إلّا كتخيل مُكتسب وكصور مُقتبسة من الخيالات المقترحة.

تكمن نتيجة فقدان الخيال بسبب إمكانيات مشاهدة الصور في ارتفاع الملل. فعندما لا يُمارس النشاط العقلي الداخلي الذاتي/ الخاص ويُعوض بما يُقدم للمرء من صور، فإن المرء يكون في حاجة إلى مؤثرات وتنشيط خارجية، لتجاوز الموت والملل.

مُعاش الأنا غير المُنتِج كمُعاش الأنا الاستلابي

يتميز مُعاش الأنا المابعد حداثي بتعويض الكفاءات الإنسانية بكفاءات «مُنتَجَة». لا يعي هذا الأنا ذاته بخصوصياته الجسدية والروحية والعقل ـ فكرية وقدراته على التمييز (أي وظائف الأنا) لكي يعيش ذاته



انطلاقًا من ممارسة قدرات أناه هذه، بل يقع العكس، لأنه يُدرك البضائع المُصنعة وقدراتها الداخلية، ليعيش ذاته كموجود من خلال استعمالها. أيمكن اعتبار مُعاش هذا الأنا لهذا السبب طريقة عيش سالبة وغير مُنتجة؟

لنتمكن من الإجابة عن هذا السؤال، علينا أن نعود من جديد إلى توجه الطبع السلطوي قصد مقارنته باستيلاب الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي[1].

ديناميكية الاستلاب للتوجه السلطوي

كيف يتمثل الأنا السلطوي ذاته وأين يكمن استلاب مُعاشه؟ يتحدث المرء عن «التوجه السلطوي للطبع»، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، عندما تكون العلاقة بالآخرين وبالذات وبالطبيعة وبالعمل (الشغل) مطبوعة بالتحكم والخضوع؛ لكن يكون المتحكم/ المسيطر والمُتحكَّم فيه خاضعين لبعضهما البعض. تتأسس البِنية السلطوية سيكولوجيًّا بطريقة يتخلص فيها الخاضع تحت ضغط المسيطر عن كل القوى التي تُمكِّنه من العيش كفْؤًا وبمعرفة وقوة واستقلال وحرية ويعكسها على من يُسيطر عليه. يخضع إذن له لكي يشاركه في تبعيته له في القوة التي عكسها عليه ويكون له فيها نصيب.

ما يهم مُمَارس السلطة في المقام الأول هو حرية الخاضع له واستقلاله وقدرته الذاتية على فرض ذاته بطريقة عدوانية وكفاءاته وقوة أناه. عليه إذن نفي كفاءة أناه هذه وعكسها على ممارس السلطة عليه، بطريقة يشعر فيها هذا الأخير بأنه كفؤ، في الوقت الذي يشعر فيه الخاضع له بأنه

(1) انظر في هذا الإطار كذلك:. Rainer Funk, 2003, S. 22-27



ضعيف ودون قيمة وحيلة، بل لا يعيش أناه البتة، إلّا إذا قبل خضوعه لصاحب السلطة ويعيش في خضوع وتبعية مُعاش أنا سيده، يعني معرفته ونعمته وقوته وتفوقه. من طبيعة الحال يكون ممارس السلطة تابعًا أيضًا للخاضع، ولا يمكنه أن يشعر بتفوقه إلّا بوجوده، وينتمي هذا الأمر إلى طبيعة علاقة التبعية المتبادلة ذاتها. كل ما في الأمر هو أنه يعكس عجزه وضعفه على الخاضع له ويجعل منه حاملًا لمُعاشات ضعف أناه، وهي مُعاشات لا يقبلها صاحب السلطة في ذاته.

إذن يُسلب الخاضع بسبب ضغط المُسيطر من قواه الذاتية، لكنه يلتقي بها من جديد عندما يعترف بها كقوى ذاتية للسلطة التي تتحكم فيه ويخضع لها. وتعتبر هذه الأخيرة في نظره قوية وحكيمة ورفيعة وحامية له ومُحسنة ورؤوفة إلخ. فعن طريق عكس القوى الذاتية يُنْتِج مُعاش الأنا التوجه السلطوي، لكنه يكبت هذا الأمر ويبقى مكبوتًا في وعيه طالما أنه يبقى على اتصال مع قواه الذاتية هذه بطريقة ثانوية بمساعدة الشعور بالتكافل بين الاثنين.

عندما تصبح علاقة التبعية في خطر جدي من الناحية الانفعالية، فإن نوعًا من انهيار التعويض يطفو على السطح ويُدرك بألم قوي سلب الأنا من قواه، وهي قوى لم تُعَشْ في غالب الأحيان إلّا في الأحلام وأشكال عرضية. ويكون مُعاش الأنا في هذه الحالة مصحوبًا بمشاعر الضعف وعقدة النقص والهجر والعجز والوحدة والشعور بالعار والخطأ. وتظهر العلاقة بممارس السلطة ليس في شكل مثالي واع وشكر، بل في غالب الأحيان عن طريق الخوف من ممارس السلطة هذه أو عن طريق التمرد في وجهه. وطبقًا للكيفية التي يكون فيها السلطوي قويًّا، فإن سلطة جديدة

تقوم، لكي تعيد فرض علاقة التبعية المتبادلة من جديد أو تقوم «مقاومة دون رجعة» ضد السلطوي وما يرافق هذا من معاداة للسلطة القائمة.

ديناميكية الاستلاب لتوجه السوق

من أجل فهم الفرق بطريقة جيدة بين المُعاش السلطوي للأنا ومُعاش الأنا المابعد حداثي، لابد في البدء من إظهار مُعاش الأنا الموجه توجيهًا تسويقيًا[(1)(*)].

يركز المرء نظره دائمًا على مظهر البضاعة، سواء تعلق الأمر بالأنا الشخصي (das» Ego») أو بشيء أو خدمة. وفي هذه الحالة يكون للتعليب وللمظهر والصورة ولتأثير العرض والترويج والطريقة الديداكتية للعرض والأداء وتقديم المنتوج، الأسبقية. ولا تكون إشكالية ما يعمله المرء أو يقوم به أو ما هي الكفاءات التي يتمتع بها ولا ما إذا كان أصيلًا وكيف يعيش ذاته إلّا ثانوية. ما يكون حاسمًا هو الكيفية التي يبيع بها المرء عمله وبضاعته المعلبة بطريقة جيدة وشخصيته المبالغ في تجميلها وصورة وعيه بذاته والرسالة التي يود تمريرها.

لا تتطلب سلطة التسويق المشاعر الحقيقية للإنسان ولا تفكيره ولا إرادته ولا المُعاش الأصيل لأناه ولا حاجياته الحقيقية ولا ما يُشكِّل أشواقه. على العكس من هذا تعتبر كل هذه الأشياء عقبة في تكيف الإنسان ومرونته وعدم تقيده وتحركه وأن يكون دائمًا في مزاج جيد

(1) انظر فيما يخص توجيه السوق: Erich Fromm 1947a, GA II, S. 47-56. والمرجع نفسه 1976a, GA II وكذا 266-1991e (1953), GA XI, S. 211 وبالخصوص ص ـ 364 378 وبالأخص الجزء الأول، ص 27 ـ 31، حيث شرح «السوق الموجه نحو البضاعة».

(*) من السوق.



ويمكنه تقمص كل الأدوار والشخصيات، التي يتطلبها السوق. ويُسلبُ الإنسان هنا كذلك من قواه الإنسانية.

لا تعتبر ديناميكية استلاب توجه السوق مغايرة مبدئيًّا عن نظيرتها السلطوية. ذلك أن الإنسان يُسلب في توجه السوق من قواه الإنسانية الذاتية عن طريق الإسقاط. وتُظهر الدعاية/ الإشهار هذا الإسقاط بما فيه الكفاية من وضوح. ذلك أن ما يُشهر ليس هو المنتوج، لكن ما يُسقط على هذا الأخير من قدرات إنسانية.

لكن هناك فرقًا حاسمًا وذا نتائج مهمة بين استلاب التوجهين: ففي الاستلاب السلطوي، تُسقط القوى الذاتية على إنسان آخر، وتكون النتيجة هي تبعية تكافلية متبادلة بينهما. ولا نجد لحظة هذه الصلة القوية مع أناس آخرين (ومع الذات) في الاستلاب المحدد بطريقة السوق ومُثله، بل ليست هناك أيّ صلة لا بالآخرين ولا بالذات. يتجنب المرء هذه الصلة بطريقة فُصامية، بحيث إن نوعًا فقط من هذه الصلة يبقى، يمكن أن نطلق عليه اسم: «كأنها صلة»، يعني علاقة سطحية أو علاقة عمل مع الآخرين ومع الذات، وهي علاقة تقدم في بعض الأحيان انفصالًا فعليًّا. وعلى الرغم من ذلك فإن المرء يبني «علاقة عاطفية» مع منتوجات تناسب السوق (بما في ذلك الأنا والأنا المناسب للسوق)، وهي علاقة لا تكون تكافلية ولا تآمرية، لكن تكون لها خاصية اختيار الجودة فيما يتعلق بالبضائع. وتقدم هذه التبعية الخيارية «ميزة» كل أشكال التبعية الأخرى، يعني كل ما يُعاش كمُهم ومُشبع ومُرض بامتلاك المنتوج واستعماله.

إن هدف إسقاط القوى الإنسانية الذاتية ليس هو إنسان آخر، بل إن هدفه هو المنتوج الشخصي/ الذاتي: بضائع، خدمات، أفكار، فن،



شخصية، الأنا الشخصي. وعلى الرغم من أن منتوجات الإنسان مصنوعة من طرفه، لكنها تكون حاملة في معاش أناه قواه الإنسانية الذاتية. ففي توجه السوق القوي، لا يكون الإنسان دون «امتلاك» (الاستهلاك والاستعمال) للمنتوجات ولأناه أيّ شيء ولا تكون هذه المنتوجات (بما في ذاك أناه) شيئًا دون إسقاطها على القوى الذاتية لأشخاص آخرين. وقد شرح إيريك فروم ديناميكية هذا الاستلاب لتوجه السوق باستفاضة في كتابه «الامتلاك أو الوجود»[1].

يشتغل «التفاف» مُعاش الأنا على امتلاك المنتوجات جيدًا، طالما حُدد الإنسان من طرف الامتلاك. لكن في الأماكن التي يتعلق الأمر فيها بتجارب علائقية/ علاقات أو بالصفات الشخصية، يعني عندما لا يتعلق الأمر بامتلاك الأطفال مثلًا أو الشريك/ الشريكة أو التلاميذ أو صورة جيدة عن الذات أو الحق أو الحقيقة أو كفاءات معينة إلخ، فإن خطر ضياع خصوصيات الإسقاط يُصرِّح عن نفسه، وهو ضياع يقود إلى انهيار التعويض، حيث يتمظهر ما كان مُعاش الأنا يكبته: إذا لم ينجح تحديد امتلاك منتوج ما تُوعَز له خاصيات إنسانية أو شخصية مُصطنعة، ويتمظهر مُعاش الأنا المسلوب والصلة بالآخرين في فراغ داخلي وفي ملل قاتل وفي الغياب التام للحيوية وفي اكتئاب خال من كل إحساس أو في سلوك التبعية لمخدر ما وفي ارتفاع الاستهلاك عمومًا. ذلك أن بُنية الإدمان تُصبح واضحة، لأن كل ما يهم المعني بالأمر هو ما يُبلع من طرف الإنسان وما يُمكنه امتلاكه وليس ما يمكن أن يُقدمه من ذاته ومن قُدراته الإنسانية (يعني ما يمكنه «إنتاجه») من خلال ذاته.

(1) انظر في هذا الإطار: Erich Fromm 1976, GA II.



تسمح ديناميكية الاستلاب التي تطرقنا إليها فيما سبق ذكره عند التوجه السلطوي وتوجه السوق بالتعرف على نوع آخر من الإنتاجية: تتمثل هذه الأخيرة عند التوجه السلطوي بالانجذاب نحو السيطرة والخضوع وبتبعية متبادلة للطرفين لبعضهما البعض على حساب إمكانية العيش انطلاقًا من الإمكانيات الذاتية بحرية واستقلال. على العكس من هذا فإن الموجه من طرف السوق يكون مدفوعًا بالرغبة في أن يكون بإمكانه بيع نفسه، وهو ما يقود إلى تبعية مدمنة للمنتوجات وللأنا الذاتي/ الشخصي.

ديناميكية الاستلاب عند الأنا المُوجه

كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تقوم كفاءات «مُنتجة» عوض كفاءات إنسانية عند مُعاش الأنا للإنسان المابعد حداثي. فعوض أن يَعِيَ هذا الأنا قواه الجسمية والعقلية والنفسية الذاتية في كفاءته للتمييز بين الأشياء (وظائف الأنا)، فإنه يعي مهارات المنتوجات التي صنعها بيده، لكي يعيش ذاته عن طريق استعمالها كموجود، يعني كأنا. وبما أن مثل هذا الأنا مدفوع بسحر إنتاج الواقع دون الأخذ بعين الاعتبار لما سبق وما هو موجود وعيش الأنا الذاتي بطريقة جديدة تمامًا، فإن الكفاءات الخاصة بالأنا الشخصي تستمر في الضياع أكثر فأكثر[1].

في الوقت الذي يُسقط فيه كل من التوجه السلطوي وكذا توجه السوق قواهما الإنسانية الذاتية وكفاءات أناهما على مُمارس السلطة أو على المنتوجات الإنسانية، حتى تصبح هذه الأخيرة حاملة الكفاءات الذاتية

---

(1) انظر في هذا الإطار:.Erich Fromm 1947a, GA II, S. 47-56 وكذا المرجع نفسه S. 364-وبالخصوص 1976a, GA II.وكذا، 266-1991e (1953), GA XI, s. 211. 378 وكذا ما قيل عن «الإنتاج الموجه بطريقة التسويق» في الجزء الأول ص. 37-42.

لهما؛ ولأيّ قوى يُحاول المرء إعادة اكتسابها عن طريق التبعية لمُعاشات الأنا السالب[*]، فإن ما يهم الأنا الموجه هو بالضبط تجنب كل تبعية. من هذه الزاوية، فإن ما يميز بالخصوص طبع إنسان الأنا الموجه هو الرغبة الملحة والشغوفة في تجنب كل تبعية لإنتاج واقع محدد انطلاقًا من ذاته/ ذاتها أو استعمال الواقع المصنوع بطريقة يقررها هو ذاته. ولهذا السبب بالضبط يُسمى «الأنا الموجه».

تُمثل مُحاولة المابعد حداثة عيش الأنا بطريقة محددة ذاتيًّا بديلًا إذن، لأن المرء يتجنب عيش التبعية لحاملي الإسقاط. ذلك أن الأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي يراهن على استعمال مهارات المنتوجات المصنعة من طرف الإنسان. لكن لا تعطي هذه الأخيرة أيّ مؤشر على العلاقة/ الصلة بالكفاءات الخاصة لهذا الأنا مع ذاته، بل توضح مهارتها في البقاء مستقلة عن القوى السالبة[**]. والنتيجة هي أن الأنا الموجه يعيش ذاته حرًّا ومستقلًّا. وما يشجع أكثر على ذلك هو أن وسائل الإعلام والتقنية الرقمية تُمكن من الوصول إلى مثل هذه الكفاءات، التي لم يكن الإنسان يحلم بها من قبل والتي توهم الإنسان المابعد حداثي بأنه عظيم وكفؤ، بالمقارنة مع كل الأجيال التي سبقته.

على الرغم من ذلك، فإن هناك سؤالًا يطرح نفسه بإلحاح: ماذا يعمل الأنا الموجه مابعد حداثي بكفاءاته الذاتية الإنسانية عندما يفضل أناه عن طريق استعمال الكفاءات «المُنتجة/ المُصنعة»؟ ألا يُستلب/ يُصبح غريبًا هو الآخر أيضًا عن كفاءاته الإنسانية؟

(*) من الاستلاب.

(**) من الاستلاب.



ينفي الأنا الموجه توجهًا مابعد حداثي قُدراته الإنسانية ويعكسها على قدرات الأشياء التي صنعها بطريقة يُوصل بها («يُقحم فيها») ويكون فعَّالًا، دون أن يعيش هذه القوة كقوته الذاتية. في الواقع يكون في الأصل قوته الذاتية، لكنه يصبح تابعًا للقوة المُصنعة في مُعاشه. وحتى وإن كانت قُدراته الإنسانية، طبقًا لهذا، قد أصبحت ضعيفة، فإنه مع ذلك يكون باستعماله للقدرات «المصنوعة» قادرًا على المراقبة والتحكم، بإنتاجه بمساعدة طُرق وتقنيات ومهارات التأثير والسيطرة («التسيير/ الإدارة») لأناه وواقع محدد ذاتيًّا.

توجه الأنا والتقمص الانعكاسي

من الناحية التحليل نفسية، فإن الأنا الموجه لا يستغل الإسقاط، لكن ما يسمى «التقمص الإسقاطي projektive Identifikation». وهذا الميكانيزم الدفاعي النفسي معروف في تجربة العلاقات العلاجية النفسية، ودُرس بما فيه الكفاية في هذا الميدان[1]. ولكي يُفهم بطريقة صحيحة سنحاول ولو في عُجالة أن نُعَرِّجَ على مُعاش الأنا عند شخصين، تُحدد علاقة واحد منهما بالإسقاط وعند الآخر بالتقمص الانعكاسي.

التقمص الانعكاسي في العلاج النفسي

عندما يُظهر مثلًا شخص ما عدوانًا على شخص آخر، فإن من يُمارَس عليه هذا العدوان يعيشه بإحساس مُرتاح، يعني دون عدوان مُضاد ولا انفعالات، في الوقت الذي يعيش فيه المُعتدي، يعني موضوع الانعكاس،

(1) انظر على الخصوص: M.Klein 1946, p: Heimann 1950 und 1960, W. Bion. 1959, D. V. Carpy 1989 وباختصار H. Thomä und H. Kächele 1988, Band II, ص. 141-155.



المُعتدى عليه كعنيف. ذلك أن أنا المُعنّف يعي نفسه كغير عنيف، لكنه يعتبر المُعَنَّفَ كعنيف. ما هو وعي الذات الذي عند الآخر؟ يكف عمومًا على عيش ذاته كعدواني، لكنه لا يشعر بنفسه هكذا. إن مُعاش الاثنين مغايران تمامًا في الواقع ويمكن التمييز بينهما بطريقة واضحة، حتى وإن كان من الصعب إيجاد قاسم مشترك بينهما (وهذا ما يقود في الغالب إلى تبادل اللوم وتحميل المسؤولية للآخر دون نهاية).

يكون الأمر مغايرًا تمامًا إذا كانت العلاقة محكومة بتحديد انعكاسي. إذا أخذنا المثال نفسه، فإننا نجد بأن مُعاش أنا العَاكِس يكون خاليًا من كل عدوان، بل تكون مثل هذه المشاعر العدائية غريبة عنه. أما الشخص موضوع الانعكاس، فإنه يشعر بأن المرء دفعه لكي يكون عُدوانيًّا، حتى وإن كان لا يفهم لماذا تكون له علاقة بمِخيال العدوانية ومشاعرها. يعيش هو كذلك عدوانيته كشيء غريب عنه ومُضَلِّل لطريقه. لا يعرف في العمق كيف عليه التصرف اتجاه هذه العدوانية «المُنتَجَة».

إن الطريقة التي يتصرف بها المعالج النفسي مع هذا الإسقاط تكون حاسمة بالنسبة للمُعالَج. فإذا ركز المرء النظر في هذا الوضع بالضبط على مُعاش الأنا الذي تنطلق العدوانية منه، فلا يلاحظ المرء نفيًا للعدوان الشخصي فقط، لكن اهتمام عالي المستوى للكيفية التي يتعامل ذاك الذي تُسقط العدوانية عليه مع ذاك الذي قام بإسقاطها عليه: ما إذا كان باستطاعته التحكم فيها أو يحاول إخفاءها أو يعيشها كهدم (في حالة ما أنهى جلسات العلاج مع المُعالَج) أو ما إذا كان بإمكانه شرحها.

تلعب مثل هذه التشخصات الإسقاطية في العلاقات العلاجية دورًا كبيرًا غالبًا في الأجزاء الذاتية المعاشة بطريقة هدامة. فعندما يحمل



المُعالِج على عاتقه «مخطط واقع المعالَج»[1] ويُعطي للإسقاط «فضاء سيكولوجيًّا»، فإنه يسمح بهذا للمعالَج ملاحظة كيف يتعامل مع الجانب الذاتي، الذي يعيشه في غالب الأحيان كخطر، وما إذا كان يخاف من نفسه بالطريقة نفسها أو بإمكانه أن يخلع عليه رداء الشيطنة. فإذا نجح المعالِج في إيصال المعالَج إلى النتيجة التالية، فإنه يعيش الوضعية المهددة بالنسبة للاثنين بالقليل من الخطر وينجح بهذا في إعادة استدماج Re-Introjektion المعالَج.

يتمثل اهتمام المعالَج بهذا النوع من الإسقاط في تمرير ما لا يمكنه تحمله إلى المُعالِج في حصة العلاج النفسي معه لكي يتمكن من مراقبة كيف سيتعامل المعالِج مع الأمر. وتعتبر لحظة المراقبة هذه أساسية عند المعالَج، لأنها تسمح له بالشعور بأنه يتحكم في الوضعية ويلاحظ كيف يقاوم المعالِج الإسقاط الذي كان موضوعًا له من طرف المعالَج. وبهذه الطريقة لا يعيش أنا المعالَج ذاته كمهدد بطريقة سلبية، لكنه يكون مراقبًا نشيطًا، ويحدث ما يسمى عادة في الحصص العلاجية بـ «تبادل الأدوار»[2]. ولا يمكن أن يتم تطور إيجابي في العملية العلاجية إلا إذا ترك المعالِج نفسه تحت مراقبة المعالَج، يعني بأنه يُعطي معرفة لطريقة تعامله مع العاكِس/ المعالج.

إذا لم ينجح المعالِج في التعامل الجيد مع ما يعتبر تهديدًا بالنسبة للمعالَج، فإن تواطؤًا Kollusion بين الاثنين يحدث، تكون له أشواط التواطؤ نفسها الذي وصفناه بين المُقترح Anbieter والمستهلك Nutzer في توجه الأنا المابعد حداثي. أما إذا حدث العكس، فإن المعالَج يُشجع

(1) انظر: Th. Gilomore und J. Kranz 2003, S. 55.

(2) انظر: P. Heimann 1966, S. 257.



على البحث عن هذا العكس في ذاته والسماح له بالمرور إلى وعيه وإدماجه: «توجد هذه المعرفة الذاتية أمام إعادة إدماجها. فطالما أن المرء يبقى غريبًا عن أجزائه الذاتية Selbstanteile، فإنه لا يكون بإمكان هذه الأخيرة أن تُقبل وتُسجل»[1].

يُلاحظ التقمص الانعكاسي projektive Identifikation في ميدان العلاج بالخصوص في الأبعاد الذاتية Selbstaspekte المُعاشة بطريقة سلبية ويمكن استغلاله بطريقة جيدة في عملية العلاج. فقد أصبحت أهميته خارج نطاق الشك، ليس فقط في امتلاك الأبعاد الذاتية الإيجابية في عملية التطور النفسي[2]. فقد وصف المرء التقمص الانعكاسي عامة كطريقة تواصل Kommunikationsmodus[3]، معمول بها في ميادين تفاعل أكثر تعقيدًا بما في ذلك ميدان التنظيم: «إن التقمص الانعكاسي، حتى وإن كان بالإمكان أن يقود إلى أوضاع درامية، هو جزء مهم في العلاقات الاجتماعية اليومية»[4].

مُعاش الأنا المُستلب والتقمص الانعكاسي

توضح أهمية التقمص الانعكاسي في العلاقة العلاجية بأنه بالإمكان فهم مُعاش أنا الأنا الموجه مابعد حداثي طريقة معقولة. ليس هناك في الظاهر إلّا اختلاف صغير: يتعلق الأمر دائمًا في الميدان العلاجي بتفاعل بين شخصين اثنين أو أكثر، في الوقت الذي يتعلق الأمر فيه في مُعاش أنا الأنا الموجه مابعد حداثي بالعلاقة بين قُدُراته الإنسانية والقدرات

(1) انظر: H. Thomä und H. Kächele 1988, Band II, S. 155.

(2) انظر: N. G. Hamilton 1986.

(3) انظر: T. H. Ogden 1982.

(4) انظر: Th. Gilmore und J. Kranz 2003, S. 56.



«المصنوعة». لكن لا يتناقض هذا الاختلاف وأهمية التقمص الانعكاسي، لأن الأمر يتعلق في التفاعل بين القدرات الإنسانية ونظيرتها «المصنعة» بتفاعل عام لاواعٍ؛ وهو تفاعل يُعاش اليوم كمفروغ منه ومطابق للواقع بفعل الإخراج المصنع للواقع الاقتصادي والدعائي/ الإشهاري.

ما يقع نفسيًّا عندما تُعوض القُدرات الإنسانية بنظيرتها «المصنعة»، يتضح كعملية للتقمص الانعكاسي. وفقط عندما نفهم نفسيًّا ما يقع داخل الإنسان نتيجة هذا النوع من التقمص، يمكن تطوير استراتيجيات للكيفية التي يمكن التحكم بها في عدم إنتاجية توجه الأنا المابعد حداثي.

بما أن إنسان اليوم يُواجه في كل خطوة من مُعاشه اليومي واقعة كون قواه الذاتية وكفاءات أناه مُعاقة ومُخْجِلة بالنظر إلى القدرات «المصنوعة» الفعالة أكثر، فإنه ينفي قدراته الإنسانية ويعكسها على الأشياء، التي تكون أقدر بالفعل منه وعن المهارات والتقنيات المصنوعة من طرف الإنسان. إذن يتخلى الإنسان على مهاراته ويركز على معرفة كيف يمكن للآلات وللبرمجيات وميكانيزمات التحكم وتقنيات الإخراج وبرامج العناية بالزبائن وتدريب تنمية الشخصية إلخ أن تنتج الواقع وتشكله له.

إن هذه المقارنة بالمعالَج في المثال الذي اخترناه سابقًا من شأنه أن يوضح هذه العملية الخاصة للانعكاس: يجذب المعالَج العدوانية التي ينفيها في ذاته اتجاه المعالِج. يتقمص هذا الأخير هذه العدوانية ويُعطيها فضاء، يسمح له التعامل معها وتفرض عليه رد فعل منه عليها. بهذه الطريقة يدفع المعالَج المعالِج لكي يصبح عدوانيًّا، دون أن يشعر(*) بنفسه كعدواني أو أن يُظهر عدوانيته.

(*) أي المعالَج.



بالطريقة نفسها يعكس الأنا الموجه مابعد حداثي قُدُراته الإنسانية القابعة فيه على المنتوجات المصنعة ومهاراتها. فباستعمال مهارات المنتوجات التي يصنعها، فإنه يقود هذه الأخيرة لأن تكون خلاقة وتَخْلِقُ الواقع، وكأن خلقها هذا لا علاقة له بقُدراته الإنسانية. إنه يُصعِّدُ هذه الأخيرة على القدرات «المصنوعة» وبهذه الطريقة يمكنه كملاحظ ومشترك ومستهلك وفاعل أن يعيش ما باستطاعة القدرات «المصنوعة» القيام به.

يحدث تبادل الأدوار عن طريق استعمال التقمص الإسقاطي: ما يهم الأنا الموجه ليس هو العثور على قدراته الإنسانية في القدرات «المصنوعة» من جديد أو الدخول في علاقة مع قدراته الإنسانية عن طريق هذه القدرات «المصنوعة». على العكس من هذا، فإن هدفه يكون هو الابتعاد الكلي والنهائي عن كفاءات أناه وقدراته الذاتية. وبهذه الطريقة ينجح في إعطاء قدراته الشخصية «فضاء نفسيًّا» في القدرات «المصنوعة». وفي هذا الإطار يربط هانس يوأخيم بوش[1] ما استنتجته يوليا كريستيفا Julia Kristeva وما أصبح واضحًا في ممارسة التحليل النفسية، ويتعلق الأمر بـ «ضياع الفضاء النفسي «Verlust des psychicschen Raumes» بـ«نقل الأنشطة النفسية إلى الفضاء الافتراضي» فعن طريق الإسقاط يقوم المرء بنقل كفاءات الأنا إلى القدرات «المصنعة» ويتحرر منها.

بما أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش على الدوام دون أن يشعر بنفسه ككفؤ وفاعل وله قدرات، فإن خطر التبعية لحامل إسقاطه، يعني القدرات «المصنوعة»، يكون واردًا. وخطر التبعية هذا، الذي يخضع له السلطوي

(1) Hans-Joachim Busch 2002، ص. 7



عن طريق خضوعه والموجه توجه السوق، عن طريق توجهه الامتلاكي المدمن، هو بالضبط ما يحاول الأنا الموجه بمساعدة التقمص الإسقاطي استباقه، بتحكمه في زمام الأمور بإسقاطه. فحتى وإن لم تعد له أية صلة بقدراته الذاتية، فإن كل تركيزه يكون منصبًّا بقوة على مراقبة القدرات «المصنوعة».

ينصب كل اهتمامه إذن على «تعليمات الاستعمال»: ما يمكن لمعجزة التقنية القيام به ومنحه للمرء وطريقة استعمالها لكي تقدم كل ما يمكنها القيام به. ولكي لا يصبح غير نشيط بسبب تبعيته «للمنتوج الصناعي»، فإنه يراقب بنشاط كيف يشتغل هذا المنتوج.

إذن ليست القدرات الإنسانية هي التي تُنتج شيئًا ما وتكون خلاقة، بل القدرات «المصنعة». لكن تبقى هذه الأخيرة مراقبة من طرف فرض إرادة Willensetzung ومعرفة الأنا المابعد حداثي: ذلك أنه يبني ويُنتج أناه الخاص وواقعًا محددًا ذاتيًّا عن طريق تغيير الأدوار هذا. ويعيش أناه الواعي الذاتي ككفؤ، بحيث يبقى مستقلًّا عن كفاءات أناه وقواه الذاتية وعلى الرغم من ذلك لا يصبح تابعًا للقدرات «المُنتجة».

يعيش الأنا الموجه عن وعي تام كونه هُوَ هُوَ: أنا أنا، طالما أن الأنا ليس قُدرة لها علاقة بي ولا بما قد يفرضه عليَّ الآخرون وطالما أنه يقود إلى إنتاج الواقع. إن ما يحدد الأنا الموجه هو بالفعل وقبل كل شيء الإنتاج الذاتي للواقع، يعني إنتاجية لا تترك نفسها تُحدد ولا يُسيطر عليها من طرف قيود القوى الذاتية للإنسان، لكن في إنتاجه للواقع يعيش هذا الأنا ذاته كمستقل وعفوي.

يمكن المعالَج الذي استغل المعالِج عن طريق التقمص الإسقاطي



ونفى عدوانيته، لكنه اختبرها بملاحظته للكيفية التي تعامل بها المعالِج مع هذه العدوانية، فهم عدوانيته: ذلك أن هذا الأخير لا يعي قدراته الخاصة في ذاته، لكنه يركز على الواقع المُنتَج والمُنتِج للقدرات «المُصنعة».

تمامًا كالموجه سلطويًّا والموجه نحو السوق، فإن توجه الأنا المابعد حداثي يعيش في استلاب من كفاءاته الإنسانية. بالمقارنة بالموجه سلطويًّا، فإن هذا الأنا يتميز بإقصائه لكل تبعية مُعاشة عن وعي لموضوع إسقاطه قطعيًّا. ذلك أن نفي قدراته الإنسانية وكذا نفي الإسقاط (يعني نفي واقعة كون القدرات «المُنْتَجة» لا تكون لها أية علاقة بالقدرات الإنسانية، لكنها تعوضها) هو شرط حياة مستقلة ومحددة ذاتيًّا وخلاقة، بالقدر نفسه الذي يعتبر شرط مُعاش الأنا.

إن هذا التأمل التحليل النفسي الذي يتأسس على استعمال مُعاش الأنا لقواه الذاتية وكفاءات أناه، يقود في الحقيقة إلى القول بأنه بإمكان الأنا الموجه أن يقول عن نفسه: «إنني لست أنا، لأنني لا أوجد إلّا كبناء/كشكل»، ولا يعتبر هذا إلّا تعبيرًا عن فكر مستلب لهذا الأنا، وهو فكر لا يتجرأ على أن يكون راشدًا، محددًا لذاته بذاته. سنحاول أن نجيب عن إشكالية أيّ نوع من مُعاش الأنا يمكن إعطاؤه الأولوية، ذاك الذي يتأسس على استعمال الكفاءات الإنسانية أو نظيره الذي يستعمل الكفاءات «المنتجة»، آخذين بعين الاعتبار المعاش اللاواعي.

لاوعي الاستلاب للأنا الموجه

إن مُعاش أنا الأنا الموجه هو في الحقيقة معاش مستلب، لأنه يحدد ذاته انطلاقًا من الكفاءات «المصنوعة» عوض تحديدها انطلاقًا من الكفاءات الإنسانية، وبهذا فإنه غير واعٍ، بالطريقة نفسها التي يكون فيها المعالَج



المُشار إليه سابقًا غير واع بكون العدوانية التي يقاوم المعالِج ضدها هي في الحقيقة عدوانيته. أكثر من هذا، فإن الأنا الموجه سيجادل بقوة بأنه يُعوض قدراته الإنسانية بالقدرات «المصنعة». ذلك أنه يعتقد بأن قدراته الإنسانية لا تشتغل إلّا بالاستعمال الحر والمحدد ذاتيًّا للكفاءات التقنية. وكَوْن معاش الأنا يحدد ذاته انطلاقًا من قدراته الإنسانية لا يعدو أن يكون في نظره نمطية الحداثة وما قبل الحداثة، التي ما تزال تفكر انطلاقًا من أصناف القوانين الإنسانية الخاصة والقوى الجوهرية. أما بالنسبة للفكر المابعد حداثي، فإن ما يميز معاش الأنا المستقل والعفوي والمحدد ذاتيًّا هو استقلاله الكامل عن مثل هذه المعطيات الموغلة في الذاتية.

لاوعي التبعية

من الناحية التحليل نفسية لا ينفي قدراته الإنسانية فقط، ولا كون مُعاش أناه ناتج في المقام الأول من ممارسة الكفاءات الإنسانية، بل إنه ينفي كذلك بأنه يتشخص بطريقة إسقاطية مع القدرات «المصنوعة». ويتمثل هدف التشخص الإسقاطي في عدم التبعية، تحت أية ذريعة كانت، لموضوع الإسقاط. تُرتب الأشياء إذن بطريقة تبقى فيها القدرة «المصنوعة» حاملة للإبداع، لكن تفعيلها واستعمالها يبقى تحت سيطرة وتحديد الذاتي المستقل لمن يقوم بالإسقاط، بطريقة يبقى فيها مراقبًا للأمور.

إذا رجعنا إلى المثال الذي انطلقنا منه سابقًا، فإن المعالَج لا يعرف بأن للمُعاش العدواني للمعالِج علاقة بعدوانيته الذاتية التي ينفيها، وليس على وعي بأنه يتحكم في المعاش العدواني للمعالِج. يعيش المعالِج العدوانية عوضًا عن المعالَج، في الوقت الذي لا يكون فيه هذا الأخير على وعي

إلّا بكونه لا علاقة له مع عدوانية المعالِج، ولهذا السبب لا يشعر بأنه تابع له. على العكس من هذا، فإنه سيرفض بطريقة قاطعة بأنه تابع للمعالِج وجوديًّا. فقد يفضل إيقاف العلاج على الشعور بهذه التبعية ومواجهتها، ولهذا السبب هناك بعض المعالَجين لا يحضرون حصة العلاج السابقة على عطلة ما، لكي لا يضيعون المراقبة من بين أيديهم.

يعتبر لاوعي التقمص الانعكاسي المتعلق بالقدرات «المصنوعة» والتبعية الوجودية للأنا الموجه للكفاءات «المصنوعة»، الناتجة عن هذا التقمص الانعكاسي، النقطة الحساسة بالنسبة لهذا الأنا. وكل محاولة للدفع به لوعي هذا الأمر تصطدم بدفاع قوي من جانبه.

لابد هنا من التذكير من جديد بأن توجه الأنا المابعد حداثي يكون دائمًا في حالة نشيطة وأخرى خاملة/ سلبية كفاعل ومستهلك، صانع المُعاشات ومستهلكها، وغالبًا ما يكون تعيينها صداميًّا. ذلك أن التواطؤ Kollusion بين الذي يُنتج الواقع بتحديد ذاتي والذي يغطس فيه بمحض إرادته، يعني في الواقع تبعية متبادلة لبعضهما البعض، لكن لا يكونان على وعي بذلك على العموم، بل لا يريدان وعي هذا الأمر. وغالبًا ما تقصى هذه التبعية من الوعي ويحاول المرء عقلنتها.

سوف لن نتطرق إلى كون المرء لم يعد قادرًا على العيش دون هاتف نقال أو استعمال الإنترنيت. نشير فقط بأن عيني المرء لا تفارق مثل هذه الأدوات لـ «يتواصل»، كما يسمي المابعد حداثي ذلك، ويبحث عما يمكنه ربحه باستعمالها، والبحث عن إمكانيات التعرف على أناس آخرين، وما يمكنه الاستفادة منه باستعمالها، والبحث عن الأرخص مما يود اقتناءه والشعور بالحرية في كل هذا. الشيء نفسه يقوم به المنتِج



النشيط للواقع بطريقته: عوض الاعتراف لنفسه وللآخرين بالمشاكل التي يوجد فيها عندما تنبض أفكاره في الإخراج الذاتي ويشعر بأن الناس يبتعدون عنه، فإنه يعوض عن مثل هذه الخسارة وهذا الإخفاق بتقديم نفسه كأصيل أكثر ويتعلم تقنيات قد تساعده على الظهور بكاريزما أكثر.

لاوعي الاستلاب

قادنا تحليلنا إلى حد الآن إلى التأكيد بأن الأنا الموجه مسلوب من قدراته الإنسانية وبأنه في هذا الاستلاب غير واع لا بكون مُعاش الأنا تابعًا لكفاءات الأنا ولا بتبعيته للقدرات «المصنوعة»، وهي تبعية ناتجة عن التقمص الإسقاطي. ما يحدث دائمًا تقريبًا في ظاهرة الاستلاب هو أن المعنيين بالأمر لا يكونون واعين بتوجه طباعهم وكذا بعدم إنتاجيتهم. وهذا الأمر هو الذي يعقد الأمور جدًّا في وجه توجه الأنا لوعي عدم إنتاجيتهم وتوجه أناهم وكذا استلابهم.

يسمح الرجوع إلى التوجه السلطوي بالدخول إلى الاستلاب، لأن أغلبية الناس واعون باستلاب هذا التوجه. ولو أن المرء قام بهذا التأكيد قبل مئة سنة، لاصطدم بعدم الفهم نفسه، تمامًا كتأكيدنا على استلاب مُعاش الأنا عند الأنا الموجه لعصرنا هذا.

يجذب كل ما له علاقة بالسلطة الموجه سلطويًّا، سواء أكان هو الذي يمارس هذه السلطة أو يكون خاضعًا لها. فالبحث بشغف عن السلطة يشترط بأن كل القوى الذاتية والاستقلال وفرض الذات وتحمل المسؤولية إلخ تعني أو تسمح بأنها قابلة للإقصاء من طرف مُعاش الأنا. عندما يُسلب الموجه سلطويًّا من قدراته الذاتية هذه، بكبتها في نفسه وعكسها في الوقت نفسه على سلطة ما، يكون بالإمكان المحافظة على

البنيات السلطوية. ويُعوض المسلوب سلطويًّا على ضياع قدراته الذاتية بدخوله في علاقة مع موضوع إسقاطه، الذي يمثل بالنسبة له حامل قدراته الذاتية.

يمكن أن نقول اليوم، بسبب المسافة الزمنية التي تفصلنا عن اكتشاف التوجه السلطوي، بأن الموجه سلطويًّا يكون مسلوبًا من قدراته الذاتية. كيف يمكن للمرء أن يكون خاضعًا، منقادًا، إيثاريًّا، مستسلمًا، دون إرادة ذاتية ولا يحقق ذاته ويحددها؟ كيف لا يكون بإمكان المرء أن يلاحظ بأنه تخلى بسبب خضوعه ووفائه الأعمى لسلطة ما وشعوره بالمسؤولية اتجاهها، عن قدراته الآنفة الذكر؟

إن المعنيين بالأمر لا يشعرون باستلاب قواهم الذاتية ولا بعجز مُعاش أناهم. على العكس من هذا فإن الموظف الموالي لملكية ما يشعر بأنه قوي، إذا كان خادمًا وفيًّا لملكه. وتشعر الأم المنخرطة في حزب عنصري بأنها مهمة، عندما تلد لقائد الحزب طفلًا، قد يضحي بحياته من أجل هذا القائد. ويجد الأب المسيحي الملتزم بأنه من حق القس والبابا التدخل في حياته الجنسية وبأنه أمر طبيعي المرور إلى قِمَطْرِ الاعترافات كل مرة، إذا ما مارس الجنس دون نية الإنجاب. ويكون عضو الحرس الجمهوري فخورًا بكونه دعامة لاشتراكية ألمانيا الشرقية. أما الجدة فإنها لم تعد تطالب بأي شيء في الحياة وتكبت رغباتها أثناء سفر على متن سفينة في بحر الكاريبيك، لكي تحقق ذاتها كمُتقاعدة. كما أن الأطفال لا يشعرون بعذاب ضمير عندما لا يرجعون للبيت في الوقت المحدد من طرف الوالدين، لكنهم يعرفون بأنه من العدل أن يعاقبوا على عصيانهم، أو أنهم يعاقبون أنفسهم بأنفسهم.



كان الموجهون توجيهًا سلطويًّا غير واعين باستلاب قواهم الذاتية كذلك، تمامًا كما هو الشأن بالنسبة للأنا الموجه اليوم. ويكمن الفرق بينهما في كون الأمر كان يتعلق عند الموجه سلطويًّا بالقوى الذاتية التي تسمح بالاستقلال وبفرض الذات، التي كانت مستبعدة من مُعاش الأنا. أما فيما يخص الأنا الموجه، فإن الأمر يتعلق بنفي كفاءات الأنا (في شكل قدرات إنسانية ووظائف الأنا). وسواء تعلق الأمر بالحالة الأولى أو بالثانية، فإن الكبت والنفي يكونان غير واعيين ويقوم المرء بالتعويض عن الضياع وعقلنته. ذلك أن الموجه سلطويًّا يرهن ضياع قدراته الذاتية بعلاقة تكافلية بالأسس السلطوية، أما الأنا الموجه مابعد حداثي، فإنه يقوم بذلك بالاستعمال المحدد ذاتيًّا بقدراته «المصنوعة» وبممارسة سيكولوجية واجتماعية.

عندما يُستلب الناس من قدراتهم الذاتية ولا يكون من الممكن وعي هذا الاستلاب، فإن الكثير من محاولات عقلنة مُعاش أناهم المسلوب تتمظهر عندهم (تبريرات ظاهرية). فالعقلنة السلطوية ترن في الأذن على شكل جمل جاهزة: دون انضباط وتحكم في الذات لن يتعلم المرء أبدًا، طاعة الزوج، إن الطاعة هي فضيلة، ولابد من التمرن عليها في وقت مبكر، لابد من كسر الإرادة الذاتية («سأخرج منك الشيطان أيضًا»)، لا بد أن يقبل المرء الحياة بتواضع كالعذاب والمرض، «إن العطاء هو أحسن من الأخذ»، حب شخص ما يفترض مسبقًا حب هذا الشخص لك، «إنني أعرف في نهاية المطاف ما هو خير/ أحسن لك»، من اللازم أن يكون النقد، إذا قام به الإنسان حتى، أن يكون بناء، «لم تضرني القساوة»، إن أكبر حب هو نكران الذات.

قد توضح هذه الأمثلة الخاصة بالمُعاش الواعي للمُوجه سلطويًّا وللعقلنة المقبولة اجتماعيًّا لمعاش أناها المُستلب، لكل من لم يعد



معاش أناه محددًا من طرف التوجه السلطوي، يكون صعبًا وعي معاش أنا مستلب، عندما يكون توجه الطبع المجتمعي هو الطاغي، ويحدد ما يسمى «بالفكرة السليمة عند الإنسان».

الاستلاب و«مرض الحياة العادية»

يمكن أن نستنتج بأن ما كان عاديًّا وطبيعيًّا بالنسبة للموجه سلطويًّا، ليس كذلك بالنسبة لغير السلطوي، وبأن توجه الأنا المابعد حداثي لا يكون مُنتجًا وغير سالب إلّا بالنسبة للتوجه السلطوي، وبأن مثل هذا الرأي لا يكون ممكنًا إلّا إذا بقي الاستلاب المؤثر غير واعٍ ويبقى كذلك عند معاش الأنا. سنتطرق في الجزء الرابع من هذا الكتاب إلى إشكالية ما إذا كان هناك توجه منتج، على الرغم من أن لا التوجه السلطوي ولا توجه الأنا المابعد حداثي يتوفران على خاصيات منتجة.

لم يميز إيريك فروم في نظرية الطباع بين التوجه المنتج والطباع غير المنتجة المختلفة فقط، بل تحدث أيضًا عن «مرض الحياة العادية»[1]، التي تميز كل توجه غير منتج. لا يعاني الخاضع لسلطة ما من نكران الذات، طالما أن هذه الأخيرة تنتمي إلى مرض الحياة العادية (توجه الطبع المجتمعي السلطوي). لا يُعاش نكران الذات كعرض من الأعراض التي يعاني منها المرء، لكنه يقدم «عطبًا اجتماعيًّا مُتعلمًا»[2]، يتقاسمه الكثيرون، ويعتبر «عاديًا» (لا يفهم فروم «العادية» في المعنى«القيمي»، لكن كمتوسط ما يهيمن في المجتمع.

---

(1) انظر: .Erich Fromm, 1955a, GA IV, S. 13-19 وأيضًا 1991e (1953), GA XI, 266-211.

(2) انظر: .Erich Fromm 1944a, GA XII, S. 127



طالما اعتُبِر «عطب» ما كجزء من توجع طباعي لمجتمع ما، فإنه يُعاش كـ «ich-synton»[*]، يعني كعامل ذاتي مندمج، يُدرَك كصحي وعادي. لكن عندما يفقد التوجه الطباعي السلطوي قبوله المجتمعي ويفقد قوته والأغلبية التي تؤمن به، أو عندما يُعوَّض هذا الطبع بشخص آخر نظرًا للظروف أو لعلاقة شخصية ما (يمكن أن يحصل هذا بسبب تغيير الشغل) ويُعوض بتوجه طباعي آخر، فإن معاش الأنا السالب يعي احتقار ذاته، وقد تظهر تحت شروط معينة أعراض مرضية كالكآبة أو فقدان الرغبة في العمل.

يعتقد فروم بأن الوصول إلى أعراض مرضية يتم عندما يعيد المرء صلته بقواه الذاتية الخلاقة ووظائف أناه. ذلك أن مثل إعادة الصلة هذه يُرافَق في الغالب بخيبة أمل قوية. ولهذا السبب قال في حوار من حواراته الأخيرة: «إن الناس العاديون هم الأكثر مرضًا. والمرضى هم الأكثر صحة... ذلك أن الإنسان المريض، يُظهر بأن بعض الأشياء الإنسانية فيه ليست مكبوتة بقوة، ولا تصل إلى مرحلة الصراع بينها وبين أنماط الثقافة وتُنتج الأعراض المرضية»[1].

لا مجال للشك بأننا نجد مرض الحياة العادية كما رأيناه عند الموجه سلطويًا، عند توجه الأنا المابعد حداثي كذلك و«أعطابه المجتمعية»، في شكل شخصيات وخصائص طباعية موجهة عن طريق أناها. ما يلاحظ هو المقاومة الشرسة للأنا مابعد حداثي لنعته بغير واعٍ بمعاش أناه المسلوب

(*) يعبر «توافق الأنا Ich-Syntonie» عن ظاهرة نفسية، يحدث فيها نوع من اتحاد أو توافق فكرة أو مؤثر أو شعور شخص ما مع أناه، إلى درجة أنه يتمثل هذه الفكرة كجزء منه.

(1) انظر: Erich Fromm 1977i.



أو عندما يعري المرء الغطاء عند الكثير ممن ينتمون إلى هذا الأنا عن كون قوة مشاعره ليست أحاسيس منتجة أو كون البحث عن تجاوز كل الحدود هو في العمق عجز عن قبول الحدود الذاتية والمجتمعية.

الإدراكات اللاواعية ودفاعها

لا يعني كون عدم وعي الأنا الموجه باستلاب قدراته الإنسانية، بأنه لا يدركها بطريقة غير واعية. ويمكن للمرء الوصول إلى مثل هذه الإدراكات الواعية بطرق مختلفة. وقد قام سيغموند فرويد بهذا الأمر بلجوئه إلى محاولة فهم الأحلام[1]، كما أنه أظهر كيف يمكن توضيح هذه الإدراكات عن طريق تكون الأعراض[2]، بالاهتمام بالأخطاء[3] وتكون ردود الأفعال[4] وميكانيزمات الدفاع وتكون الطبع[5]. سنهتم فيما سيأتي بالإدراكات اللاواعية للطبع المجتمعي عند الأنا الموجه مابعد حداثي وميكانيزمات دفاعه بمساعدة تكون ردود الأفعال ومحاولة عقلنة هذه الأخيرة.

يعتبر الأنا الموجه ما بعد حداثي موضوع استلاب قواه الذاتية بطريقة كبيرة. إنه ينفي هذا الاستلاب، إلى درجة أن هذا الأخير لا يكون واعيًا بأن مُعاش أناه تابع لممارسة وتمرين قدراته الإنسانية في المقام الأول. فبنفي التقمص الانعكاسي لقدراته الإنسانية وبقدرات المنتوجات المصنعة،

(1) انظر: S. Freud 1900a.

(2) انظر بالخصوص: S. Freud 1926d.

(3) انظر: S. Freud 1898b und 1901b.

(4) انظر: S. Freud1915d, 1933a, 1940a und anna Freud 1936.

(5) انظر: S. Freud 1908b.



يعتقد بأنه واعٍ وبأنه يتحكم في الأوضاع ويُنتج الواقع انطلاقًا من تحديده الشخصي، لكن الحقيقة هو أن مُعاش أناه يتوقف على استعمال القدرات «المنتجة» التي تكون في متناوله ويكون من الضروري عليه المحافظة على التقمص الانعكاسي، لكي لا يواجه عجز قدراته الإنسانية. وإذا أحبط استعمال القدرات «المُنتجة»، فإن اشتغال التقمص الانعكاسي يتوقف، والنتيجة هي ظهور الشعور اللاواعي عنده.

على الرغم من أن الأنا الموجه يعيش ذاته في وعيه كشخص يحدد ذاته بذاته، مستقل، قوي، فإنه في الواقع لا شيء عندما يغادر القدرات «المصنوعة»، حتى وإن كانت هذه المغادرة جد بسيطة كأن تتعطل آلة موسيقاه أو تزويده بالكهرباء. وفي هذه الحالة يكون هذا الأنا غير كفؤ، إلّا إذا نجح في معاوضة العلاقة بالواقع المصنوع/ المنتج. وكما رأينا في المثال السابق عن المريض الذي يكون بحاجة إلى المعالج بطريقة وجودية، فإن الأنا الموجه يكون تابعًا هو بدوره إلى القدرات «المصنوعة» كتعويض عن استعمال قدراته الإنسانية.

يمثل ضياع القدرة «المصنوعة» إذن، إمكانية من الإمكانيات التي تهدد الأنا الموجه المابعد حداثي. لكن هناك خطر أكبر، يتمثل في اللحظة التي يواجه فيها إدراكه اللاواعي لعجزه الإنساني، عندما يواجه أوضاع حياة لا تُحل بالكفاءات «المصنوعة» بتاتًا أو لا تساعد هذه الكفاءة في حلها إلّا قليلًا . من الأمثلة على أوضاع الحياة التي قد تمثل تهديدًا لهذا الأنا هناك مثلًا تحمل خيبة الأمل في علاقة مع شخص ما والصبر على ضربات القدر وخسائره وتراجع قوته البدنية نتيجة مرض ما أو التقدم في السن أو تعرضه لتغير المزاج ونوبات الخوف أو فقدان مركزه الاجتماعي أو الحضور إلى محكمة أو الإخفاق في تربية أبنائه. مثل هذه الأوضاع

الوجودية، والتي لا يمكن للأنا الموجه استعمال الكفاءات «المصنعة» فيها، تعتبر إذن تهديدًا حقيقيًّا لمُعاش أناه، لأنه لم يعد قادرًا على الاعتماد على نفسه والسماح بتمظهر عجزه الإنساني.

وعي العجز الإنساني

كيف يشعر الأنا عندما ينكسر التشخص الانعكاسي جراء القدرات «المصنعة» أو يخفق تمامًا؟ ما هي المشاعر اللاواعية التي تظهر عندما لا تقاوم بتشخص انعكاسي بقدرة «مصنعة»؟ بما أن الناس يراهنون على إنتاج وإخراج الواقع، لأنهم يريدون عيش شيء ما، يمكن أن نستنتج بأن هناك نوعًا خاصًّا لشعورهم وإدراكهم اللاواعي. فإذا كان المرء يميل اليوم ليجعل من كل شيء مُعاشًا، التبضع، السباحة، الإجازة، العبادة، وقت انتظار القطار في المحطة، تنظيف البيت، التعلم، التدريس إلخ، فإن الإنسان يحس بنفسه لاشعوريًّا كعديم الحياة وسلبي وممل ودون اهتمامات ورغبة وحيوية.

يعبر الأطفال عن إدراكاتهم الداخلية بطريقة واضحة أكثر من الراشدين. فعندما تُمسح/ تنتهي التسلية وبرامجها التلفزية ودروس الموسيقى والألعاب المنظمة والألعاب الرياضية وحفلات أعياد الميلاد، فإنهم لا يكونون مُتعبين ولا حيويين، بل يشتكون: «إنني أشعر بالملل» أو يعبرون عن حالتهم الداخلية بجمل مثل: «لا أدري ما يمكنني عمله». ذلك أن كل ما قاموا به لا يؤثر فيهم ولا يهمهم ولا ينشطهم.

إذن عندما يصبح تعويض العجز الإنساني بالقدرات «المصنوعة» ضعيفًا أو يتوقف نهائيًّا، فإن الملل وغياب الخيال وظهور الفراغ الداخلي والشعور باللامبالاة وعدم الاهتمام بأشياء أخرى وغياب الحيوية تكون

الإدراكات اللاواعية التي ترافق الأنا الموجه. وهذه الأشياء مجتمعة هي التي تتمظهر عندما يهمل الإنسان قدراته الجسمية والروحية والعقلية.

لا يعيش الأنا الموجه انطلاقًا من قدراته الذاتية، لكنه ينشط ويريد أن يُنشط ليعيش شيئًا ما بمساعدة القدرات «المصنوعة». يجد في التنشيط الحيوي والاستهلاك السلبي للأنشطة تعويضًا عن حياة انطلاقًا من قدراته الذاتية. لكن لا يشرح كل هذا دوافع هذا الأنا. ذلك أن مصدر الرغبة في إنتاج الواقع بطريقة ذاتية يكمن في كون القدرات «المصنوعة» تفوق القدرات الإنسانية بكثير وتقود بطريقة لم يسبق لها مثيل إلى رفع الحدود عن الإنسان ونمط وعالم حياته وتلبية رغباته.

تُمكن التقنيات الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية القيام بنسيان تجارب، كانت تعتبر إلى الأمس القريب وظائف مهمة للأنا للتمييز بين عالم الرغبات والواقع، الخيال وما هو فعلي، ما هو لي وما هو لك، الرشد والطفولة، تحقيق الرغبة والإخفاق، الإرضاء والإرجاء، تحقيق الذات والفشل؛ لأنه يكون بالإمكان تحقيق ما يكون المرء يفكر فيه عن طريق هذه الإمكانيات التقنية، عوض الإمكانيات الإنسانية. يسمح الأنا الموجه للإنسان بعيش حياة لا تكون محددة عن طريق الغموض والتوازن، الرضا والإحباط إلخ؛ لكن عن طريق مشاعر تحطيم كل الحدود والإحساس بالقوة الخارقة وتحقيق الرغبات بسرعة. وبهذا تهمل وظائف جد مهمة للأنا كالإحباط والنجاح مثلًا. وسبب هذا هو أن الأنا يكون ضعيفًا دون استعمال الإمكانيات «المصنعة».

كلما اعتبر الأنا الموجه في مُعاشه الواعي هدم الحدود والشعور بالقوة وتحقيق الرغبات مباشرة وبسرعة كخصائص ذاتية له، أدرك بطريقة



لاشعورية بأنه لم يعد قادرًا على تحمل قيود وحدود وتناقضات الحياة بسبب التقدم في السن والانتماء إلى جيل معين وانخراطه في فئة مجتمعية ما ومرضه إلخ، إلى درجة أنه لا يقدر على الاعتراف بهذه الأمور وقبولها كما هي. يعرف الأنا الموجه عجزه الإنساني بطريقة لاواعية ويعرف بأن عليه العيش انطلاقًا من مؤهلاته الإنسانية، لكنه يعرف لاشعوريًّا كذلك بأن أناه ضعيف وبأنه لا يتوفر على أنا مبني على أسس وظائف الأنا، لكي يكون في استطاعته تحمل الحياة بكل تناقضاتها والعيش بتوازن. يعرف لاشعوريًا أيضًا بأنه عرضة لأوضاع نفسية تعيسة إذا ما لم يستعمل الإمكانيات «المصنعة». وعلى الرغم من أنه يحاول إبعاد كل هذا من وعيه، لكنه يسقط في لحظات معينة في هذا الشعور البئيس بالعجز عندما لا يسمح له استعمال هذه القدرات «المصنعة» بتحقيق ما يرغب فيه.

توجه الأنا المابعد حداثي وتشكيل رد الفعل

على الرغم من أن الأنا الموجه مابعد حداثي يدرك قليلًا أو كثيرًا عجزه الإنساني، فإنه لا يسمح بتمظهره على مستوى الوعي تحت أية ذريعة كانت ووعي درجة تبعية مُعاش أناه للتقمصات الانعكاسية بالإمكانيات «المصنوعة». يلاحظ «تبادل الأدوار» والمرور من التبعية السلبية والعجز وعدم القوة إلى السيطرة والمراقبة في العلاقات العلاجية بين المريض والمعالج. ويعتبر نفي التبعية من طرف العاكس أهم مؤشر على أن التشخص الانعكاسي هو الذي يحدد مجرى العلاقة بين الشخصين. لكن لماذا يكون بالإمكان القضاء على المشاعر التي لا تطاق للسلبية والعجز والضعف والإقصاء عن طريق تبادل الأدوار لهذا التقمص الانعكاسي؟

انطلاقًا من هذا، يتضح ما هي المشاعر التي تبقى غير شعورية عند



الأنا الموجه، و من الضروري أن تبقى كذلك: هناك قبل كل شيء شعوره بالتبعية الوجودية للإمكانيات «المصنعة» وفي غياب أيّ بديل عنها شعوره بالسلبية وعدم القدرة والضعف والإقصاء. فإذا لم يُسمح بوعي المشاعر تحت أية ذريعة كانت، فمن الضروري أن تقاوم، إلى درجة أنها تبقى غير معروفة لا بالنسبة للفرد ولا بالنسبة لمحيطه. ويمتثل هذا المطلب إلى تشكلات رد الفعل.

غالبًا ما يمكن التعرف على تشكلات رد الفعل بوقوع عكس شعوري في ضده وحيازة هذا الشعور على أهمية مفرطة. ويمكن ملاحظة مثل هذا العكس عندما يتعلق الأمر بمشاعر سلبية، لكن يمكن كذلك أن تقلب مُعاشات إيجابية إلى أخرى سلبية. وهناك الكثير من الأمثلة على ذلك، نقدم منها تلك التي تحدث في العلاقات اليومية: عوض نقد الآخر وتأنيبه، فإن المرء يمدحه ويساعده عن وعي، عوض إظهار الميل إلى الآخر، فإنه يحط كل ما يقوله له محط تساؤل، عوض أن يتمنى المرء الموت للآخر، فإنه يخاف عليه بطريقة لانهائية وعلى صحته، عوض التعبير عن غضبه اتجاه شخص ما، فإن المرء يحاول رؤية كل شيء بإيجابية والشعور بها هكذا.

عندما يتمعن المرء بطريقة تحليل نفسية الأنا الموجه، فإن هذا الأنا يتحول بنفسه إلى تشكيل رد فعل للشعور اللاواعي للتبعية الوجودية للإمكانيات «المصنعة» ويمكن أيضًا فهم أهم صفات توجه الأنا كتشكيلات لرد الفعل، تعوض المشاعر اللاشعورية للسلبية والعجز والضعف والإقصاء.

يمكن التعرف على كون الأنا الموجه هو نفسه تشكيل رد فعل، لكي لا يشعر بالتبعية الوجودية للكفاءة الإنسانية لنظيرتها «المصنعة»، في تأكيده



المفرط على إنتاج الواقع بطريقة حرة وعفوية وبقرار ذاتي وغير تابعة، سواء بالنسبة للأنا الموجه سلبيًّا أو إيجابيًا، إلى أيّ توجيه خارجي ولا مقاييس معينة.

حاولنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب تقديم تمييز بين الأنا المابعد حداثي وأنواع أخرى من الأنا (الأناني، النرجسي إلخ) وأكدنا على مبالغة الأنا الأول: ينفي هذا الأنا كل أشكال التبعية لمصالحه الخاصة أو المصالح الخارجة عنه بكل قوة في العبارة المشهورة: «إنني أنا، لأن أناي هو أنا». وإذا كان لهذه العبارة أيّ معنى سيكولوجيًّا، فقط كدفاع طاقوي ضد كل تبعية.

لتفضيل الواقع المصنوع وإهمال أو رفض الواقع الفعلي معنى سيكولوجي، لأن الواقع المصنوع يقدم بالفعل الكثير من الإمكانيات على مستويات عدة. إضافة إلى هذا فقد أظهرت المقارنة بالتوجه السلطوي ومرض الحياة العادية بأن المرء يمكنه فك شفرات ودم كل ما كان مطبقًا، عندما يفقد توجه الطبع المجتمعي صلاحيته المجتمعية. عندما يصبح تفضيل الواقع المنتج مبدأً، كما هو الأمر في نمط حياة الإنسان المابعد حداثي، فإن ذلك يشهد على الاهتمام الدفاعي لهذا الإنسان، الذي يحاول تعويض كل أشكال التبعية بإنتاج توجه للأنا باستقلال وبطريقة محددة ذاتيًّا. ويوضح هذا أيضًا بأن الاهتمام بالبحث عن الخلاص في التقرير الذاتي الكامل بأن هناك إحساسًا لاشعوريًّا لـ«المرض» الناتج عن التبعية، من الضروري مقاومته.

توجه الأنا ونفي المشاعر

هناك خصائص أخرى يمكن أن نجدها عند توجه الأنا المابعد



حداثي يمكن اعتبارها تحليلًا نفسيًّا كتشكيلات رد الفعل للمشاعر التي لا تطاق وهي مشاعر لاواعية. فقد تحدثنا فيما سبق عن لحظة التنشيط للأنا الموجه، وهي اللحظة التي يصبح فيها كل شيء مُعاشًا، سواء عند الأنا النشيط أو السلبي. فقد نشر غيرهارد شولتسا Gerhard Schulze كسوسيولوجي عام 1992م«مجتمع المُعاشات» بمساعدة دراسة ميدانية قام بها عام 1985م. لكنه حلل معطياته بطريقة أخرى: تعتبر المُعاشات بالنسبة له: «تشكيلات سيكو ـ فيزيقية لا يمكن تعويضها بالأشياء أو ائتمان شركات الخدمات عليها»(1). «لا تُستقبل المُعاشات من طرف الموضوع، لكنها تصنع من طرفه»(2)، على الرغم من أن الوضع هو الذي «يقدم للبناء المحدد ذاتيًّا والانعكاسي وغير الاعتباطي المادة الضرورية»(3).

إذا كان شولتسا يرى في الأهمية النامية باستمرار للمُعاشات وجمالية الحياة اليومية ونوع من «الحياة الجميلة» إمكانية تأثير مقوٍّ للموضوع لمجتمع المُعاشات (على الرغم من أنه يؤكد بأن «الرغبة في نجاح السلوك الموجه مُعاشيًّا لا يخضع للبرمجة السلوكية العقلية»(4)) ويتضح بالنسبة له في مجتمع المُعاشات، مجتمع: «يتأسس على الوجود»(5)، فإن تأويل التحليل النفسي الذي نتبعه هنا، يوحي بالعكس: بما أن الناس لم يعودوا يعيشون انطلاقًا من قدراتهم الذاتية، فإن المرء ينشطهم عن طريق المُعاشات المنتجة. ويكمن المشكل الكبير هنا في كون الإنسان المابعد

(1) شولتسا، المرجع السابق نفسه، ص. 14.

(2) المرجع السابق نفسه، ص. 44.

(3) المرجع السابق نفسه، ص. 60.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 548.

(5) انظر: شولتسا، 2003م، ص. 387.



حداثي لم يعد بإمكانه تقريبًا «إنتاج» مُعاشاته بنفسه. ولا ينطبق هذا على مستهلكي المُعاشات فقط، بل على المابعد حداثي النشيط، الذي يصنع ويروج المُعاشات، لكنه لا يستعمل قدراته الذاتية، بل القدرات «المصنعة» لإنتاج الفُرجة، والكوميديات ومُعاشات ترفيهية.

يستهدف توجه المُعاش للإنسان المابعد حداثي تنشيطه وله وظيفة تعويض الشعور اللاواعي العميق للخمول وانعدام الحياة فيه. إذا كان الأمر يتعلق بتنشيط داخلي حقيقي، فإنه قد يقود إلى تغيير في حياة هذا الإنسان. ذلك أن كتابًا ما أو فيلمًا أو صداقة أو حب شخص ما باستطاعته تنشيط إنسان ما داخليًا وتغييره بطريقة مستدامة. وعندما يحدث هذا الأمر، فإن المُعاش لا يكون تعبيرًا عن تشكيل رد فعل ولا مقاومة للخمول/ السلبية، لكن تعبيرًا عن القدرة على مُعاش داخلي، ويعتبر هذا الأخير قدرة داخلية للإنسان.

تُقدم تسمية «التوجه المُعاشي» شهادة على أن الأمر يتعلق في المُعاش ببديل، من الضروري أن يُضاف باستمرار بجُرعات كبيرة، لأن الأمر يتعلق دائمًا بتأثير حِينِي/ لحظوي لإيقاف أو كبت الشعور اللاواعي بالسلبية وعدم الحياة. ذلك أن توجه المُعاش للأنا الموجه لا يشكل مؤثرًا يساعده على عيش قدرته المُعاشية الداخلية، التي تمكنه من الشعور بالحيوية باستمرار.

تتمثل السمة البارزة الأخرى للأنا الموجه مابعد حداثي في هدم كل الحدود في مجموع ميادين الحياة والإحساس بالانجذاب إلى كل ما هو مغاير، غير معروف، غير عادي، جديد، طبقًا لشعار: «ليس هناك شيء مستحيل». ذلك أن الحدود لا توجد في نظره إلّا لكي تُتَجاوز، سواء



أكان ذلك في البحوث الجينية أم دراسات الفضاء أم في ممارسة الأنواع الرياضية والروحية القصوى أو حدود الحشمة. يحس الإنسان المابعد حداثي بنفسه بأنه قادر على كل شيء تقريبًا. يعبر شعوره بالقوة الخارقة عن نفسه في مشاعر القوة والوعي الذاتي، التي لا مجال فيها للشك ولا للتواضع عنده. فكلما كان المعاش بدون حدود، عِيش بقوة. ما يدهش المرء هنا هو المبالغة. وفي هذا كله تكمن الحجة بأن القوة الخارقة المقدمة ما هي إلّا تشكيلات رد فعل لمشاعره اللاواعية للعجز والضعف.

ليس هناك شعور آخر يحاول الأنا الموجه تجنبه أكثر من الشعور بالضعف. وقد يكمن سبب هذا الأمر في كون مثل هذه المشاعر لا تطاق إلّا من طرف أناس قليلين (إلّا إذا كانوا مازوخيين سلطويين ويعتبرون ضعفهم فضيلة). ما يشد الانتباه هو أن المابعد حداثي النشيط يحاول تجنب كل وضع يواجه فيه الشعور بالعجز، سواء على المستوى الشخصي أو عند إنسان آخر. ذلك أن الشفقة على الآخرين أو الرحمة بهم هي مفاهيم غريبة عند الأنا الموجه. فقد عوض مثل هذه المشاعر الإنسانية بنوع من التسامح يخفي لامبالاته، وتقدم له هذه الأخيرة المسافة الضرورية للابتعاد عن الناس الضعفاء ودون حيلة.

عندما يواجه هذا الأنا أوضاعًا تهم ضعفه الذاتي، فإن رد فعله يكون وكأنه في وضع يهدد حياته. فإذا انتقده المرء مثلًا، فإنه لا يعير أيّ اهتمام لهذا النقد، يتجنبه بربط علاقة جديدة مع شخص ما أو بداية مشروع ما. هناك نوع دفاعي آخر ضد أيّ انتقاد يستهدف مواجهة الأنا الموجه لضعفه الذاتي، يتمثل في انتقاده للكل. لا يوجد هناك شيء لا يعريه ويعلق عليه بسخرية ويجره في الوحل. كما أنه يتحين الفرص للإيقاع بالآخر والسخرية منه.



إضافة إلى هذا، يمكن لمشاعر عدم الحيلة والضعف أن تقاوم كذلك بمشاركة المرء في الخيالات العامة/ العمومية للقوة. وكمثال على ذلك هناك ردود الفعل، ليس فقط الحكومات القوية، بل أيضًا القسم الأكبر لمواطني «بلد الإمكانيات غير المحدودة» المتعلقة بأحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001م وإخفاق الحرب ضد الإرهاب.

هناك مثال آخر يتمثل في المشاركة في الأفلام التي تمثل القوة. قدم الخيال منذ القدم إمكانية إنتاج إدراكات ومشاعر مختلفة وفقدان السيطرة عليها بطريقة مطلقة. ولا يمكن الشرح السيكولوجي لكثرة الأفلام التي تقدم اليوم قوة خارقة، إلّا باعتبارها دفاعًا: فعن طريقها تُعوض المشاعر اللاواعية الموجعة للضعف وقلة الحيلة. ذلك أن أفلامًا من هذا القبيل تقدم بالخصوص السوبيرمان ومعجزات تقنية وأسلحة عجيبة وكذا القوة في كل مستوياتها. وبهذا يشعر كل من هو ضعيف بالقوة، تمامًا كأبطال الفيلم أو الأفلام التي يشاهدها على الشاشة. وهي قوة مستوحاة من الشعور بانتصار العدالة.

هناك خاصية أخرى للإنسان المابعد حداثي، توحي بأن تشكيل رد الفعل هو شعور لاواعٍ لا يطاق، وتتمثل هذه الخاصية في خاصية الفاعل للأنا الموجه. ليس لهذه الخاصية إلّا علاقة ضعيفة بمشاعر القوة عنده، بل بحاجته القوية إلى السيطرة ووجوب السيطرة والمراقبة على كل شيء. فسواء تمظهر هذا الأمر في شخصية المدير Manager الموجه توجيهًا أدائيًّا، والذي لا يشتغل بجد فقط، بل يتمتع بالحياة، أو بالسوسيوقراطي الشغوف، الثيوقراطي والبيروقراطي، الذي يجعل من المراقبة مضمون حياته، أو على شكل مقدم النصيحة في كل ميادين الحياة، لطبيب ما، بيداغوجي أو مستهلك يعرف «كيف تمر الأمور»، أناس يعيشون مما



يعرفونه ويعتبرون دفاتر استعمال الآلات والوصفات كتبهم المقدسة، فإن ما يجمعهم هو اعتقادهم في معرفتهم بجدوى الحياة. يعتقدون بأنه ليس هناك شيء لا يمكن عمله، على الرغم من أنهم يعرفون بأن هناك أوضاعًا في الحياة لا يمكن عمل أيّ شيء فيها أو أن الأشياء تتجاوز قدرة الإنسان، لغياب أية قدرة «مصنوعة» للقيام بهذا العمل. يعتقدون إذن بأن ما لا يمكن عمله غير موجود، وبأن المرء قادر على عمل كل شيء مهما كان. وليس لهذا الأمر أيّ معنى، إلّا إذا أبعد المرء عن نفسه كل شعور بالضعف.

يمكن للمرء، إذا كانت له صله بقدراته الإنسانية، الوقوف إلى جانب إنسان يموت، على الرغم من أنه لا يمكنه عمل أي شيء لصالحه، اللهم الوقوف إلى جانبه. ذلك أن الاعتراف بالضعف في وضع مفقود الأمل فيه قد يكون في الواقع فعلًا تضامنيًّا. لكن إذا كان الأنا الموجه مهددًا بالوقوع في وضع دون أمل ويصبح بذلك دون قوة ودون حيلة، فإنه يتهرب من هذا الوضع وينسحب منه، ينهي علاقته مع شخص ما أو يتنازل عن عمل ما ويتوجه إلى مشروع علاقة أو عمل آخر. لا يطيق إذن الشعور بأنه مكتوف اليدين، حيث لا يمكنه عمل شيء ما. يعني عدم السقوط في وضع لا يمكنه القيام فيه بأي شيء، باستثناء الصبر. يتغنى الإنسان بعطلة «يترك فيها النفس ترتاح»، لكن واقع هذه العطلة يكون مغايرًا تمامًا عند الأنا الموجه مابعد حداثي: إنه يملأ إجازته هذه ببرنامج كثيف من الأنشطة.

تتمثل الخاصية الأخيرة للأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي في حاجته إلى التواصل والترفيه كتشكيل لرد الفعل على الشعور اللاواعي الذي لا يطاق. ذلك أن الأنا النشيط ونظيره السلبي يمتلكان حاجة قوية للترفيه، على الرغم من أن مضمون هذا الأخير لا يكون حاسمًا. ما هو مهم هو أن

المرء يُرفَّه ويُرفِّه. ذلك أن الأنا النشيط قد يكون مُرفِّها جيدًا جدًّا وتكون رغبته في أن يكون كذلك قوية، بحيث تكون إخراجاته مُرفِّهة. وأقصى ما يمكن أن يقع له هو ألّا يكون مُرفِّها جيدًا ويفقد بذلك صلته بشريكه أو بجمهوره.

يتمثل إكسير المُرفَّه في شعوره بأنه على اتصال. ويعتبر هذا الأخير أهم خاصية للتعرف على الأنا الموجه سلبيًّا. ويكون الأمر مُرفِّها بالنسبة له، عندما يشعر بأنه على اتصال وعندما يقوم شعور النحن. فسواء تعلق الأمر بالرياضة أو ببرامج التسلية أو بالموسيقى، فإن المعجبين يشعرون بأنهم على اتصال ويعتنون بهذا الأخير.

يمكن فهم التغيير الذي تحدثنا عنه فيما سبق، المتعلق بتغيير الاعتناء بالعلاقة إلى الاعتناء بالتواصل بشخص أو وضع ما، عندما نفهم الاعتناء بالتواصل سيكولوجيًّا كضمان/ اطمئنان على الشعور بالانتماء. ذلك أننا نجد عند الكثير من الموجهين توجيهًا مابعد حداثي تغيير الارتباط العاطفي القوي بشخص أو بأشخاص قليلين إلى ارتباط بأكبر عدد من الناس. والنتيجة هو أن الاعتناء بالعلاقة مع قلة من الناس تتحول إلى الاعتناء بالعلاقة مع أناس كثيرين، وهي علاقة لا تعبر إلّا على ضمان/ الاطمئنان على الشعور بالارتباط بمساعدة الرسائل الهاتفية القصيرة والرسائل الإلكترونية إلخ. والكثير من هذه «الرسائل» لا يعني أكثر من: «إنني لا أزال على قيد الحياة، ولا أريد أن أعرف شيئًا آخر غير هل أنت موجود كذلك».

لماذا نجد عند الناس المابعد حداثيين هذه الحاجة المرتفعة للتأكد من ارتباطهم بالآخرين؟ قد يكون الجواب السيكولوجي الواقعي على



هذا الأمر هو كونهم يقاومون ضد شعور لاواعٍ بالإقصاء. فمن لا يستطيع العيش انطلاقًا من قواه الذاتية، يخسر الأساس العاطفي للشعور بالارتباط بنفسه وبالآخرين. ولكي يتخلص الأنا الموجه من الشعور بالإقصاء، فإنه يستعمل التشخص/ التقمص الانعكاسي، لكي يكون متصلًا بطريقة تعويضية بالقدرات «المصنوعة»، دون الاعتراف بتبعيته لهذه الأخيرة. وبهذا يصارع شعورًا لاواعيًا للإحساس بالإقصاء المهدد له.

تعتبر مشاعر الإقصاء من أقوى المشاعر التي تهدد الإنسان. ذلك أنها تدفع به إلى الانتحار وتعتبر من الأسباب الرئيسة للعُصابات، يعني في بناء واقع «أحمق»، لكن أقل تهديدًا بالنسبة له. لا يعتبر الأنا الموجه أحمق، لأنه يتجنب الشعور بالإقصاء عن طريق تشكل انعكاسي: الاتصال يجعل من الإنسان حرًّا. لكن عندما يُحرم من إمكانية التعويض هذه، فإنه يكون معرضًا لخطر ردود الفعل العُصَابِية.

يحدث الشعور بالتبعية عند الأنا الموجه بسبب القدرات «المصنوعة»، ويكون هذا الشعور مصحوبًا بمشاعر السلبية والضعف وعدم الحيلة والإقصاء. ولا يكون من حقه وعي هذه المشاعر، لأنها ستفضح تبعيته. ولهذا السبب يكون مضطرًّا لمقاومتها عن طريق التشكيل الانعكاسي. فإذا كان بإمكانه تشكيل مُعاش أناه بحرية وتحديده ذاتيًّا، فإنه يشعر بتبعيته. ذلك أنه يُبعِد عن نفسه الإحساس اللاشعوري بالسلبية عن طريق تفعيل توجه مُعاشاته، بسلوك يتجاوز كل الحدود، يتمظهر كسلوك قوي ويحجب شعوره اللاواعي بالضعف بقدرته على الفعل والدراية بأشياء كثيرة. كما أنه يقاوم إحساسه اللاشعوري بالضعف والإقصاء المهدد له عن طريق تقنيات الاتصال.



العقلنة كتعبير عن الإدراك اللاواعي

هناك إمكانية أخرى لإلقاء نظرة على الدفاع النفسي للمشاعر اللاواعية للأنا الموجه مابعد حداثي، تتمثل في العقلنة النموذجية لسلوكه الفعلي. يمكن للمرء التعرف على مثل هذه العقلنة بفهم القيم والتمثلات التي تحكم المجتمع إلى حد الآن بمعنى مضاميني جديد لهذا الأنا. ذلك أن هذا الأخير يفهم الكثير من المفاهيم المهمة بطريقة مغايرة تمامًا لما هو عليه الحال في استعمالها اللغوي الحالي. فعندما يكون «الأصيل» مثلًا عند هذا الأنا هو من يُخرج ذاته كحر، موثوق فيه وغني في معانيه، عاطفي ويقول دائمًا ما يفكر فيه ويشعر به، فإنه لم يعد لهذا المعنى الجديد للأصالة أية علاقة تذكر مع الفهم التقليدي لها كأصالة عوض محاكاة، الحقيقي عوض التابع، الوجود عوض المظهر، النسخة الأصلية عوض النسخة المنسوخة، الراشد عوض المُؤثَّر فيه إلخ. والنتيجة هي أن الناس، على الرغم من استعمالهم للألفاظ نفسها، لا يعنون الشيء نفسه، وبهذا لا يقوم أيّ تفاهم بينهم.

يعتبر تغير المعنى اللغوي من الناحية السيكو ـ اجتماعية نموذجيًّا بالنسبة لكل مجتمع. عندما تطفو على السطح مضامين معنى جديدة، يكون من الضروري أيضًا تبرير وشرعنة السلوكات الجديدة الناتجة عنه، ترافق هذه التغيرات السيميائية؛ يعني الإعلان عنها كمهمة وذات قيمة. ويكون لمثل هذه التبريرات من الناحية التحليل نفسية خاصية العقلنة كذلك، ذلك أنه من الضروري أن يفسح المجال لما هو لاشعوريّ، ويتعلق الأمر في الكثير من الأحيان بأسباب لا تكون مُستساغة. فقد كانت التغييرات السيميائية تفهم دائمًا كتغييرات للعقلنة.



تطرقنا فيما سبق ونحن بصدد الحديث عن خاصيات الشخصية وطباع الأنا الموجه مابعد حداثي إلى الكثير من التغيرات المفاهيمية، ولن نقوم هنا إلّا بتلخيص أمثلة مهمة عنها.

يُمكن اعتبار فهم «الأنا» في تعبير «توجه الأنا» كعقلنة لتمثل اللاوعي، لأنه ليس هناك أيّ مُعاش حقيقي للأنا، بل إن الأنا يغْرِف من لاشيء، إذا كان بالإمكان التعبير هكذا. استعمل مفهوم «توجه الأنا» إلى حد الآن دائمًا كانعكاس للمعاش الواعي وللوعي الذاتي لتوجه الأنا. يشرح الوصف الدقيق لتوجه الأنا كتطبيق حر وعفوي للواقع اهتمام هذا الأنا للتأكيد بأنه لا يغرف من أيّ إكراه إنساني يمكن تسميته.

الشيء نفسه يمكن قوله عن مفهوم «الذات Selbst» وما ينتج عنه من مُعاش للهوية عند الطبع المابعد حداثي. ذلك أن المفهوم أجوف، وتكمن وظيفته في تغطية المعاش اللاشعوري لضياعه الذاتي، بسبب نفيه ورفضه لقدراته الذاتية. فعلى الرغم من أن هذا الأنا يتحدث عن «التحقيق الذاتي» و«العثور على الذات»، فإنه لا يعني بأن له إرادة أو أن بإمكانه تحريك شيء ما يوجد في ذاته، لا ينتظر إلّا تفعيله داخله. إذن، على المستوى الواعي، ليس هناك أيّ مُعاش للهوية يمكن تحديده وتعريفه. ذلك أن المابعد حداثي يكون الآن هكذا ويتغير فيما بعد، لكنه يعتقد أنه هو ذاته في كل الأحوال.

ليس من الصعب اكتشاف التأكيد على «إنتاج الواقع» انطلاقًا من الذات كعقلنة. والواقع هو أن الآلة، وليس الإنسان، هي التي تحدد عند أغلبية من له توجه أنا مابعد حداثي نوع الواقع المُنتَج انطلاقًا من القدرات «المصنوعة»، يعني بمساعدة البرمجيات والتقنية. بالنظر إلى الإمكانيات

الكثيرة التي تقدمها القدرة «المُنتجة» للإنسان اليوم، فإن المرء يكون في وضع يكون مضطرًّا فيه لاختيار معين، يحتم عليه معرفة كل الإمكانيات المتاحة. وعندما يتحدث عن إنتاج الواقع انطلاقًا من ذاته، فإنه يحاول بهذا تغطية واقعة كونه لا يتحكم في القدرة «المُنْتَجَة»، لكن العكس.

هناك مصطلحان آخران وهما «الإبداع/ الخلق» و«الجمال». فالجمال، كما وضع ذلك غيرهارد شولتسا Gerhard Schulze هو: «مفهوم مشترك لمُعاشات تعتبر إيجابية»[1]، يُشعر بجميل كل ما يوافق المرء. والواضح هو أنه مهم جدًّا بالنسبة للأنا الموجه وعي المُعاشات الإيجابية عوض تلك التي توافقه، على الرغم من أن التمثل اللاشعوري لمفهوم «الجمال»، المتمثل في حقيقته المزدوجة، يستعمل لإبعاد المُعاشات الواعية. وإذا كان مفهوم «الإبداع» يعتبر كالمفهوم السحري سواء بالنسبة للتسويق الموجه أم بالنسبة للأنا الموجه مابعد حداثي، فإنه يوظف من طرف هذا الأخير كعقلنة للنشاطات الأقل إبداعًا: تفضيل استعمال تعليمات استخدام منتوج ما. وهكذا هناك مدارس مسائية مثلًا تقترح: «دروسًا للمبدعين ومحبي الحياة»، والواقع أن الأمر يتعلق بدروس في المعلوميات يمكن أن يصبح المرء بمساعدتها «مساعدًا على شبكة الأنترنيت» أو «رئيس مكتب ما».

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة المتعلقة بالتغيرات السيميائية، على الرغم من أن هناك الكثير من الأمثلة الأخرى حول تعريفات جديدة للمصطلحات، يمكن للمرء أن يُظهر عن طريقها بأنها تخدم تغطية للسلوك الفعلي على الرغم من تمثل لاشعوري مزدوج.

(1) انظر: Gerhard Schulze, 1992, S. 39.



حلم

تعتبر الأحلام رموزًا ولهذا السبب لا يمكن فهمها في الغالب دون معرفة الحالم أو الحالمة. كما أنها تستعمل منطقًا مغايرًا للمنطق الذي نعرفه وتتحدث «بلغة رمزية»، لم تعد مألوفة بالنسبة للكثيرين. وعلى الرغم من ذلك فإن الأحلام تقدم مَعْبَراً جيدًا للاشعور: «خاصية الأحلام هي التعبير عن التجارب الداخلية كما لو أنها تجارب حسية ومواضيع ذاتية»[1]. وبما أن أحلامنا تترجم تمثلاتنا الحسية الداخلية، التي تكون في الغالب لاشعورية، إلى حكايات حسية مُعاشة وصُور؛ فإنها تسمح بتكوين صورة جيدة على ما لا يمكننا في وضع اليقظة الوصول إليه من مشاعر داخلية وخيالات وكفاءات وتطلعات. ويوضح الحلم التالي لطالب في التاسعة عشرة من عمره، يدرس ميكانيكا الآلات هذا الأمر، ذكره إيريك فروم:

«كنت مدعوًّا إلى حفل صحبة بعض الأصدقاء. كنا نرقص كلنا. لكن حدث شيء غير عادي، أصبح الإيقاع بطيئًا أكثر فأكثر، وأصبح يظهر بأنه لم يعد أيّ أحد يتحرك. في تلك الأثناء دخل الغرفة زوجان كبيران، الظاهر أنهما أحضرا أشياء كثيرة معهما في صندوقين كبيرين. تقدما باتجاه أول زوجين كانا يرقصان. أخذ ذاك الرجل سكينًا وفتح الشاب الذي كان يرقص فتحة في ظهره، والغريب أن الدم لم يسل والظاهر أن الشاب لم يكن يشعر بأيّ ألم. أخذ الرجل شيئًا لم أتعرف عليه بدقة، شيئًا يشبه صندوقًا صغيرًا، وأدخله في ظهر الشاب، كان شيئًا صغيرًا. بعد

(1) انظر: Erich Fromm 1949a, GA IX, S. 164. وكذا E. Fromm 1951a und 1972a



ذلك وضع في ذاك الصندوق الصغير مفتاحًا صغيرًا ولربما زِرًّا (بطريقة يمكن للشاب الوصول إليه). وقام بحركة وكأنه يُعمِّر ساعة. وفي الوقت الذي كان هذا الرجل يقوم بهذا مع الشاب، كانت المرأة المرافقة له تعمل الشيء نفسه مع صديقة الشاب. وعندما فرغا من هذا تابع الشاب والشابة رقصهما، لكن بطريقة سريعة ومليئة بالحيوية. قام ذاك الرجل وتلك المرأة بالشيء نفسه مع الأزواج الراقصين التسعة الآخرين، وعندما ذهبا بقي الكل في مناخ حماس وتسلية».

علق فروم على هذا الحلم بطريقة مقتضبة فقط في إطار تصوره للنيكروفيليا. لم يكن تعليقه هذا كاملًا، بل أشار باقتضاب إلى معنى نهايته، مؤكدًا بأنه يعني تمجيد المرء لتفوق وانتصار القدرات المصنعة على القدرات الإنسانية. ونظرًا للغة الرمزية للحلم، يمكن فهمه دون تداعي أفكار الحالم ودون أية معلومات إضافية عنه. يوضح هذا الحلم الذي رآه هذا الطالب الأميريكي بداية السبعينيات الديناميكية النفسية واستلاب الأنا الموجه توجيهًا مابعد حداثي.

يصف في أول الأمر كيف تستسلم «رقصة الحياة» تدريجيًّا معية شباب آخرين، على الرغم من أنهم كانوا قادرين في أول الأمر على المشاركة في رقصة الحياة، يعني الاعتماد على قدراتهم الإنسانية، بالنظر إلى الإيقاع كخاصية لنبض الحياة. لكن الحلم لا يعطي أية معلومات عن ذلك. «في هذه اللحظة» يدخل الزوجان الكبيران بصندوقين كبيرين. ويرمز الزوجان إلى تفوق القدرات «المصنوعة» المُتمثلة من طرف الحالم وكذا قوة إيحاء هذه القدرات. ويقوي الصندوقان اللذان أحضراهما معهما والمملوءان «بأشياء كثيرة»، الارتسام بتفوق القدرات «المُنتَجَة». لكنها تعبر كذلك

عن أن الخلاص يأتي من الخارج وكيف يمكن نقل الآلات والأشياء («الأشياء»، «المنتجات») في صناديق.

يعبر كون التنشيط يتغلغل في العمق الداخلي للإنسان ويُعاش كعملية مجتاحة عن نفسه في الحلم عن طريق العملية في الظهر. لم يكن باستطاعة المعنيين بالأمر مشاهدة العملية مباشرة، كما أنها لا تؤلم ولا وجود لأيّ دم. ويعتبر التعبير عن هذا مهمًّا جدًّا، بدونه لم يكن بالإمكان أن يحدث الحلم. كما وقع في بداية الحلم هذا «الشيء غير العادي»، والذي لم يكن باستطاعتهم التحكم فيه، فإن الشيء نفسه يحدث في العملية بيد سحرية أو بطريقة خيالية أو حتى بفضل القوة الإيحائية، تَقَبَّلاهَا دون أدنى مقاومة ودون أن يكون بوسعهم ملاحظتها أو حتى الشعور بها. ويرمز غياب الألم في العملية إلى حدوث عملية التغيير دون إدراك للأحاسيس والمشاعر. كما أن المرء لم يتعرف على ما غُيِّر (يعني أن هذا الأخير ظل لاشعوريًّا).

يمكن للمرء أن يتصور بأن ما كان على المرء قطعه بالسكين هو القلب (كرمز للعواطف وكرمز قديم لقوة الحياة)، كما تعبر الأساطير عن ذلك، وتعويضه بآلة صغيرة. وكون الأمر تم على مستوى الظهر يؤكد بأن تعويض القدرات الإنسانية بنظيرتها «المصنعة» يقع في الظهر/ على المستوى الخلفي وبطريقة لاشعورية. وبغض النظر عن هذا، يذكر هذا المقطع في الحلم الدُّمْيَات التي تُعمَّر بجر حبل في ظهرها و«تُنشَّط» لمدة معينة. لا يمكن للمرء التمييز بطريقة أحسن بين شيء حيّ، إنساني منتج، وبين شيء غير منتج، كما وقع في هذا الحلم: من يمارس قدراته الإنسانية الذاتية لا يستهلك أية طاقة، بل إن الطاقة تنتج عن نشاطه هذا، في الوقت الذي يستهلك فيه استعمال القدرات «المصنوعة» الطاقة.

تعكس الإشارة الواضحة لاستعمال مفتاح أو زر صغير، والذي



لا يعرف الحالم بأية طريقة يمكن استعماله، ما كان على التشخص الانعكاسي تحقيقه: لم يعد المرء يعيش، يمكنه أن يضبط ويتحكم في ما على الآلة الصغيرة تنشيطه (عن طريق القدرة «المصنعة»). وبما أن التغيير حدث عند الجنسين معًا، يمكن شرحه كلاشعور للحالم، يتمثل في كون الاستلاب يقع لهما بالطريقة نفسها. وبما أن كل من كان يرقص في ذلك الحفل تعرض للعملية نفسها، فإن ذلك يعني بأن كل من كان في عمر الحالم أو من يعيش في وسطه الاجتماعي معرض لتوجه الطبع المجتمعي هذا. ولهذا السبب هناك الرقم عشرة في الحلم.

يوضح الحلم بما فيه الكفاية نتيجة عملية تمثل توجّه الطبع المابعد حداثي: ابتعد الشخصان بعد عملية التغيير هذه. وحتى وإن غابا، فإن الكل يشتغل بفضل الآلة الصغيرة التي وُضعت في ظهورهم بطريقة جيدة. لا يشعرون بأيّ شيء غريب في ما يعملونه، لكنهم يحسون بأنهم متوحدون «Ich synton» بوضعهم كمسلوبين.

التأثيرات المرضية للأنا الموجه

تعلق الأمر إلى حد الساعة بفهم الديناميكية النفسية للأنا الموجه مابعد حداثي واستلابه وكذا بتقييم تحليل نفسي للخاصية غير المنتجة للتوجه المجتمعي المابعد حداثي، والتي وضحنا بمساعدتها الجوانب اللاواعية لطبع الأنا الموجه. وسنهتم الآن بتوضيح التأثيرات المرضية التي يعاني منها هذا الأنا.

«مرض الحياة العادية» للطبع المابعد حداثي

من الناحية النفسية فإن التأثير الأساسي لتوجه الأنا الذي يطالب به ويشجع عليه الاقتصاد والمجتمع هو تكوين الطبع المابعد حداثي ذاته.



وأكبر «ميزة» لهذا الأخير هو أنه يحتاج إلى نسق اقتصادي واجتماعي للمحافظة على نفسه وخلق سلوك عند الإنسان، يُدمجه في تمثلاته و«يريده» بنفسه.

ينتج تكوين توجه طباعي للمجتمع باستقلال عما إذا كانت الاهتمامات التي تقوم عن طريقه في صالح الأفراد وما إذا كان يشجع أو يحبط العيش معًا، وينطبق هذا على تكون الطبع الفردي كذلك بالأسلوب نفسه: فالطبع الاضطراري مثلًا يشتغل حتى ولو كان هذا الأمر يتطلب مراقبة مستمرة وحتى وإن كان الغسل الاضطراري يتطلب الكثير من الوقت والجهد. ذلك أنه يريد الأمر هكذا ولا يشعر بالراحة إلّا بتحقيق اضطراره هذا. وحتى وإن كان لتوجه طباع مجتمعي ما، كالنيكروفيلية مثلًا[1]، نتائج هدامة على المجتمع والفرد، فإنها لا تحقق إلّا وظيفتها الاجتماعية.

من هذه الزاوية يجب التمييز بين ما إذا كان توجه الطبع منتجًا أو غير منتج بالنسبة للإنسان وللمجتمع، وما إذا كان يقود إلى المرض أو له تأثير حيوي عليهما. ومن أجل التحقق من هذا يجب على المرء الالتجاء إلى مستوى حكم يتساءل فيه عن تأثيرات توجه الطبع هذا على الإنسان والمجتمع ومعرفة كون ما يشجع ويعزز الإنسان كنسق لا يكون بالضرورة متطابقًا لوضع اقتصادي واجتماعي معين.

كما وضحنا ذلك، فإن التأثير غير المنتج للأنا الموجه يكمن في استلاب الأنا الموجه اتجاه قدراته الإنسانية، مقرونًا بخسارة كفاءات أناه. ويُعاش هذا التأثير في تكوين طبع الأنا synton، يعني كشيء ينتمي للمرء

(1) انظر في هذا الإطار: Erich Fromm 1964a, GA II, S 169-178. وكذا 1973a, GA Rainer Funk 2002a , VII, S. 163-393



ولا يعتبر لا غريبًا أو تسبب في أسف أو ألم في معيشه الذاتي. وقد دفع هذا الوضع إيريك فروم، كما أشرنا إلى ذلك، إلى الحديث عن «المرض في الحياة العادية» و«الأعطاب المطبوعة مجتمعيًّا» عند الطبع الموجه غير المنتج. فكلما كان هناك واقع اجتماعي كبير لتوجه مجتمعي غير منتج، لم يشعر الأنا الموجه باستلاب كفاءات أناه بهذا الاستلاب ولن يحس بأيّ عرض مباشر لضغط ألمه.

كل ما ينطبق على توجهات الطبع غير المنتجة المسببة اجتماعيًّا، ينطبق هنا كذلك: كلما طغى تفضيل القدرات «المصنوعة» وإنتاج القدرات الإنسانية على توجه الطبع المجتمعي، كان ما يسبب عدم الإنتاجية بمثابة الدواء العجيب، الذي يعوض به أغلبية من يعتبر أناهم موجهًا عن استلابهم. عندما ينجح المرء في تعويض خسارة قدراته الإنسانية بمساعدة القدرات «المصنعة» ويكون بهذه الطريقة خلاقًا، فإنه لا يشعر ذاتيًّا بأن هناك شيئًا ينقصه، ولهذا السبب فإنه لا يطور أية أعراض تدل على ألمه.

لا يحدث قبول كل ما يسلب الإنسان كفاءة أناه وقدراته الإنسانية إلّا أثناء تكون طبعه. لايكون رد فعل الكثير من الناس بالإحساس بخسارة توجه أناهم، لكن بالإحساس بألم غير واضح اتجاه ذواتهم. وهناك من يطور أعراضًا مرضية معينة.

أشار إيريك فروم في كتاباته المتأخرة مرارًا إلى كون استلاب الإنسان لا يتمظهر فقط في تشكيلات طبعه المجتمعي المهمة وفي أعراض مرضية، لكن كذلك في تصاعد الشعور بألم لا يمكنه تحديده وبالمعاناة في ثقافته وذاته نفسها.



المعاناة في الثقافة وفي الذات

وصف فروم تناول سيغموند فرويد لـ «التضايق/ الاستياء في الثقافة»[1][*]، بربطها في أول الأمر بما عُبر عنه في فرنسا بـ «مرض» أو «قلق القرن»، وأقر بأن هذه المعاناة في الثقافة وفي الذات، التي لا تقدم أيّ عرض عنها، هي في العمق «الشعور بعدم السعادة». ويتمظهر هذا الشعور في: «الشعور بالغرابة/ الغربة، لا يكون للحياة أيّ معنى ولا ذوق، تدفع فقط ... يكون كل شيء على ما يرام ويتوفر الناس على كل شيء، لكنهم يعانون من أنفسهم. لا يعرفون كيف يشتغل ... يمكنهم حل ألغاز كلمات الشبكة، لكنهم لا يستطيعون حل الألغاز التي تقدمها الحياة»[2].

ثلاثون سنة من بعد، تغير تمظهر هذه المعاناة بعض الشيء، لكن الأمر يتعلق دائمًا في الجوهر بعرض الألم نفسه. ووصفت إيديت فرانك ـ ريزر Edith Frank-Rieser سنة 2003م المصابين بهذا الأمر كالتالي: «يأتي عدد كبير من المرضى، يكبر يوميًّا، لجلسات التحليل النفسي، يعانون من شعور بالفراغ مزمن، يربطونه بالإحساس بانقطاع حياتهم. تظهر لهم قصة حياتهم ـ دون أيّ منطق ظاهر ـ المؤسسة على مشاهد وأحداث مختلفة، متغيرة باستمرار وغير مُرْضية. يلجؤون إذن إلى اختيار بلد جديد للعيش ويغيرون شغلهم وحتى شريك حياتهم، لكن دون جدوى. وعندما يسألهم المرء عن المشاعر والأحداث والمضامين التي كانوا يشعرون بها في

(1) انظر: .Sigmund Freud 1930a

(*) للكلمة الألمانية Unbehagen التي يستعملها فرويد التضايق والاستياء والانزعاج.

(2) انظر: .Erich Fromm 1991d (1974), GA XII, S. 277 وكذا 1992h (1975), GA XII, S. 382 ومسودة كتابه «الامتلاك أو الوجود» (1974) 1989a ـ 75), GA XII, S. (393-493)، حيث يهتم بإمكانيات «العلاج المفارق التحليل النفسي» لتجاوز هذا النوع من الأمراض، التي تتسبب في الألم، على أن الأمر لا يتعلق بمرض معين. ما ينقص المعنيين بالأمر هو «الرفاهية» النفسية. انظر في هذا الإطار: .E. Fromm 1960a, GA VI, S. 311



السابق بذواتهم، فإنهم لا يقدمون أية إجابة ويؤكدون أن مثل هذه الأشياء لم تكن في حياتهم ... يمارسون عملهم بنجاح، لكنهم لا يشعرون بأنهم حاضرون في الحياة اليومية، باستثناء كونهم ممثلين لشيء ما، مخرجين له أو معلقين عليه. كل شيء غير حقيقي كفيلم ما، ويمكنهم في الحقيقة الاستقالة».

على العكس من الطبع المابعد حداثي الذي «يشتغل بطريقة جيدة»، والذي يعوض شعوره اللاواعي بالسلبية وعدم القوة والضعف وغياب الحيلة والإقصاء بتوجه أناه السلبي والنشيط ـ ويعيش نفسيته كغير مريض ولا يطور أية أعراض مرض واضحة، فإن الشعور بالذات يهاجم ذاك الذي يكون يعاني في الثقافة وفي ذاته. ولا يُلاحظ عندهم أيّ تشكيل واضح للأعراض المرضية. وقد يكون لهذا الأمر أسباب مختلفة من حالة لأخرى. ما يهم هنا هو ما إذا كان هؤلاء «التعساء»، غير الراضين باستمرار والذين حاولوا كل شيء، لا يعانون من كونهم لم يتأقلموا أو تأقلموا بطريقة غير كافية مع توجه الأنا المابعد حداثي؛ ولهذا السبب يشعرون باستمرار بضياع قدراتهم الذاتية على الصعيد الجسدي والنفسي والروحي والعقلي.

ما يشرح معاناتهم هو كون مثل هؤلاء الناس يشعرون بالراحة اتجاه كل ما يتركهم يحسون بعيش قدراتهم الذاتية ومساهمة هذا الإحساس في تجاوزهم للسأم من ذواتهم ومن محيطهم. بالنسبة لتوجه الأنا المابعد حداثي القوي، فإن هؤلاء الناس ما يزالون سجناء أصلهم وكل القيم ونماذج المعنى التي أتى بها. أما من الناحية التحليل نفسية، فإنهم لم يفقدوا بالتمام الصلة بمواردهم الإنسانية، على الرغم من أنهم يعانون جزئيًّا من استلابهم.



يمكن لإعادة انتعاش رجوعهم إلى قدراتهم الذاتية وممارستها التقليل من سأمهم وحله. ذلك أن الواعي يتنازل عن استعمال القدرات «المصنوعة» ويعتبر الوعي الهادف وممارسة القدرات الإنسانية حجر رحى «فن الحياة»، الذي يقود إلى المزيد من الرفاهية النفسية. وقد تطرق إريك فروم إلى بعض جوانب الخروج من الاستلاب المابعد حداثي في كتابه :«من الامتلاك إلى الوجود»[1]، الذي نشر بعد وفاته. وتختلف هذه الجوانب كثيرًا عما يقترحه بائع الواقع المابعد حداثي من «حزمات التشافي» و«الشعور بالراحة» و«الإحساس بحالة جيدة».

لا يستطيع الاستغناء عن القدرات «المصنعة» إلّا من وعى خديعة الميادين «حيث يتعلق الأمر بشفاء وخلاص الإنسان وراحته وتطوره النفسي وسعادته»[2] ويتجنب التفاهة. وتعني هذه الأخيرة: «كل ما لا يركز على المهمة المركزية للإنسان، وكونه خُلق كاملًا»[3]. إضافة إلى هذا، فإن الاستغناء عن القدرات «المصنوعة» تعني بالنسبة لفروم أيضًا التخلي عن «خطأ الرغبة في حياة دون جهد وألم»[4] وعدم الخلط بين الإرادة والدوافع العفوية. ذلك أن إرادة شيء ما: «يتأسس على النشاط الداخلي»، في الوقت الذي يمكن فيه التعرف على الدافع العفوي، بحيث إنه لا يستعمل «لماذا» لتبرير ذاته، لكن يستعمل فقط «لِمَ لا»[5].

على من يرغب في وعي قدراته الإنسانية وممارستها أن تكون له

(1) انظر: GA XII, S. 402-456 ,(75-E. Fromm 1989) 1974.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 403.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 409.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 412 وما بعدها.

(5) GA XII, S .415 (75-E. Fromm 1989) 1974.



«الإرادة» في ذلك وأن يكون «مستيقظًا»، لكي يحافظ على قدراته الروحية ـ العقلية والنفسية والجسدية. ذلك أن «أهم خطوة في طريق فن الوجود يشمل كل ما من شأنه تقوية القدرة على وعي الذات ويساهم في الفكر النقدي المتسائل»[1]. ويمكن ذلك مثلًا بالرجوع إلى مناهج التحليل النفسي لتحليل الذات[2] وكذا تمارين التركيز والتأمل والانتباه والتمارين البدنية[3].

تحدثنا فيما سبق عن ديناميكية القوة الذاتية الروحية ـ العقلية والنفسية والجسدية ولماذا تكون ممارستها ضرورية من أجل تفعيل المعاش الذاتي المنتج. وأهم شيء في كل هذا هو تعويض القدرات «المصنوعة» بالقدرات الإنسانية، وبالخصوص القدرات الذاتية التي تُهمَل عند استعمال القدرات «المصنعة». من هذه الزاوية يمكن فهم حنين بعض الناس المعاصرين إلى حياة «بسيطة»، متميزة باقتصاد الاكتفاء الذاتي واستقلال سياسي كرغبة في تقوية توجههم المنتج.

تظهر المعاناة دون أعراض اتجاه الثقافة والذات بالخصوص عند الناس الذين يشعرون بصراع مع مطالبات توجه الأنا غير المنتج. ويحدث هذا عندهم، لأنهم لايزالون يتمتعون بتوجه منتج قوي نسبيًا. يعانون إذن من هذا الصراع ويوظفون الكثير من الطاقة لتحمله. وإذا حل هذا الصراع لصالح استعمال القدرات الذاتية للإنسان، فإن نتائج ممارسة هذه الأخيرة تتجلى في تمظهرات منتجة مختلفة. وسنعود إلى هذا الموضوع في الجزء

(1) المرجع السابق نفسه، ص 424.
(2) المرجع السابق نفسه، ص 433 ـ 456.
(3) المرجع السابق نفسه، ص 425 ـ 432.



الرابع لهذا الكتاب. وإذا حل الصراع لصالح استعمال أكثر للقدرات «المصنعة»، فإن ما يحدث هو إما ظهور مرض دون أعراض للطبع، لا يعاش كمرضي إذا وجدت هذه الأعراض قبولًا مجتمعيًّا أو طغت في هذا الأخير؛ وإما ظهور معاناة مرضية بأعراض في الذات ومحيطها، يكمن سببها في ضعف كفاءات الأنا وعجز قوته. وهذا ما سنتعرض له الآن.

أعراض المعاناة بسبب عجز قوة الأنا

على الرغم من أن مفكري ما بعد الحداثة يقرون برفض التصورات التي تحدثنا عنها كالصحة النفسية وتطور التوجه المنتج ومعاش الموضوع، الأنا، الذات والهوية، فليس هناك أيّ شك من الناحية الإكلنيكية بأن مثل هذه التصورات مهمة وضرورية لكل تدخل طبي وعلاج ـ نفسي. وإذا كان الأطباء النفسيون وعلماء النفس الإكلنيكيون يتشبثون بها، فليس من باب العناد والالتصاق بتصور خاص عن العالم، بل لأنهم يواجهون أعراض أمراض تتميز برجوع regression خبيث عوض تقدم Progression معافى للنسق النفسي وكذا بالضعف المستمر للأنا عوض قوته بالإضافة إلى عجز معين لوظائف الأنا. ويمكن ملاحظة التطور السلبي لمثل هذا العجز في أمراض نفسية مختلفة. كما أنها تحدث عند أصحاب الأنا المسيطر.

إذا ركز المرء اهتمامه على مجموعة من أصحاب أنا موجه، ممن يعانون من مثل هذا العجز ويطورون طبقًا لهذا أعراضًا وأمراضًا، فإنه يلاحظ خاصيتين أساسيتين: ميلهم إلى التوهم وعدم قدرتهم على تحمل توترات وغموض الحياة. فعوض إعادة التوازن واكتساب القدرة على عيش الحياة بتجاذباتها، فإنهم يرفضون جوانب بعينها لواقعهم الداخلي والخارجي. إلى جانب اختبار الواقع والقدرة على عيش التجاذب، هناك

من طبيعة الحال وظائف أخرى للأنا كالتحكم في الدوافع، حدود التوتر وكذا حدود الصراع والإحباط. وهنا لابد من الاهتمام بالخصوص بالوظيفتين الأوليين للأنا، اللتين أشرنا إليهما وانخفاض قوة الأنا، الناتج عنهما.

لم يعد خفيًّا بأن التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية، بكل ما توفره من إمكانيات لإنتاج الواقع بطريقة لاحدود لها، تخدم في المقام الأول وهمًا من أوهام الإنسان. من منا لا يريد الشعور بالراحة والاستقلال الكامل والعفوية، ويكون مبدعًا وله علاقة بالله والعالم وإمكانياته الداخلية وفهم كون الصراعات والنقد والغضب وخيبة الأمل والهدم ومعاش الضعف هي أدوات لتجاوز الحداثة؟ وعلى الرغم من أن هذه الرغبة متأصله في الإنسان من أجل التجاوز المستدام لمناطق ضعفه في الوجود، فإنه يسقط مع ذلك في منطق الهروب في العوالم المُصنعة كالدافع الوحيد للأنا الموجه مابعد حداثي. لا يجب الخلط بين الرغبة في إنتاج وإخراج الواقع وبين الرغبة في إخراج وإنتاج واقع وهمي. ولهذا السبب، تطرح إشكالية المعنى الأساسي لإخراج الواقع.

يُعتبر إخراج الواقع خاصية أساسية للفن والدين. يُخرج الواقع في هذين الميدانين بطريقة يصبح فيها مغايرًا للواقع الفعلي. فالأدب يحاول مثلًا تطوير معنى سياقات والتعبير عن عالم الخيال وعوالم المشاعر أو خلق وتقديم دراما الحياة على شكل قصص. ويكون الهدف من مثل هذا الإخراج هو تطوير ميادين الحياة والوجود الإنساني، تكون غائبة وغير مصرح عنها بالنسبة للإنسان. وبهذا يُمَكِّن الأدب من هذا الجانب فتح ميادين حياة مضمرة أو مكبوتة، لا ينتبه لها أو تنسى في عملية إعادة إنتاج الحياة اليومية العادية، لكنها تتوفر على أبعاد مهمة جدًّا بالنسبة للحياة



وللوجود الإنساني. فعندما يحاول الدين الإخبار عن تجارب حياة بلغة أسطورية أو على شكل متناقضات صوفية، لا يمكن للإنسان القبض عليها، فإنه يتبع في إخراجه الهدف نفسه[1].

تمثل الأحلام أحسن مثال على حاجة الإنسان لإخراج الجوانب المخفية والسماح لها بالمرور إلى الواقع. من هنا فإن الأحلام ليست «رغوة» ولا خيالًا، بل إنها في غالب الأحيان تمثلات لمشاعر لاواعية تكون عسيرة الهضم أو أوضاع ـ الإخفاق مثلًا ـ لا نتمثلها في حياتنا الواعية بوضوح أو أبدًا. نتمنى أن تكون خيالًا، يعني وقائع لا تتوفر على أيّ أساس واقعي، لكن العكس هو الصحيح. فسواء في الفن أو الدين أو الحلم، فإن إخراج الواقع يعني في هذه الميادين السماح لجوانب مُضمرة، قبل واعية ولاواعية التحقق في الواقع.

يناقش الكتّاب المابعد حداثيين إشكالية الإخراج بطريقة مغايرة تمامًا. نعرف منذ الأنوار بأن كل معرفة للواقع ليست فقط تمثلًا لمعطى معين، لكنها أيضًا بناء، تصميم، إعادة خلق، إخراج للواقع. فكلما درس المرء الثقافات المختلفة وتمثلات العالم والديانات وأنماط الحياة، اتضح أكثر مدى تعددها، ولا يحق لأيّ نمط حياة الادعاء بأنه صالح على العموم وملزم. ووصل بعض مفكري ما بعد الحداثة إلى نتيجة مفادها عدم وجود الواقع الذي يمكن للمرء اعتباره توجيهًا/ توجهًا له. هناك من يقول بأن «واقعنا ما هو إلّا واقع تمظهرات [...] وكوننا نلعب كلنا المسرح قد أصبح أمرًا لا غبار عليه بالنسبة للسوسيولوجيين»[2]. لا توجد أية طبيعة

(1) انظر في هذا الإطار: R. Funk, 1985.

(2) انظر: N. Bolz und D. Bosshart 1995, S, 68 und 70.



عامة للبشر والسيرورات الاجتماعية، لكن فقط إخراجات متعددة لهذه الأخيرة.

وحتى وإن كان كل شيء بناء وإخراجًا فقط، فإن ذلك لا يحرر من التمييز بين إخراج الواقع الوهمي ونظيره غير الوهمي. ما هو «الوهم»؟ يتحدث المرء عن «الوهم» في السيكولوجيا، عندما يعطي لشيء أو حدث معنى غير ملائم أو يلبسه خاصيات لا تنتمي لجوهره، كمثال: عندما يسبب مثير في الواقع، حذاء رياضة مثلًا، تأويلًا خاصًّا يتمثل في كون امتلاك هذا الحذاء يهب الشباب. فلا يرمز الحذاء الرياضي إلى الشباب فقط، ولا يتعلق الأمر بربطه بالشباب، أو يتخيل المرء بأن هذا الحذاء يمنح الرياضة، لكي يعيش من خلال هذا التصور كرياضي. يتحدث المرء عن «الوهم» عندما يعتبر شخص ما الحذاء الرياضي شابًّا، وبشرائه يمتلك المرء الشباب. هذا هو إذن الوهم، الضلال، لأن هذا الحذاء لا يجعل من مالكه شابًّا.

يصبح الأمر مشكلًا عندما يؤكد الكثيرون بأن الأمر على هذا الحال بالنسبة لهم. وكلما كثر عدد الناس الذين يؤكدون هذا، أصبح من الصعب إقناعهم بأنهم يعانون من وهم. عندما يكون عدد كبير من الأشخاص مقتنعًا بتأثير هذا الحذاء الرياضي، فإنهم يقررون ما هو الواقع، ومن يؤكد عكس هذا، يعيش في نظرهم في وهم. لا عجب، والحالة هذه، أن الدراسات السوسيولوجية والنفسية تصل في بعض الأحيان إلى نتائج مختلفة، عندما يتعلق الأمر بالأوهام الجماعية للأغلبية.

هناك درجة أخرى لقلب الواقع: الهلوسة. إذا بقينا في مثال الحذاء الرياضي، يعيش شخص ما ذاته كشاب، دون أن يكون بحاجة إلى أيّ



حذاء رياضي أو أية صفة للشباب. على العكس من هذا، وكما هو الشأن في الشراب، فإن المعني بالأمر يعيش الشباب، في المواضع التي لا يترك منظره الخارجي أيّ مجال للشك بأنه متقدم في السن. وينطبق على الهلوسة ما ينطبق على الوهم، فكلما كبر عدد الناس الذين يعيشون في هلوسة، أصبح ما لا يوجد واقعيًا، واقعيًا بالفعل بالنسبة لهم.

يلعب إخراج الواقع الوهمي دورًا مهمًا بالنسبة للنجاح الاقتصادي اليوم. في الكثير من الفروع الاقتصادية، وبالخصوص في صناعة الفرجة والوقت الثالث، أصبح من السهل بمكان ملاحظة كون الواقع الوهمي/ الخيالي يُسَوَّقُ أحسن فأحسن. ولا تعتبر جاذبية مثل هذه الأنشطة الاقتصادية جديدة: كان العيش في واقع خيالي دائمًا ممارسة اجتماعية ممكنة أيضًا، للهروب من «حائط المنادب» للعيش فوق هذه الأرض. وفي القديم كان مثل هذا الهروب مسموحًا به للطبقات الميسورة فقط، في الوقت الذي كانت فيه الأغلبية العظمى تكتفي بوهم العيش في جنان الآخرة وتحيين هذا العيش في الأماكن المقدسة والطقوس والأوقات والأشخاص(*). أما اليوم، وبفضل ارتفاع مستوى المعيشة والمصاريف غير المرتفعة لصناعة ونشر الواقع الخيالي، فقد أصبح استهلاكها بمثابة «دواء» في متناول الجميع. فأصحاب الأنا الموجه، لا يبحثون عن الواقع الخيالي كمواساة أو إمكانية للهروب، لكنهم يحققون فيها ومعها وبفضلها رغبتهم في الخلق الذاتي والشخصي للواقع. ولهذا السبب فإنهم لا يكتفون بواقع خيالي واحد، لكنهم يستهلكون مختلف العوالم الخيالية الكثيرة.

(*) المقصود هنا الأولياء والصالحون.



من أجل شرح تأثير إخراج العوالم الخيالية عند الأنا الموجه، سيكون من المفيد ذكر الأوهام الجماعية، التي يُفَضَّلُ اليوم إخراجها، ولهذا السبب فإنها تساهم في توهيم الأنا الموجه.

وهم الجنة: ليس هناك أيّ تميز في العوالم الخيالية المصنعة، وليس هناك أية معرفة بالخير والشر ولا أيّ مسعى للمعرفة ولا أيّ نقد وتطوير، لكن هناك فقط غياب القلق والهم والتعاطي الحر والعفوي وغير المقيد لـ «جنة عدن». فما يُمَكِّنُ من التمييز، يعني شجرة المعرفة، يكون محذورًا، يعني أنه يكون من الضروري إبعاده عن الوعي. وبما أنه ليس هناك أيّ تمييز، فلا يكون ضروريًا فحص فضاء الحياة والتيقن بأن ليس هناك أيّ تهديد أو شيء ظاهري أو غدر أو فساد. فقد لا يؤخذ الفرق في السن أو بين الجنسين بعين الاعتبار ولا احترام الفرق بين الأجيال، في نفي معاناة التقدم في السن مثلًا. ما يهم هو أن يكون المرء «مُشَارِكًا»، بالغطس في العالم الافتراضي، وعالم الأحلام والمعاشات والخيال، في العالم الغريب أو في العصر الوسيط وشعور المرء بالراحة في هذه العوالم.

وهم الوفرة Schlaraffenland: يوحى للمرء بأنه مُعفى من أيّ نشاط وأيّ مجهود، وليس من الضروري أن يقوم بشيء ما ليدبر حياته. يُقترح عليه ويُقدم له ويُدبر له وينظف له كل شيء. يكون من حقه ترك «روحه تسترخي»، تتراجع وتخمل، لأن هناك دائمًا شخصًا في خدمته، يغذيه و«يعتني» به.

وهم الاستهلاكية Konsumismus: يوحى للإنسان بطرق غسل الدماغ بأن ما هو مهم ليس هو ما يصل إليه عن طريق قدراته الذاتية ومعارفه ونشاطه، بل ما يبتلعه دون عناء وما يمكنه امتلاكه.



وهم روعة الإنسان: تُنْسَى نهائية الحياة والجوانب المظلمة الذاتية ومحدودية القدرات الفردية والخجل من الإخفاق الشخصي عن طريق إخراج عوالم خيالية، بطريقة لا يركز فيها المرء إلّا على تسليته.

وهم حياة خالية من الإحباط: تقدم العوالم الخيالية أكبر منفعة لتلبية وإرضاء مباشر للرغبات. لا يكون المرء مضطرًّا للانتظار ولا تفوته أية فرصة. ويعتبر الاستغناء عن شيء ما كلمة غريبة في هذا الإطار، تمامًا كما هو الأمر بالنسبة لتأجيل تحقيق أمر معين. وإذا أصبحت الأمور صعبة ومعقدة، فإن المرء يغير اتجاه مشروعه وبرنامجه أو الدائرة التي يكون فيها.

وهم حياة خالية من التجاذب: في جعبة إخراج الخيالات التي ذكرتها إلى حد الساعة خيال آخر: يتميز إخراج العوالم المصنعة اليوم في الغالب بتشعيب الواقع، بطريقة يظهر فيها رائعًا، باهرًا، مُرضيًا، متناسقًا، ودودًا، جميلًا أو فوضويًّا، مليئًا بالصراعات، هدامًا، وشريرًا. ذلك أن المرء لا يعي إلّا جانبًا من جوانب حياته وينفي الجانب الآخر.

تعتبر القدرة على وعي الواقع المتجاذب من بين أهم وظائف الأنا والأنا الأعلى، تمامًا كفحص للواقع. ويقصان جزئيًّا عن طريق أوهام الجنة والنعيم والاستهلاكية وروعة الإنسان. تمر حياة وتطور الإنسان كسيرورة من التحقق والموت، الالتقاء والافتراق، تتميز بمحاولات ومشاعر متناقضة ومن الضروري إيجاد توازن لهما على الدوام. ويتمظهر غموض حياة الإنسان في كون المرء يعي ويعيش الواقع في غالب الأحيان بإيجاب وسلب، محققًا للرغبات ومحبطًا لها، يساهم في السعادة أو يقود إلى الخوف. وإذا أراد الأنا الانصياع لضروريات هذا الواقع، فعليه أن يمتلك ما يسمى بـ «القدرة على التجاذب».



أصل كلمة «تجاذب Ambivalenz» لاتيني، مكون من كلمتين: Ambi، وتعني «كلاهما» و valenz أتت من «walère» تقريبًا «انطبق/ جرى العمل به»، «ذا أهمية». يعني التجاذب كون الإنسان قادرًا على تمثل وعيش ما هو إيجابي وما هو سلبي فيه بالذات وفي الناس الآخرين وفي الواقع المحيط به. فمن يكون قادرًا على التجاذب يكون قادرًا على عيش محيطه كباعث للسعادة وللطمأنينة، تمامًا كقدرته على عيشه كتهديد. يمكن الإحساس بشخص آخر كإغناء للشخصية الذاتية، لكن أيضًا كتهديد لها، والشيء نفسه فيما يخص الذات، التي تُعاش كموهبة أو مليئة بالأخطاء.

لا يعني وعي التجاذب بأنه من الضروري على المرء أن يعي ويعيش الاثنين في الوقت نفسه، على الرغم من أنه من الأهمية بمكان في حالات القدرة على حل الصراع أن يعيهما المرء معًا. يتميز التجاذب لغويًّا بالتعبير عنه دائمًا بهذا وأيضًا.

يتعلم المرء القدرة على التجاذب في السنوات الأولى من حياته وتساعد الراشد على التحكم في حياته اليومية وفي أوضاع الحياة الصعبة والمليئة بالصراعات. لكنها قدرة قد تنسى. ويتمظهر هذا النسيان في بحث البشر عن خلاصهم في إخراج واقع خيالي. لا ينسى الإنسان قدراته البُنيوية كوظائف الأنا مثلًا، لأنه ببساطة ينساها، بل بالتراجع والسقوط في مرحلة تطور سابقة لبنياته النفسية.

في الوقت الذي يتميز فيه مستوى تطور القدرة على التجاذب بإدراك الواقع في جانبيه الإيجابي والسلبي وعيشه هكذا، فإن الذي لم يتطور هذا الأمر عنده يعيش هذا الواقع إما إيجابيًّا أو سلبيًّا. وقد يحدث هذا عند الأفراد في أوقات متفاوتة، ذلك أن المرء قد يعتبر شخصًا ما اليوم بطريقة



إيجابية وغدًا بطريقة سلبية، وغالبًا ما لا يكون هذا «إما وإما» محددًا زمانيًّا، لكنه يحدد عن طريق انقسام متواصل للواقع والمعاش. يتأسس المعاش الإيجابي مثلًا على ما هو خاص، أي على الذاتي، بينما يتأسس نظيره السلبي على المحيط الشرير أو على مؤامرة زملاء العمل. قد يشتغل الانشقاق بتأسيس المعاش السلبي على الذات: يشعر المرء بنفسه قبيحًا وقليل القيمة، مليئًا بالتردد والعار، لكنه معجب بزملائه أو بمقدم برنامج تلفزي ما أو فريق كرة معين. فعندما ينشق الواقع إلى «إما وإمَا» فإن ثنائية الرأي واعتبار قطب/ جانب منه فقط يقومان.

عندما يمعن المرء النظر جيدًا، يجد بأن هناك درجات مختلفة للتراجع في مثل ثنائية الانشقاق المؤسسة على «إما وإما»:

ـ هناك «إما وإما» عند الذي يكبت الإدراكات السلبية، لكن هذه الأخيرة تتمظهر في خياله الواعي. فمثل هؤلاء البشر يقتلون الآخر في خيالهم، بحيث إنهم يكونون أكبر المجرمين أو أكبر الأبطال في خيالهم. ذلك أن «إما وإما» الذي يُنتج الانشقاق يوجد هنا في التمييز الدقيق بين الواقع والخيال.

ـ يحدث الانشقاق القوي في «إما وإما» في الأماكن التي يُكبت فيها المُدرَك السلبي للواقع الفعلي وللخيال وللوعي الذاتيين، لكنه يُدرك كواقع فعلي في علاقة المرء بأناس آخرين كشريك الحياة أو الحماة أو رئيس العمل أو الأجنبي أو المنافس السياسي، ويحارب في مثل هذه الحالات.

ـ ويذهب ما يسمى بالإنكار خطوة إضافية. ذلك أن المرء في هذه الخطوة يقوم «بالتخلص النهائي» من السلب الذي يعكسه على الآخرين،



بمحاولة القضاء أو إنكار موضوع العكس[*] وإذا لم يكن المعاش السلبي غير موجود لا في الذات ولا في موضوع العكس، فمن الضروري، كما نجد ذلك في عبارة جورج بوش: «محور الشر»، سحق موضوع العكس هذا أو اعتباره لا يوجدأبدًا.

ـ هناك إمكانية انشقاق كامل للمعاش السلبي، لا نجد فيها أيّ «إما وإما». ويحدث هذا في التفكك الذهاني psychotische Dissoziation. ويكون المصاب بمثل هذا الذهان أحاديّ الجانب، ما يهمه هو أناه وحده مثل هتلر، نابوليون، المسيح أو أي صبي. وفي بعض الأحيان لا يكون لمثل هؤلاء المصابين أية علاقة بحاجياتهم النفسية والجسدية. وفي ظروف معينة يطفئ المرء في مثل هذا التفكك رغبته في الاستمرار في الحياة، إلى درجة قدوم المرء إما على الانتحار أو القيام بعمليات إرهابية.

يقود تفضيل العيش في واقع مُخرَج وهمي إلى عجز في إدراك المعاش والتعامل مع الواقع الداخلي ونظيره الخارجي.وهذا ما حاولنا توضيحه من خلال الأوهام الجماعية بمثال القدرة على التجاذب، وكتأثير مرضي تكون نتيجته تراجع كفاءات الأنا. وينتهي مثل هذا العجز إلى أعراض وأوضاع مرضية متعددة، على شكل أمراض نفسية ونفسجسدية واضطراب للشخصية، تتمظهر بالخصوص على الحدود بين أوضاع مرضية عصابية وذهانية[2].

على الرغم من أننا سوف لن نستفيض في تعداد الأمراض الخاصة

(*) أي الشخص الذي يقع عليه العكس.

(2) انظر بهذا الخصوص: Otto Friedrich Kernberg und andere «Handbuch der Bordline-Störungen» (2000). وبالضبط مساهمة O. F. Kernberg und B. Dulz

بتوجه الأنا، فإننا سنحاول تلخيصها باقتضاب وتقديم بعض تأثيراتها المرضية. فإذا نفى/ رفض الأنا الموجه ميادين كاملة للواقع، فإن النتيجة هي تراجع لكفاءات أناه إلى أدنى درجاتها:

ـ التراجع المستمر لقوة الأنا ومعاش الأنا، الذي يفرض ذاته ويكون قادرًا على الحب.

ـ نشر الهوية التي تعتبر نموذجية للأنا الموجه، والتي قد تقود إلى أمراض ذاتية وأخرى ذات صلة بالقيمة الذاتية للحياة.

ـ ضعف في وظيفة الأنا والأنا الأعلى وبالخصوص فيما يتعلق بفحص الواقع ودرجة قبول الإحباط والقدرة على التجاذب.

ـ تذبذب معاش الذات ومعاش الآخرين، ويعوض عنه بقيود المراقبة والحاجة للأمن.

ـ تقلص المشاعر وبالخصوص مشاعر الخوف وما يرافقها من أمراض الخوف.

ـ معاش مشاعر «مُنتجة/ مصنعة»، وجدانية وهستيرية.

ـ مُعاش مشاعر «مصطنعة»، تكون وجدانية ومن وقت لآخر هستيرية، ويكون لها عند الأنا الموجه هدف إبعاد مشاعر السلب وعدم الحيلة وعدم القدرة والضعف والإقصاء من معاش الأنا الذاتي وتقود إلى «ضياع الفضاء النفسي».

ـ في بعض الأحيان القدرة على تحمل الصراعات بين الأشخاص ونظيرتها الداخلية النفسية.



ـ عدم القدرة على تحمل النقد، يغطى في الغالب بنتائج فوبية عكسية من خلال فك شفرة النقد الماجن والسخرية.

ـ جس نبض المفاوضات والقدرة على القفز الوجداني، الذي يُعقلن كعفوية، وقد يقود جس النبض هذا إلى إفلاس مالي في ميدان الاستهلاك (كما هو الأمر في استهلاك الهاتف النقال).

ـ دفعات تراجع/ انتكاس خبيثة، مصحوبة في غالب الأحيان مؤقتًا بحلقات عصابية.

ـ التخلي عن ميكانيزمات الدفاع الناضجة لصالح أشكال دفاع منشقة كنفي/ رفض الإسقاط والتشخص الإسقاطي، والتي تقود من بين ما تقود له إلى مشاكل علائقية وكذا إلى أمراض نفس ـ جسدية.

ـ ضعف أو ضياع النظام الأخلاقي الداخلي المنظم للأنا الأعلى ومثال الأنا.

يحتاج التأثير المرضي النفسي للأنا الموجه الذي أشرنا إليه أعلاه إلى تمحيص دقيق. إذا فهم المرء «الأنا الأعلى» و«مثال الأنا» كتصورات داخلية مليئة بالطاقة النفسية، لما لا تريده السلطة الاجتماعية والذاتية، ولهذا السبب تكون محذورة أو يُحَبب فيها، فإن ما يميز الأنا الموجه بدون شك هو أنه يكون قد خسر هذه التصورات والسلوك الأخلاقي الذي يؤسس أناه. يعوض كل أنواع الوصاية بالتحديد الذاتي العفوي والحر ويريد أن يكون مستقلًا عن كل مسؤولية وإلزام أو مثال يقتدى، ويلقن كهدف للحياة.

أشار إيريك فروم في إطار دراسته لمبدأ الطبع السلطوي بأن التصور



الفرويدي للأنا الأعلى لا يمس أساسًا إلّا الجوانب الأخلاقية لوظائف الأنا الأعلى عند الإنسان، وهي جوانب تكون نموذجية بالنسبة لكل توجه سلطوي، تتبخر في الهواء في كل عملية تجاوزها. ولهذا السبب ميز فروم بين الضمير السلطوي ونظيره الإنساني[1]. فالضمير السلطوي هو: «صوت سلطة خارجية موجه نحو الداخل»، أما الضمير الإنساني فهو: «رد فعلنا على نفسنا ذاتها»، وعن طريقه: «نصبح ما نحن عليه طبقًا لإمكانياتنا»[2]. وإذا لم يعد للأنا الموجه أيّ شعور بإلزامات إجبارية ومشاعر المسؤولية وتحقيق مُثل سامية، فمرد هذا إلى كونه قد فقد بالفعل كل ضمير سلطوي.

ماذا يحصل للضمير الإنساني عند الأنا الموجه؟ عندما لا يعي المرء التطور الذاتي الممكن، القابع داخل النفس الإنسانية، وهو تطور يساعد المرء لكي يصبح إنسانيًا أكثر؛ لأن ما له قيمة هو ما لا يتأسس على الكفاءات الإنسانية، فإن التنظيم الداخلي يفقد من أهميته للتحكم في السلوك الأخلاقي. ذلك أن الأنا الموجه يخسر باستمرار الوظائف المعيارية للأنا التي تنظم سلوكه من الداخل بين النمو والاضمحلال، المصالح الذاتية والمصالح الجماعية، الاهتمام بالمنفعة الشخصية وأخذ منفعة الآخر بعين الاعتبار[3].

لا يعيش الأنا الموجه هذا العجز كنقص، لكن كقدرة على تعدد القيم، التسامح و«الانفتاح». لكنه يشعر بعجزه على التنظيم الداخلي بطريقة لاشعورية ويحاول التعويض عنه باللجوء إلى الضمير «المُنتج»، الذي

(1) انظر على الخصوص: Erich Fromm,l 1947a, GA II, S. 91 -109.

(2) المرجع السابق: ص. 93 و 104.

(3) انظر: Rainer Funk 2002, bes. 24-26.



يدافع عنه في بعض المرات بطرق مبالغ فيها. ولهذا الأمر وجوه متعددة. يتمظهر مثلًا في شكل نماذج وقواعد يُقتدى بها ومُغالى في أهميتها، يُعمل بها في دوائر معينة. وفيما يتعلق بقضايا التعايش الاجتماعي والسياسي، فإن المرء يراهن على الاتفاق على قواعد سلوك، تكون من مسؤولية المشرع في المقام الأول.

من نتائج التعويض عن ضعف الضمير الإنساني الضعيف بمساعدة الضمير «المُنتج» هناك المبالغة في إعطاء أهمية لمنشورات ممارسة قواعد أخلاقية ، وهو استعمال يقود في غالب الأحيان إلى بيروقراطية يصعب التحكم فيها. وتزدهر السوق المتعلقة بالنصائح الأخلاقية، حتى في الأماكن التي تكون في الحقيقة واضحة. فكل مجلة تقول للمرء كيف عليه التصرف. ويعتبر الهروب إلى الضمير «المُنتج» سببًا كذلك في انتشار الدعوة إلى الأخلاق في كل مكان ووجود لجان أخلاق في المعامل والجامعات.

فكلما كان توجه الأنا غير المنتج قويًّا ويسيطر على السلوك الأخلاقي للإنسان المابعد حداثي، وُظفت ملامح الأخلاق المابعد حداثية كـ «تعدد القيم، التسامح فيما يخص أنماط حياة أخرى، الانفتاح على الخارج وتعلم الثقافة»[1] للتعويض عن غياب التنظيم الداخلي، وبهذا حدوث تبعية واضحة للضمير «المُنتج». ذلك أن ما هو أخلاقي لم يعد يكمن داخل الإنسان، بل أصبح مُلكًا «مُنتَجًا» يجب اقتناؤه، يُعاش كقدرة أخلاقية ذاتية. وبهذا عُوضت الوظيفة التي كانت للضمير المتسلط بالضمير «المُنتَج».

(1) انظر: j. Ueltzhöffer 1999, S. 650.



الهيكل النفسي التنظيمي للأنا الموجه المريض

يعوض الناس ذوو الأنا الموجه، والذين يظهرون توجه أناهم عن قناعة وبابتهاج لمحيطهم، بنجاح عن ضعف أناهم عن طريق تشكيل طبعهم. أما أولئك الذين لا ينجحون إلّا قليلًا في التعويض عن ضعف أناهم بطبع موجه، فإنهم يطورون في الغالب أعراضًا مرضية نفسية، تسبب لهم المعاناة من ضعف أناهم هذا. يعانون من عدم امتلاكهم لأنا مؤسس في علاقاتهم مع الآخرين ومع أنفسهم. وبهذا فإنهم يشعرون، على الرغم من تشكل طبعهم، بعجز معاش أناهم والشعور بهويتهم.

في هذه الحالة يكون هدف العمل العلاجي هو مساعدة مثل هؤلاء المرضى لإيجاد إمكانيات تعويض، بتقوية الكفاءات «المُنتَجة»، وعن طريقها تقوية توجه أناهم. لكن إذا كان عمل التحليل النفسي يتمثل في «اكتشاف واقع الأصل والمستقبل» ـ «كمعطيين منفذين ـ»[1]، فإن هدف علاج التحليل النفسي يكون مغايرًا. تكون معاناة المريض إمكانية لفهم الأسباب التي أدت إلى ضعف أناه، وبهذه الطريقة يكون بالإمكان إزاحة البساط من تحت أقدام انتكاس الأنا. كما أن المحلل النفسي يعمل في الوقت نفسه على تقوية كفاءات أنا المريض. وكيفما كان هدف العلاج، فإن المرض النفسي للأنا الموجه يكون مناسبة لإظهار ديناميكية الاستلاب عند هذا الأنا.

يوضح الهيكل النفسي التالي لمريض سابق لنا (وافق بعد نهاية علاجه على نشر ما قاله في جلسات العلاج)، كيف عانى هذا الشاب بخصوص إشكالية هويته من التوجه السلبي لأناه. كان يعاني إذن من اضطرابات

(1) انظر: E. Frank-Rieser 2002, S. 51.



علائقية ومن ارتباك في حياته المهنية ومشاكل في فحولته. كان في السنة الجامعية الثالثة في عمر الإحدى والعشرين سنة، غيَّر ميدان تخصصه مرتين في السنة الثالثة هذه، شجعه على بدء حصص تحليل نفسي عندنا.

عندما زارنا أوفا Uwe ـ لنسميه هنا هكذا ـ للمرأة الأولى في العيادة، جلس على حافة الأريكة مائلًا إلى الأمام، وبدأ بحديث مكثف، وكأننا كنا أصدقاء منذ زمان. لم يكن يهمه من نحن ولا كيف كانت قاعة العلاج ولا ما إذا لم يكن من الضروري أن نبدأ الحديث. فقد شعرت في وعيي به، من خلال حركات عينيه وكلامه، بأنه ينساب في داخلي ويستحوذ على قاعة العلاج.

لم يتعب أوفا بعد الخمسين جلسة الأولى من وصف معاشه الذاتي الفارغ وغير ذي معنى وتبعيته لأشياء داخلية وخارجية. كان يتذمر من كونه لم يعد يشعر بأحاسيسه الخاصة ولم يكن قادرًا على معاش هويته باستقلال. يوضح كلام أوفا منذ بداية علاجه، الذي نظمناه طبقًا لتتابع جلسات العلاج، بأية صور ذهنية واستعارات عاش شعوره وتبعيته وارتباطه بالآخرين وبمحيطه: «لا أستطيع عمل شيء آخر غير الانقياد إلى أحاسيس محيطي»، «يؤثر المحيط في»، «أتدلى في الهواء»، «إنني مُجَوَّف»، إنني دون هوية بالتمام»، «إنني أشعر بنفسي أصغر مما أنا عليه»، «أتخلى عن نفسي لصديقي»، «أتكلم بسرعة لهجة مخاطبي أو أقلده في طريقة حديثه»، «أهرب إلى طبع الآخر وأسمع وأحس مثله وأشعر وكأنني في رحمته»، «من الضروري أن أحتفظ بغشائي الخارجي، لأنه الشيء الوحيد الذي أمتلكه»، «ليس من حق أحد أن يتعرف على حالتي الداخلية، ولهذا السبب لا يجب أن يعرف أيّ أحد بأنني أقوم بتحليل نفسي»، «إنني كإسفنجة، يمتص كل شيء»، «أنزلق بسرعة في طبع الآخرين»، «عندما



أكون مع صديق لي، فإنني لا أكون أنا، بل أكون متوحدًا به وأشعر بما يشعر به»، «أوجد لأُفْرِح الآخرين».

لم يكن عند هذا الشخص، بخصوص المواضيع الداخلية، أَيّ معاش هوية مباشر. فعندما كان يحكي عن أحلامه، فإنه كان يتجنب دائمًا الحديث عن نفسه بصيغة «أنا». لم يكن يحلم: «كنت أمشي في شارع ما»، بل: «أوفا يمشي في شارع ما ...». ففي وعي «الصوت الذاتي الداخلي» يدخل معاش هوية مستلَب بطريقة واضحة. كان بإمكان هذا «الصوت الداخلي» السيطرة عليه وعمل ما يريده به ومعه: («أوفا لا تفعل هذا»)، وقد يوافق ويمتدح: («أوفا إنك ببساطة عظيم»).

قال عندما نجح في غضون العلاج عاش ذاته كذات مستقلة وهو صحبة صديقه ماكسيميليان: «استطعت لوقت قصير أن أعيش ذاتي كأوفا ـ أوفا عوض أوفا ـ ماكسيميليان. وفي هذا الوضع لم يعد صوته الداخلي شيئًا مختلفًا عنه، بل أصبح صوت أوفا نفسه.

كان أفضل لعب بالنسبة له، والذي كان يمارسه «روحًا وجسدًا» في أوقات فراغه، هي الألعاب الخيالية. فقد كان يتعاطى هذه الألعاب وهو تلميذ في دار شباب المكان الذي يسكنه. وعندما التحق بالجامعة أصبح يمارسها من جديد. وعندما كان يتحدث عن أدواره المختلفة في هذه الألعاب، كان يقوم بذلك بولع: «يعجبني هذا كثيرًا، كثيرًا، كثيرًا جدًّا».

كان لأنشطة أخرى له في وقته الثالث مهمة التعويض عن معاش هويته المفقودة بسبب أنا مؤسس. قال: «لابد أن أعوض عن طبعي المفقود بممارسة رياضة الفنون الحربية والشراعية والتزلج على الأمواج ...، وهي كلها أشياء تعلمتها ووضعتها في حساب ممتلكاتي». تسمح له القوة

«المُصنعة» التي تعلم، تمامًا كباقي الناس الآخرين الذين كان يتقمص طباعهم، عيش معاش هوية ثانوي، لا يمكن الاحتفاظ به إلّا إذا بقي على اتصال بمحيطه وبقوته «المُنتجة».

على الرغم من ذلك فلا وجود لأية جودة تكافلية لهذا الاعتماد على الآخرين. فبمجرد ما يحدث هناك اقتراب فعلي، يظهر الخوف عنده ويهرب أو يتهرب: «لا أستطيع أن أبقى مع مَعَارِفِي أكثر من أربع إلى خمس ساعات، بعد ذلك تختفي المشاعر. أصبح مرهقًا إذن وأفضل البقاء وحدي والنوم لساعات طوال. وعندما أكون مع أصدقاء جيدين، أبقى معهم ثماني أو تسع ساعات، إلى أن أُرهق». وكان يحكي دائمًا بأنه كان مضطرًّا بعد كل حصة علاجية إلى النوم لبضع ساعات.

كان يعبر عن الصعوبات التي كانت تعترضه في بناء صلة عاطفية عوض عيش الاتصالات عن طريق استعارات، كانت تترجم فُصامه. كان يحكي باستمرار بأنه كان يعي الآخرين من خلال زجاجة أو حجاب أو ضباب: «إن الواقع مفصول عني بسور». «لا أعي من خلال عيني وأذني، لكن عن طريق الأحاسيس الداخلية». لكنه لم يكن يعني بهذا أحاسيسه الذاتية، بل تلك التي كان يستعيرها من الآخرين. كان ينجح في بعض المرات من تقطيع حجاب معاش هويته المُستلب عن طريق الحديث بصوت عالٍ أو عن طريق عطس قوي، يعني عن طريق إدراك جسدي لا سبيل للشك فيه.

توحي طرق «تقمصه» للآخرين ومراقبته للتشخص الإسقاطي بالكثير من الأشياء. تتمظهر في عدم تحمله وحساسيته لكل شيء ولكل ما يشعر به الآخرون: «لا أستجيب إلّا للمثيرات التي تُعْطَى لي. ليست لي هوية ذاتية»، أو: «أهتم بكل فتاة تهتم بي»، «لا أُعطي لأيّ شخص أية قيمة، إذا لم أعش قيمتي الذاتية».



كان له وعي شقي بمعاش تبعية معاش أناه اتجاه علاقته بالناس، وهي علاقة كان يحاول مراقبتها على الدوام: «عندما لا يظهر شخص ما أيّ اهتمام بي، فإنني أرجع سبب هذا إِلَيَّ أنا نفسي وأشعر بنفسي دون قيمة». ويحاول في يأسه هذا تشجيع نفسه بنفسه، فعندما كان وحده، كان يستمع إلى الموسيقى، وكان يفضل أن تكون بصوت عالٍ ويستعمل السماعات. وبهذا يمكن القول بأنه بالإمكان التعويض عن العجز في الطبع بالموسيقى.

من الأمثلة النموذجية عن هذا الشاب هو أنه استأجر غرفة في مكان دراسته لا يمكن أن يدخلها إلّا بالمرور بغرف زملائه الطلبة. وعندما تطور علاجه قليلًا ، ترك تلك الغرفة واستأجر غرفة كان يدخلها مباشرة.



الجزء الرابع

الإنتاج وتوجه الأنا المابعد حداثي

طموح المابعد حداثي والواقع النفسي

قاد التحليل النفسي للأنا الموجه المابعد حداثي في الجزء الثالث من هذا الكتاب إلى نتيجة تتمثل في كون هذا الأنا هو توجه طبع غير منتج. وقد علّلنا عدم إنتاجيته هذه بكونها تشكيل رد فعل اتجاه معاش أنا محدود ومتجاذب للواقع. فعن طريق رفض ما هو معطى وما هو غير اختياري وما يضيق النطاق والجوانب السلبية للواقع وما ينتج عنها من مشاعر السلبية وعدم القوة والضعف وغياب الحول والإقصاء، ينتج ضياع حقيقي لكفاءات الأنا وعجز لاواعٍ لمعاشه، يعوض بالكفاءات «المنتجة». وهكذا يبقى معاش الأنا بعيداً عن الوعي. ويتميز في هذه الحالة بتبعية وجودية للكفاءات «المنتجة» كتعويض لمعاش أنا بسبب كفاءات الأنا. وبما أن هذه التبعية تبقى لاواعية، فإن هذا يعني بأن التحديد الذاتي الحر لتوجه الأنا هو عقلنة لهذه التبعية الوجودية اللاواعية.

لا يجب أن تبقى وجهة النظر التحليل نفسية هذه لتوجه الأنا المابعد حداثي كتوجه طباعي غير منتج دون نقاش. ذلك أن هذا التوجه يطمح إلى إمكانية إعادة بناء وإنتاج التفكير المابعد حداثي، ومعه الواقع بصفة عامة وكذا الواقع الإنساني والاجتماعي، باستقلال عن الإكراهات الموروثة.



قد تكون تأثيرات أمراض الأنا الموجه مابعد الحداثي، التي استعرضناها في الجزء الثالث من هذا الكتاب، قوت الانطباع (الخاطئ)، المتمثل في كون طموح الفكر المابعد حداثي في ضرورة بناء الواقع دون الرجوع للمعطيات السابقة عنه أو تلك التي تخلى المرء عنها، قد كانت محط نقد التحليل نفسي باعتبارها مرضية. على الرغم من أن هذا الانطباع يخدع، لكنه يوضح بأنه من الضروري شرح الطريقة التي يتوهم الإنسان بأنه حر بإنتاجه للواقع. ما هو مهم هنا هو أخذ فهم محيط/ بيئة الواقع وفهم واقع «الإنسان» بعين الاعتبار. من هنا من الضروري أن يركز النقاش على الإشكالية التي تُفتح عن طريق آفاق ومعارف خاصة بالتحليل النفسي وتلك التي تتعلق بفهم الإنسان.

ستُشرح إشكالية فهم واقع «الإنسان» طبعًا كإشكالية متعلقة «بطبيعة الإنسان» أو ما يسمى بحالة/ شرط الإنسان، وعلى العموم كإشكالية متعلقة بصورة الإنسان. على خلفية الفرق بين صورة الإنسان المابعد حداثي وصورته في التحليل النفسي، سنتطرق إلى الصور المختلفة للإنسان من وجهة نظر تحليل نفسية كما نجدها عند إيريك فروم. وسنتناول هنا الفرق بين التوجه المنتج ونظيره غير المنتج، وسنوضح بأن وجود التوجه المنتج لا يعتبر فقط إرثًا للتفكير المثالي.

التفكير المابعد حداثي وتفسيره التحليل نفسي

تطالب أغلبية الاتجاهات الفكرية المابعد حداثية، ليس فقط بمساءلة تمثل ماهية الإنسان وصورته، بل كذلك بفك شفراته وتفكيكها. لا يحق لأيّ كان أن يقول من هو الإنسان في معنى أطروحة موضوعية، ولهذا السبب يُزعم بأن لا وجود لا لطبيعة إنسانية ولا لجوهر له، يعني لا وجود لأية خصائص وجودية ضرورية له أو قوانين خاصة بوجوده. كما أن هذه



الاتجاهات الفكرية تزعم بأنه لا يمكن تحديد ما هو الإنساني ـ ما يطابق الإنسان ـ ولا ما هو ممكن إنسانيًّا. من هذا المنطلق، لا يوجد هناك أيّ معاش هوية قار، ولا أيّ تصور عن الإنسان «الراشد»، ولا أيّ نزعة إنسانية أو أوطوبيات. طبقًا لنوربيرت بولتس Norbert Bolz مثلًا، على عصر العقل والنقد التنويريين، الذي كان يبحث عن بدائل أو حقيقة جديدة، أن يترك المكان لـ «وعي معقد رصين»[1].

إذا رجعنا للجزء الثالث من هذا الكتاب، حيث استعرضنا معنى التحليل النفسي لتوجه الأنا المابعد حداثي، يمكن القول ببساطة، بأن هناك بعض الأبعاد في التفكير المابعد حداثي تعتبر كـ«ظواهر لروح العصر»، يمكن فك شفراتها وتفكيكها. ويتعلق الأمر هنا بالخصوص بمطلب ما بعد الحداثة التالي: لكل واحد حق اختيار طريقة عيشه بحرية وباستقلال ذاتي. ويبرر هذا الحق في ادعاء كون الواقع ما هو في العمق إلّا بناء ذاتي. ويمكن شرح مثل هذا المطلب بالتحليل النفسي كمقاومة لمشاعر لاشعورية (كالشعور بالتبعية أو القيود التي تفرضها الحياة). طبقًا لهذا فإن هذا التبرير يصبح تبريرًا ظاهريًّا فقط وعقلنة للأمور.

تتمثل وظيفة العقلنة، كما أوضحنا سابقًا، في تأسيس سلوك فعلي/ واقعي بطريقة يظهر بها ذا معنى ويعلن عنه أخلاقيًّا كذا قيمة. وبهذا يُفهم الكثير من الوجوه المختلفة لفهم وإنتاج الواقع، وكذا الصور المختلفة للإنسان، كَتَغيُّر في مضمون معناها، الناتج عن ضرورة إباحة/ إجازة السلوك المعدل بمساعدة عقلنته.

لا يمكننا هنا مناقشة الإشكالية المهمة بالكاد، المتمثلة في التساؤل حول ما إذا كان الأمر يتعلق دائمًا بتغيير في العقلنة ـ يعني في أبنية

(1) انظر: N. Bolz 1999, S. 3.



ذهنية ـ، بطريقة يكون فيها الواقع الإنساني بناء ذهنيًّا فقط. لكن من اللازم شرح هذا الموقف. إذا بقي المرء على مستوى معنى المفاهيم واللغة، فإن كل البراهين تكون صالحة للبرهنة على وجهة النظر القائلة بأن الواقع ما هو إلّا بناء ذهني. ليست هناك أية إمكانية على مستوى التعبير بالرموز لتجربة ما، للفهم الصحيح لها لغويًّا ومفاهيميًّا وضمان خصوصيتها. يُسَوَّقُ كل مفهوم كيفما كانت «قداسته» ويُستحوذ عليه من طرف «الخصم». وقد كان مثلًا مصير مفاهيم كمفهوم «الله»، «القداسة» أو «الخلاص» هكذا في التاريخ وفي الحاضر، والمصير نفسه تعرفه مفاهيم مثل «البديل»، «الإبداع/ الخلق»، «العقل»، «الإنتاج»، «الإنساني» أو «أصيل». لكن هناك تجارب تختلف عن المفاهيم التي ذكرناها، والتي لا يمكن الولوج إليها إلّا عن طريق إعادة كتابة هذه التجارب في الفن مثلًا أو التصوف أو اللغة الرمزية أو الشعر، الأساطير، الأحلام، الحكايات، الملحمات.

يقدم التمييز التحليل نفسي بين العقلنة والدوافع أو الحوافز اللاواعية محاولة لفهم معاني التجارب بعيدًا عن الفهم المفاهيمي، بالتمييز بين شرح المعاني الواعي واللاواعي. وتبقى إشكالية ما إذا كان شرح المعاني هذا صحيحًا أو غير صحيح متوقفًا أساسًا على القدرة الذاتية للقيام بهذه التجربة، كفهم مثلًا ما إذا كان الشخص الذي يقابل طفله بعداء قد تعرض هو نفسه لمثل هذا العداء وهو صغير.

عندما نطبق هذا على مشكل العقلنة ومضمون معناها اللاواعي، فإن ما يهم هنا أيضًا هو ما هي التجارب التي عاشها المرء لكي يتعرف على العقلنة كعقلنة. وقد تكون النقطة المرجعية لمعرف مثل هذا الحكم هو محاولة عقلنة سابقة على العقلنة التي يود المرء معالجتها؛ لكن قد تكون تجربة مُنْتِجَة في المعنى الفرومي. لنشرح هذا الأمر بمساعدة مثال: يمكن



شرح فهم الأنا الموجه مابعد حداثي للعلاقة مع أشخاص آخرين كاتصال حيني من طرف الموجه إنتاجيًّا كعقلنة لعدم القدرة على الانخراط العاطفي في علاقة مع الآخرين. وما نعنيه بـ «الانخراط العاطفي» هو القدرة على إعطاء الآخر القيمة والاستمتاع بقربه والقلق عليه وفهمه في وجوده هكذا والاشتياق له عندما يغيب. وقد يفسر الموجه سلطويًّا الفهم المابعد حداثي لعلاقته بالآخرين كعقلنة لعدم القدرة على الارتباط القوي بهم. ما يفهمه من «الارتباط القوي» هو الوفاء مدى الحياة وتحديد دور مُلزِم، علاقة حماية، واجب متبادل للاعتناء بالآخر، مستوى عال من الاعتماد على الآخر/ الأمانة/ الوفاء ومنع ربط علاقة مع شخص آخر.

يفهم كلا الشرحين الفهم المابعد حداثي للعلاقة كعقلنة. لكن الأنا الموجه مابعد حداثي سوف يرفض هذا التفسير، بل سيعتبر فهمه هذا للعلاقة كفهم ذاتي أصيل من النوع الناجح لعيش علاقة ما. في هذا المناخ، لا يكون من السهل الوصول إلى استنتاج مُرْض، من غير واقعة كون كل واحد يبني حقيقة واقعه كما يحلو له ويعتبر تفسيره كالتفسير الصائب الوحيد ويدعي بأنه يفهم جوهر العلاقة بين البشر. ولهذا السبب لا يحق لأي كان اعتبار فهم مغاير لفهمه كعقلنة وحطه محط تساؤل.

هناك مخرج لهذا الطريق المسدود: إذا انتقل الثلاثة من مستوى التفسير إلى مستوى التجربة ويحاول كل طرف الإحساس بالكيفية التي يعيش بها الآخر العلاقة، فإن كل واحد يستطيع الشعور بتأثير التجربة التي عاشها الآخرون. سيلاحظ ما هو مغاير عندما يدخل في تجربة أخرى، وستكون له رغبة، انطلاقًا من تأثير التجربة هذا، الوصول إلى تقريرات كيفية لهذه التجربة. والسؤال الجوهري الآن هو ما إذا كان بالإمكان للثلاثة الوصول إلى التقريرات الكيفية نفسها للتجربة. هناك الكثير من الأشياء تؤكد افتراض حدوث هذا الأمر، إذا ما عاش المرء تجربة هذه



العلاقة بطريقة منتجة. ذلك أنه بالإمكان أن يفسر الثلاثة تأثيرات هذه التجربة عليهم بطريقة كيفية إيجابية. من طبيعة الحال بالإمكان الاعتراض على هذا الافتراض، لكن من الضرورة أن ينطلق هذا الاعتراض من مستوى التجربة نفسه ويُقَدمه كَمُمْكِنٍ.

يتأسس افتراض إمكانية وصول الثلاثة إلى تفضيل تجربة العلاقة المنتجة تحليل نفسيًّا على مبدأ كون التجربة المنتجة تُشكل أساسًا على ممارسة القدرات الذاتية. ولهذا السبب، فإن هذه الأخيرة، بما أنها هي التي تؤسس تشكيل العلاقة، لا تُكبت في معاشها الواعي، لكنها تكون في خدمة معاش التجربة. ويمكن التعرف على كمية التوجه الإيجابي في المقام الأول في «إيجابية المعاش»، عندما يعيش الإنسان انطلاقًا من قدراته الذاتية. ويمكن التعرف عليها كذلك في الكيفية التي تظهر قوة وكفاءة الأنا في ممارسته لقدراته الذاتية وما إذا كانت وظائف هذا الأنا ناضجة أم لا، وهو نضوج يُمكِّنُه من كفاءة الأنا المتمثلة في إدراك الذات والواقع المحيط بها بتميز. ويمكن شرح «المعاش الإيجابي الواضح» المؤسس على الكفاءات الكبيرة للأنا بالرجوع إلى تأثيرات التوجه المنتج. وقبل الخوض في هذا الأمر، من اللازم توضيح الصورة التحليل نفسية لإريك فروم وتصوره للتوجه المُنْتِج.

التصور التحليل نفسي للإنسان عند إيريك فروم

تخلصت تخصصات العلوم الاجتماعية في القرن العشرين من التصور القائل بأن هناك خصوصيات للإنسان ولما هو إنساني على طول الثقافات والفئات والأوساط الاجتماعية. أما اليوم فإن ما يسمى بـ «العلوم البيولوجية» تؤكد بأنه بالإمكان «شرح» الإنسان عن طريق الجينات البيولوجية وتاريخ جيناته، عصبيًّا وبيو ـ سوسيولوجيًّا، وبأنه



بالإمكان عمل كل شيء في هذا الإطار. وطبقًا لهذا، فإن السوسيولوجية النسبية الحالية ـ ولكي تساير روح عصر ما بعد الحداثة ـ قد خصصت مكانًا فسيحًا للاعتقاد بأن كل شيء ممكن بيولوجيًّا. وتحاول تيارات السيكولوجيا اللحاق بهذا القطار.

في مقابل هذا الاتجاه القوي في ميدان العلوم وجامعات العلوم يبدو تأكيد المحللين النفسانيين والسيكو ـ إنسانيين، وأيضًا بعض علماء الأحياء والأعصاب، القائل بأنه لا يمكن عمل كل شيء أو كون الإنسان هو الوحيد الذي بإمكانه عمل هذا، كتقهقر للعلوم إلى ما قبل الحداثة في ميدان العلوم الطبيعية. أهناك إمكانية وحدود لما يمكن عمله خاصة بالإنسان وحده؟ إذا كان مثل هذا الشيء موجود، فإنه يشير إلى وجود إنتاجية وغياب أيّ تعسف خاصين بالإنسان. وهنا يطرح سؤال ماذا يميز الإنسان كإنسان. ويمكن شرح كون تصور صورة الإنسان المابعد حداثي لا يجب أن يكون بالضرورة تصورًا راديكاليًّا أو طبيعيًّا من خلال التصور التحليل نفسي لإريك فروم.

يستعمل فروم مفهومي «وجود» و«طبيعة» الإنسان، لكنه لا يفهمهما طبقًا لإرث الأنثروبولوجيات الطبيعية التقليدية. ما يميز الإنسان، طبقًا لفروم، ليست هي خصائص وجوده ـ ككون الإنسان مثلًا كائنًا اجتماعيًّا أو سياسيًّا ـ، لكن ما يميزه في نظره هي التناقضات، الناتجة عن الإمكانيات المتاحة له وعن حدود وجوده، التي من الضروري أن تعرف دائمًا توازنًا من جديد. وتحدث هذه التناقضات بسبب موهبة العقل فيه ووعي ذاته وقدرته على التمثل/ التصور. إنها إذن قدرات يستطيع من خلالها تجاوز ارتباطه بغرائزه الحيوانية، لكنها أيضًا القدرات التي تسبب «الصراعات والخوف»، وتؤدي إلى عدم «التوازن»، الذي يكون من الضروري على الإنسان مواجهته، لإعادة التوازن فيه. لكن بمجرد ما يحقق هذا الأخير،

فإن هناك تناقضات جديدة تظهر في حياته، تحتم عليه البحث من جديد عن التوازن. إن ما يشكل الوجود الإنساني هي الأسئلة التي يطرحها، وليس الأجوبة التي يتوصل لها[1].

بأية «أسئلة» يتعلق الأمر، والتي تجمع بين كل البشر ومن اللازم عليهم الإجابة عنها، حتى وإن كان الجواب غير نهائي؟ قدم فروم جوابًا مستفيضًا على هذا الأمر عندما تحدث عن الحاجيات النفسية للإنسان[2]. باختلاف عن الحاجيات الجسدية (الأكل، الشرب، النوم، الجنس)، التي يتقاسمها الإنسان مع الحيوان، فإن هناك حاجيات نفسية خاصة بالإنسان وحده (الارتباط/ القرابة، التجذر/ التشبث بالأصل، معاش الهوية، تعالي ما يوجد، إطار توجيه وموضوع إخلاص). وكما هو الأمر بالنسبة للحاجيات الجسدية، فإن الحاجيات النفسية تطلب بإلحاح كذلك تحقيقًا لها[3]، على الرغم من أن نوعية التحقق مرهونة بإمكانيات وحدود الإنسان.

يمكن للمرء أيضًا تحديد طرق الإشباع المتعلقة بالحاجات الجسدية (كالأكل مثلًا)، والتي تكون صالحة أو ضارة فيما يخص صحة الإنسان. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن تحديد طرق الإشباع النفسي كذلك والإمكانيات الصالحة والضارة لذلك. ما هو صالح من مثل هذا الإشباع هو كل ما يساهم في التطور النفسي للإنسان. يعني ما يساعده على وعي ذاته ومحيطه. أما الإمكانيات الضارة، فهي تلك التي تكون بمثابة عائق في وجه تطوره النفسي، أو تلك التي توقف تطوره الإيجابي. ولهذا السبب

(1) انظر: E. Fromm 1968g, GA IX, S. 339.

(2) انظر: E. Fromm 1955a, GA IV, S. 24-50 وكذا: 1973a, GA VII, S. 207-214، وكذا: R. Funk 2004, S. 17f.

(3) انظر: E. Fromm 1941a, GA I, S. 385.



تعتبر أشكال الإشباع الإيجابية تعبيرًا عن «القدرات الأساسية»[1]، التي تعتبر خاصة بكل نمط من أنماط الحياة، وتحاول أن تُحَيِّنَ عند الإنسان.

يكمن سبب عدم تحقق الإمكانيات الأساسية المرتبطة بحياة الإنسان في كون متطلبات الاقتصاد وما يقتضيه من تبعية هذا الإنسان له من أجل العيش معية آخرين في المجتمع، لا توفر أشكال الإشباع النفسي التي هو في حاجة لها لكي يتطور؛ لأن هدف متطلبات الاقتصاد هذه ليس هو تطور كفاءات الإنسان، بل اشتغال المجتمع، على حساب قدرة أفراده على التطور. هناك من طبيعة الحال إمكانيات تطور نفسي ثانوية، لا يمكن أن تتحقق، إلّا إذا تحققت القدرات الأساسية، السالفة الذكر.

ربط فروم في تمييزه بين طرق الإشباع التي تشجع توجه نمو الأساسية وتلك التي تعتبر حاجزًا لهذا التطور بما سماه الإنتاج المجتمعي لطبعه. طبقًا لهذا، لا يعتبر الإنسان لا «ظلًّا ميتًا للنماذج الثقافية»، ولا «مجموعة من الغرائز المحددة مسبقًا بيولوجيًّا»[2]. هناك إذن متطلبات وحاجات اجتماعية، تمامًا كما أن هناك متطلبات وحاجات إنسانية، حتى وإن لم يكن الإنسان «يندمج بطريقة لا حدود لها»[3].

تشترط كل حياة مجتمعية مشتركة إلى حد بعيد قدرة تكيف الفرد في ممارسة الحياة الاجتماعية، ويحدث هذا التكيف بالتمثل الداخلي لهذا الفرد لمتطلبات الإنتاج ونمط حياة وسطه الاجتماعي والقيام بما يود القيام به بشغف، وهذا ضروري للاشتغال والمحافظة على المجتمع. وإذا لم تتحقق الرغبات الأساسية للفرد في مجتمعه، فإن التأثير السالب

(1) انظر: .E. Fromm 1947a, GA II, S. 137f

(2) انظر: .E. Fromm 1941a, GA I, S. 230

(3) المرجع السابق نفسه، ص 385.



للمجتمع يحدث، وبهذا يقوم ما سماه فروم التوجه المجتمعي غير المُنْتِج. وعلى الرغم من أنه يؤكد بأن النفس الإنسانية تتأثر بالمجتمع فيما يخص طبعه المجتمعي، فإنه يؤكد كذلك بأنه لا يجب فهم «الصحة النفسية» كتكيف للفرد في المجتمع، لكن كـ «ملاءمة المجتمع لحاجيات الناس [...] ويتعلق الأمر هنا بما إذا كان المجتمع يقوم بدوره في تشجيع تطور الصحة النفسية للفرد أو أنه يُعيقها»[1].

من هنا، فإن السؤال الحاسم في تلبية الحاجيات النفسية هو ما إذا كان للفرد إمكانية تطوره الأساسية، أو ما إذا كانت هذه الإمكانية تتعثر في توجه الطبع المجتمعي غير المنتج، الذي يُنتجه هذا المجتمع بذاته. لا يرتفع الإنسان عن ضرورة إشباع حاجاته النفسية. يكون على الدوام مرتبطًا بناس آخرين مثلًا. ولكي لا يكون مضطرًّا ليقرر من جديد دائمًا كيف يمكنه تلبية هذه الحاجات، فإنه يطور نماذج رد فعل نفسية في شكل خصائص طباعية، تطابق إلى حد كبير ما يشجعه ويطالب به المجتمع. تتوقف حاجة الإنسان إلى ربط علاقة بالآخرين بخاصيات طباعية تعاطفية ومحبة واهتمام بالآخرين أو بخاصيات طباعية تأخذ مسافة مما يحدث في المجتمع أو بعدوانية اتجاهه أو حتى محاولة هدمه، بالتوجه الطباعي المنتج أو غير المنتج لهذا الإنسان.

إذا كان الإنسان مغتربًا/ مستلبًا عن الإمكانيات التي تساعده على النمو، فإنه يلجأ إلى الإمكانيات الثانوية، التي حتى وإن كانت تحقق له حاجياته النفسية، لكنها لا تقود إلى مساهمة هذه الإمكانيات في تحقيق حياة إنسانية منظمة ومغايرة. على العكس من هذا فإن الإمكانيات الثانوية تُظهر ديناميكية داخلية، تقوي استلاب الإنسان وإبعاده عن إمكانياته الرئيسة،

(1) انظر: E. Fromm 1955a, GA IV, S. 54f.



يعني أنها تعيق حياة الإنسان فيما يخص توجه التطور القابع فيه، بل قد تقضي عليه. بهذه الطريقة إذن يقوم عرض الانهيار Verfallssyndrom ، عوض عرض النمو[1].

تقود إشكالية صورة الإنسان عند فروم إلى التمييز بين الإمكانيات الأساسية التي تساعد على النمو ونظيرتها الثانوية التي تعيق تحقيق الرغبات النفسية وتثبيتها Verinnerlichung في توجه طباعي مُنْتِج أو غير مُنْتِج. ويعني «المُنْتِج» هنا بأن إمكانيات النمو الخاصة بالإنسان تقوم على أساس وضع الإمكانية، التي يسمح بها «النشاط».

قد يبدو مصطلح «المُنْتِج» أو نظيره «غير المُنْتِج»، بالنظر إلى السيطرة الكبيرة للإنتاج الاقتصادي، غير ناجع للحديث عن التوجه الذي يريد الإنسان تحقيقه/ الوصول إليه طبقًا لسلوكه الواعي أو غير الواعي. ولهذا السبب أضاف فروم نفسه في هذا الإطار مصطلحات أخرى. وأهمها مصطلحات مثل «البيوفيليا biophil»، «النيكروفيليا nekrophil»، «عرض النمو»، «عرض الانحلال/ السقوط»[2].

كيفما كانت أهمية بعض المصطلحات، فإن ما يهم هي المعرفة أو التجربة التي تميزها. فعلى الرغم من أن مصطلحي «إنتاج» و«إنتاجية» التوجه يحاولان إثارة الانتباه إلى النتيجة والنتاج، فإن المقصود منهما هو تمييز التجربة الموجهة بسيرورة، مفادها ضرورة إحضار وتطوير/ تنمية شيء ما. ما كان يهم فروم بالدرجة الأولى هو كون المعرفة التي توصل

---

(1) انظر في هذا الإطار الرسم البياني لديناميكية عرض النمو والانهيار في E. Fromm, 1964a, GA II, S. 238.

(2) ظهر هذان المصطلحان لأول مرة عند فروم عام 1964م في كتابه: «النفس الإنسانية Die Seele des Menschen»، وبعدها شرحه باستفاضة سنة 1976م في كتابه: «الامتلاك أو الوجود Haben oder Sein».



إليها علماء الأعصاب، والمتمثلة في كون كل ما هو حي يمتلك في ذاته الميول الأساسية، التي تساعد إمكانيات الحياة على التطور، بحيث إن: «الإنسان يملك هدفًا ملازمًا له»[1]، وهو الذي «يمكنه تحديده[*] كوجود يبحث بنشاط/ حيوية عن تطوير نفسه بالطريقة الأمثل، على الرغم من أن هذا البحث لا يتحقق في غالب الأحيان، لأن الشروط الخارجية لا تكون مواتية»[2]. ويمكن البرهنة على هذا البحث الملازم للإنسان من أجل تطور أمثل من خلال تحليل النشاط العصبي له ووظائف المثيرات المنشطة. يلخص فروم هذا الأمر، بالرجوع إلى عالم الأعصاب ر. ب. ليفينغستون R. B. Livingston، بقوله: «تُظهر الخلايا العصبية بمقدار ملفت للنظر النشاط والاندماج. على خلاف الفرضية المؤسسة لسيكولوجية المنبه ـ الاستجابة، فإن المخ لا يستجيب للمؤثرات الخارجية وحسب، لكنه نشيط بذاته بطريقة عفوية»[3].

تطورت المعرفة المتعلقة بتطور المخ وقوانينه الخاصة في السنين الأخيرة بطريقة ملحوظة وقادت إلى تصورات مختلفة لصورة الإنسان عند علماء الأعصاب. وبالنظر إلى التوجه المنتج الذي نناقش هنا، فإن المعارف المهمة هي تلك التي تهتم بطريقة نقدية بصورة الإنسان المتعلقة بـ «التقنية الجينية» وتركز على علاقة التعلم وتجارب المحيط في علاقتها بتطور تعقيد واختلاف المخ الإنساني.

يؤكد عالم الأعصاب البيولوجي جيرالد هوتهير Gerald Hüther

(1) E. Fromm, 1973a, GA, S. 235.

(*) أيّ تحديد الإنسان.

(2) المرجع السابق نفسه، ص. 230.

(3) E. Fromm 1991h (1974), GA XII, S. 172.



على: «الاستعمال غير المستقل للإمكانيات التشكيلية للعقل الإنساني»[1]، والذي لا يصبح مرئيًّا فقط، عندما يحس أن هناك عطبًا. أكثر من هذا يضيف: «بأن الاستعمال المكثف لمراكز معينة لمخ عادي [...] يقود إلى تعقيد وتكثيف الشبكات العصبية المكلفة بالقيام بمهمة معينة، بل إنها تصبح أكبر». وفي الاتجاه نفسه الذي تؤكد الأطروحة القائلة بأن قدرات الخاصيات الإنسانية تتطور باستعمالها وتمرينها، يركز هوتر: «إذا فكرنا في الأمر بجدية»، فإن هذا يعني: «إن عقلنا يتطور طبقًا للطريقة التي نستعمله بها. فالروابط العصبية التي تنشط بكثرة وبنجاح، لكي نتوجه في العالم، تتطور أكثر. أما تلك التي لا نستعملها إلّا قليلًا ، فإنها إما أن تبقى على حالها أو أنها تتقلص تدريجيًّا»[2].

يمكن توضيح أطروحات فروم المتعلقة بالميول الملازمة لتحقيق التوجه المنتج بالنمو الكبير للارتباطات العصبية في الأعوام الأولى من حياة الطفل وبتراجعها كلما تقدم في السن. فالمهارات التي تمارس من طرف الطفل في طفولته، تتراجع بتقدمه في السن. ويتحدث هوتهير في هذا الإطار عن: «القدرات الجينية لتشكيل مخ قادر على التعلم طيلة الحياة بطريقة معقدة ومتشابكة للغاية»[3]. ويمكن لهذه القدرات أن تعاق بسبب علاقات عقيمة وباردة وتجارب سلبية في المحيط حيث يعيش الطفل. والواقع أن التوجه المنتج لا يكون ثانويًّا عند الإنسان ويضاف إلى قدراته، بل يوجد كقدرة أساسية ويحاول التحقق، لكنه يتأثر كذلك بالأمن النفسي الداخلي، الذي يمنحه المحيط حيث يعيش الطفل.

عندما تُنشط القدرات بطريقة من الطرق، فإن ديناميكية داخلية خاصة

(1) Gerald Hüther 2002, S. 84.

(2) المرجع السابق نفسه ص. 85.

(3) المرجع السابق نفسه، ص. 67.



تبدأ في الاشتغال، تقوم بتطوير هذه القدرات. توصل هوتهير إلى التمييز بين مخ الإنسان ومخ حيوان الخلد «المشدود بسلك»، وأكد بأن مخ الإنسان لا يتميز فقط بإمكانية أخذ قرار بطريقة حرة، بل إنه عندما يقرر: «فإنه يستعمل مخه دائمًا بالطريقة نفسها التي قام فيها بأخذ هذا القرار، ويدمج في تنظيمه الداخلي لمخه كل ما تتطلبه منه أوضاع جديدة»[1].

تشرح هذه الأمثلة القليلة لنتائج البحوث البيو ـ عصبية، بأنه يمكن البرهنة على الصورة التحليل نفسية للإنسان التي قدمها فروم وكذا تصوره للتوجه المنتج من وجهة نظر بيو ـ عصبية كذلك. فقد تطرقنا للفهم الخاص للتحليل النفسي فيما يتعلق بالإنتاج في الجزء المخصص لـ «كفاءات الأنا» (الجزء الثالث). وبناء على هذا فإن الإنسان المُنْتِج هو الذي يطور إمكانياته الجسدية والنفسية والعقلية بطريقة مثلى. وفي كل هذا فإنه يطور قدرات أناه التي تسمح له بوعي وتغيير واقعه الداخلي والخارجي بطريقة نقدية ومؤسسة جيدًا.

إن تمييز إمكانيات التوجه المنتج طبقًا لتمظهرات الإنسان (التفكير، الإحساس، السلوك)[2] قادت فروم إلى تركيز نظريته العامة حول الإنتاج على هذه الأبعاد. فعندما يكون سلوك الإنسان موجهًا نحو التفكير والإحساس والسلوك بنشاط، يعني طبقًا لممارسة قدراته الذاتية الخاصة التي تساعده في حياته نفسيًّا وروحيًّا وجسديًّا، فإنه يصل إلى العقل المنتج (ويقصد فروم بذلك القدرة للوصول إلى وعي الواقع بطريقة واقعية) والحب المنتج (القدرة على الإحساس بالميول للحب والاحتفاظ بالاستقلاق الذاتي) والعمل المنتج (القدرة على السلوك الخلاق).

(1) Gerald Hüther، ص. 98.

(2) انظر في هذا الإطار: Rainer Funk 2003, S. 19f.



بما أن النظرية العامة للإنتاج النفسي محكومة بمعنى التعاريف/ المصطلحات، التي يمكن أن تُفهم بطرق مختلفة وقد تُستغل كأشكال مثالية فارغة لعقلنة كل أشكال السلوك (من منا لا يستعمل كلمة «عقلنة»، «حب»، «إبداع»؟)، فإنها(*) تحتاج إلى تتميم عن طريق نظرية نفسية للإنتاج خاصة، تتساءل عن معنى الإنتاج ومعنى التوجه المنتج بالنظر إلى توجه غير منتج فعلي. فقط عندما يعرف المرء مثلًا ما هي كفاءات الأنا التي يُحرم منها توجه الطبع المتسلط، يمكن فهم ما يعنيه الإنتاج وكيف يمكن إعادة كسب/ اكتساب هذا الأخير من طرف الموجه بطريقة متسلطة. من الضروري في الختام الاهتمام بسؤال ما هي الإمكانيات التي يتوفر عليها الإنسان المابعد حداثي للوصول إلى التوجه المنتج[1].

الإنسان المابعد- حداثي بين الإنتاج وعدم الإنتاج

توجه الأنا كبناء خاطئ

من العوامل الكثيرة التي تحدد اشتغال المجتمعات، حيث يتخذ فيها نمط الحياة وتوجه مجتمعي مابعد حداثي أهمية تنمو باستمرار، هناك أهمية التقنية الرقمية ووسائل الإعلام الإلكترونية. إنها تسمح بطريقة قوية بما كان الإنسان يصبو إليه منذ القدم: إنتاج الواقع طبقًا للحاجيات والأمنيات الذاتية. وقد يساعد هذا التصعيد بمساعدة الفن والثقافة والتقنية، إلى تقدم هائل للكفاءات الإنسانية، إذا استعمل كتوسيع للإمكانيات الإنسانية ذاتها. لا يعتبر إنتاج الواقع في حد ذاته دائمًا تعبيرًا عن استلاب الإنسان، لكنه يعد تعبيرًا عن كفاءة الإنسان في المقام الأول.

(*) أي النظرية.

(1) Rainer Funk 2003, S. 24 - 22.



يمكن للبحث عن التصعيد أن يُنتج تأثيرًا مضادًّا ويقود إلى استلاب الإنسان من قدراته الإنسانية. وقد وُجدت هذه الإمكانية غير المنتجة منذ القدم كذلك. تعرف عليها الأنبياء كعبادة للأصنام: «يأخذ الإنسان قطعة خشب، يعمل من نصفها نارًا ويطهو حلواه وينحت من النصف الآخر تمثالًا ويعبده كإله»[1]. يعني الاستلاب كعبادة الأصنام مثلًا: «بأنني أسرق نفسي بنفسي وأُفرغها وأتجمد وأتخلص من أية تجربة حية. يعني بأنني أعكس أفكاري الشخصية وحبي ومشاعري على شخص أو شيء آخر خارجًا عني»[2].

لا تستثني إمكانية التعامل المستلب مع القدرات التقنية «المصنوعة» تعاملًا إنسانيًّا مع هذه الأخيرة. فليس لأن المرء ينظر للخشب نظرة مثالية ويقدسه كإله، يجب عليه الاستغناء عنه لمساعدته في طهو خبزه. وينطبق الشيء نفسه على التعامل مع الواقع المصنوع اليوم. فكل من غادر تقنية الحاسوب أو إمكانيات الموسيقى المصنوعة أو التحكم الرقمي في عمليات الإنتاج، فإنه يقطع الطريق على نفسه فيما يخص توسيع الإمكانيات الهائلة لكفاءاته الإنسانية. أما مسألة حصول تعامل غير منتج وسالب أو منتج مع الإمكانيات «المصطنعة»، فإنه أمر يحسم فيه القدر، الذي تعاني منه الكفاءة الإنسانية في استعمالها لما هو «مصنوع». فإذا أعطى الإنسان المابعد ـ حداثي قيمة خاصة لهذا التعامل للقدرات «المصنوعة»، أو حتى تعويضها لقدراته، فإن الجزء الكبير من الخشب سيُستعمل لصناعة الأصنام، وبالتالي يتقوى استلاب الإنسان من كفاءات أناه الإنسانية.

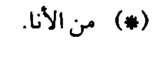
(1) Erich Fromm 1992g (1959), GA XII, S. 210.

(2) Erich Fromm، المرجع السابق نفسه، ص. 209.



ما هو حاسم هو مصير القدرات الإنسانية وعلاقة القوة أو التوافق بينها وبين الإمكانيات «المنتجة»: هل لهذه الأخيرة ميول داخلية لتعويض القدرات الإنسانية؟ مبدئيًّا، لابد من الإجابة عن هذا السؤال بالنفي، حتى وإن كان لاستراتيجية التسويق المابعد حداثية هدف آخر ولا يجب غض الطرف على كون الإمكانيات «المصنعة» تحمل في طياتها إغراءً كبيرًا. وبهذا فإنها تقود إلى تضليل يؤدي إلى الاستغناء عن منجزات الأنا، التي لا يحققها إلّا بمشقة النفس والتي لا يمكن الاستغناء عنها لتحقيق كفاءة الأنا. مبدئيًّا لا يطور لا الخشب ولا التقنية الرقمية ولا برامج التدريب ولا التدريب الخطابي/ البلاغي من ذاته ديناميكية تدفع البشر إلى الرغبة في تعويض القدرات الإنسانية وكفاءات الأنا. ما يرافق استعمال الإمكانيات «المصطنعة» هو بدون شك تغير في ميدان المعرفة العملية، كما شاهدنا ذلك فيما سبق طبقًا لتجربة عائلة بورو Boro. على عكس القدرات الخاصة، فإنه بالإمكان تعلم المعرفة العملية عن طريق مواقع إلكترونية (غوغل مثلًا) وتقنيات رقمية أخرى، إذا فرض الوضع ذلك.

بما أنه ليس هناك صراع بين القدرات «المنتجة» ونظيرتها الإنسانية، فليس من الضروري أن يكون إنسان ما بعد الحداثة موجهًا أنيًّا(*). فمن الممكن أن يستعمل الإنسان المعاصر الإمكانيات «المصنوعة» دون أن يكون هذا الاستعمال موجها أنيًّا ويقود إلى تعويض القدرات الإنسانية. وفي هذه الحالة يجب اعتبار الطبع المجتمعي للأنا الموجه بناء خاطئًا من الناحية السيكولوجية. ما يهمه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، هو تعويض الإمكانيات الإنسانية بنظيرتها «المنتجة». ويمكن وصف هذا الأمر كما يلي.


(*) من الأنا.



من وجهة نظر تحليل نفسية، يكمن السبب الرئيس لهذا البناء الخاطئ في السعي الملازم، القابع داخل الأنا الموجه، من أجل إبدال الإمكانيات الإنسانية بالإمكانيات «المنتجة». ويعتبر هذا السعي من جهته سببًا في أبنية خاطئة أخرى، تعتبر خاصة بالأنا الموجه. ونلخص هنا بعض الأمثلة على هذا الأمر:

- التقليل من قيمة ممارسة القدرات الجسدية والنفسية والعقلية وإعطاء قيمة كبيرة للإمكانيات «المنتجة».

- التقليل من قيمة كل ما يعني الجهد والانضباط وجعل العافية والتخفيف من الألم المثل الأعلى.

- كبت جوانب واقعية لا يمكن الاستغناء عنها كتجربة المرض والألم وتراجع القوة الجسدية في الشيخوخة والتحكم في الأوضاع المتأزمة والإيحاء الذاتي بإمكانيات الواقع المصنع كالرغبة في العيش في شباب دائم والنمو الذاتي الخالي من العنف والألم.

- إخفاء مشاعر السلبية وعدم الحول/ القدرة والضعف وعدم الحيلة والعزلة واستحضار مشاعر إيجابية فكرًا وإحساسًا والنشاط غير المحدود والقرب/ الارتباط بالآخرين من كل جانب.

- إنكار المشاعر السلبية المُعاشة كالخوف والشعور بالذنب والعار وعذاب الضمير في شكل غياب الخوف والذنب والضمير.

- تجنب أوضاع المواجهة مع النقد والنقد في حد ذاته والبحث الذاتي عن التناغم والمخاطرة.

- التعامل مع الواقع المحبط وخيبة الأمل وتفضيل الواقع الخيالي.



ـ عدم الرغبة في كل ما يعني التبعية والاعتماد على الغير والرغبة في مراقبة الذات ومراقبة الآخرين أو الإمكانيات «المنتجة».

نجد الأبنية الخاطئة نفسها من طبيعة الحال في أنماط وجود وحياة أخرى، حيث ينتج البناء الخاطئ «للأنا الموجه» من محاولة إحلال القدرات الإنسانية بالإمكانيات «المنتجة». والسؤال الملح الذي يطرح نفسه هو: أية قوى تكون مشتغلة ونشيطة في عملية إنتاج إمكانيات مصطنعة جديدة ومذهلة لإنتاج وبناء واقع جديد وتؤدي نفسيًّا إلى بناء خاطئ أو تُقَدَّمُ لخدمة هذا الأخير؟

إن أقوى قوة يمكن للمرء ملاحظتها، والتي تنتج عدم توافق بين الإمكانيات «المنتجة» والقدرات الإنسانية وتشجع على ديناميكية تعويض الثانية بالأولى هو تسويق الإمكانيات الجديدة لإنتاج الواقع في اقتصاد رأسمالي عالمي. وكيفما كان الشكل الذي يتمظهر فيه الأمر، فإنه يتميز بكونه يؤكد بأن الهدف الأسمى للتسويق، ليس هو الإنسان وحاجياته ونجاحه، بل النجاح الاقتصادي، القابع في عملية تسويق الإمكانيات «المصنعة»، وما يحصل عليه المستثمرون وأصحاب الأسهم من خلاله. لا تترك استراتيجيات السوق التي تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذا الكتاب أيّ شك في كون الاقتصاد الرأسمالي الحالي، وبالخصوص الليبرالية الجديدة، تدفع البشر إلى الاستغناء عن كفاءات أناهم لصالح الإمكانيات «المنتجة». ولهذا السبب فإن القوى التي تساعد على هذا الأمر وتقود إليه، تلعب دورًا حاسمًا في تعزيز مصالح الاقتصاد الرأسمالي.

لا يمكن هنا إظهار لماذا وبأية طريقة بالضبط يقوم الاقتصاد الرأسمالي بتعويض القدرات الإنسانية بنظيرتها «المصنعة». والإشكالية الأكثر



أهمية، المتمثلة في التساؤل عن أيّ النماذج الاقتصادية والتسويقية تكون ضرورية لتقوية كفاءات الأنا في مواجهته لتسويق الإمكانيات «المنتجة»، هي إشكالية تتجاوز إطار هذا الكتاب.

ما يمكن القيام به في هذا الإطار، من وجهة نظر سيكولوجية محضة، هو محاولة تقديم تمييز يساعد على التعرف على مواطن تعويض الكفاءات الإنسانية بالكفاءات «المنتجة». بالإمكان تحديد الفرق بين الطبع المابعد حداثي المنتج ونظيره غير المنتج، وما هي الحدود بينهما وكيف يمكن للمرء تصور شراكة بينهما. سنبدأ الحديث هنا عن ميول التَّطْبِيب الذاتي عند الأنا الموجه.

التطبيب الذاتي عند الأنا الموجه

نعرف التطبيب الذاتي فيما يتعلق بالجسد بالخصوص. فعندما تظهر أعراض نقص ما في الجسم، كقلة الغذاء، يلتجئ الجسد إلى مخزوناته من الدهون. ويلاحظ هذا الأمر بصفة أوضح في اشتغال أجهزة المناعة وأجهزة إعادة التوازن في حالة الأمراض المعدية والجروح. لكن لا تنجح محاولات التطبيب الذاتي دائمًا بالكامل. فقد تحدث مضاعفات سلبية، قد تقود إلى مشاكل جسدية جديدة أو حتى إلى مرض كل جهاز المناعة.

الشيء نفسه نجده في الأمراض النفسية. فهناك محاولات إشفاء ناجحة وأخرى قليلة النجاح أو حتى غير ناجحة أبدًا. وفي هذه الحالة قد يحدث تراجع كبير وخبيث أو أمراض نفسية مزمنة أو نفس ـ جسدية. وفيما يخص الأنا الموجه، فما يهم هي محاولات العلاج الذاتية الناجحة وقليلة النجاح. والملاحظ هو أن بعض الناس، بسبب مزاولتهم لأعمالهم أو الذين قاموا بتجربة علائقية معينة مع شخص أو مجموعة من الأشخاص،



يكونون مضطرين لتعويض كفاءاتهم الإنسانية بإمكانيات «مصنعة». وعلى الرغم من ذلك، فما يمكن ملاحظته كذلك هو أن الكثير منهم يطورون الحاجة لممارسة تقوية قدراتهم الإنسانية عن طريق ممارسة هذه الأخيرة ويحاولون التوفيق بينها وبين الإمكانيات «المصنعة». وتتمظهر هذه الحاجة مرة فيما يسمى الوقت الثالث ومرة في كل جوانب الحياة.

يمكن ملاحظة الميول للتطبيب الذاتي في الأماكن حيث يتعلق الأمر بالحركة وقوة العضلات كمركز جسدي للقوة الذاتية. فقد طغى على سطح ممارستها اليومية إدخال العديد من الأدوات التقنية التي تساعد وتسهل القيام بالحركة. تتمظهر الرغبة في الحركة وإتعاب الجسد بأشكال ولأسباب مختلفة. والواقع هو أنه لم يسبق أن مارس الكثير من الناس في الماضي الرياضة بمحض إرادتهم كاليوم، سواء تعلق الأمر برياضة بناء الأجسام أو مجرد الحركة في حد ذاتها أو ركوب الدراجة الهوائية أو لعب التنيس أو الغولف أو القيام بجولات في الجبال أو السباحة أو التزلج على الجليد أو زيارة المراكز الرياضية أو القيام بحركات جيمناستيك في البيت أو مع آخرين خارج البيت. وعلى الرغم من أن الرغبة في التحرك هي تعبير مباشر على الرغبة في المرونة والتنقل، تميز الموجه تسويقيًّا وتوجه الأنا، فإن التأثير غير المنتج لهذا التوجه الطباعي يُختزل في ممارسة القوى الجسدية الذاتية.

على الرغم من ذلك لا يتمظهر في كل رغبة في الرياضة أو الجيمناستيك ميول للتطبيب الذاتي. يمكن للمرء أن يلاحظ من حين لآخر بأن ما يبحث عنه الكثيرون ليس هو ممارسة القدرات الجسدية، لكن التعامل مع الإمكانيات التقنية و«المنتجة». فبدون لباس خاص ليس هناك ركوب للدراجة الهوائية ودون مضرب تنيس، كالذي يستعمله نجوم هذه الرياضة، ليس هناك رياضة تنيس. من اللازم أن يكون الإنجاز



بالخصوص قابلًا للقياس والمقارنة. لا يمكن للعرق أن يتصبب من الجسم إثر ممارسة الرياضة إلّا باللباس الداخلي الخاص، ولا يمكن ممارسة رياضة الجري إلّا بلبس الحذاء الرياضي «المقرر» لذلك. ولا يمارس التزلج على الجليد إلّا إذا كان مستوى صعوبته يتطابق ومستوى صعوبة الأبطال في هذه الرياضة، ولا تُلعب كرة القدم إلّا إذا كان مستواها يضاهي مستوى فرق البطولة الوطنية. عندما تكون معدات وأدوات الرياضة والشروط التقنية لممارسة نوع رياضي معين وطريقة استعمال أداة رياضية أهم من ممارسة القدرات الذاتية للجسد، يمكن للمرء أن يفترض بأن الشراكة بين الإمكانيات «المنتجة» ونظيرتها الإنسانية لايزال بعيدًا. على العكس من هذا، فإن المرء في مثل هذه الحالات يصبح أداة لمساعدة الاقتصاد والصناعة الرياضيين لتجعل منه تابعًا للإمكانيات التقنية.

ما ينطبق على ميدان القدرات الجسدية الذاتية ينطبق كذلك على ميدان محاولة العلاج النفسي الذاتي. ما يمكن تسجيله هنا هو أن الأنا الموجه يحاول أن يقي نفسه من الأمراض النفسية عن طريق ربط علاقات مع الآخرين دون قرب مشاعري معهم واللجوء إلى التفكير الإيجابي وحده وإلى إنتاج الواقع الخيالي. ويعتبر تكوين مجموعات العلاج تعبيرًا واضحًا على هذا الأمر: لم يسبق أن وُجد هذا العدد الهائل من مجموعات العلاج، حيث يلتقي بانتظام بشرًا يعانون من المشاكل النفسية والعلائقية نفسها لمناقشة تجاربهم والتعبير عن مشاعرهم ومحاولة الوصول مجتمعين عن طريق خطوات فعلية إلى تحسين حالتهم. وتتوزع هذه المجموعات على ميادين مختلفة كمجموعات المدمنين على الكحول أو المخدرات وأمراض إدمان أخرى، وكذا مجموعات يعاني المنتمون إليها من أمراض نفسية وجسدية كأولياء أمر المعاقين ومن سبق له أن مر بتجربة

علاج نفسي من الآباء والأمهات ومن يحتاج إلى عناية خاصة والنساء أو الرجال الذين يربون أبناءهم وحدهم ومجموعات النساء أو نظيرتها للرجال أو تلك الخاصة بالمبلطجين gemobbten والمطلقين وأصحاب ميول جنسية تخرج عما يسمى القاعدة. لا ننسى في هذا الإطار بأن هناك مجموعات ما يسمى بمساعدة الذات من طرف الذات أو مجموعات علاجية مؤسسة على الدين والروحانيات والصلاة في جماعة، وحتى تلك التي يلتقي أعضاؤها بالتناوب في منزل واحد منهم، تكون لهم الحاجات نفسها، تمامًا كما تشتغل مجموعات العلاج الذاتي.

ما يلاحظ فيما يسمى محاولات التشافي الذاتي فيما يخص الجانب النفسي منها هو التأكيد القوي على المجموعة وعلى الإبداع/ الخلق. فالتأكيد على المجموعة يشبع حاجة الأنا الموجه في إمكانية وجوده على اتصال بأناس آخرين. أما التأكيد على الإبداع فإنه يحقق له رغبته في الإخراج الذاتي المستقل عن الآخرين. وكما هو الشأن فيما يخص دافع الحركة للأنا الموجه، فإن ما يلاحظ في محاولات العلاج النفسي الذاتي هو تقليصها إلى توجه غير منتج عنده.

كما هو الأمر عليه في محاولة التطبيب الجسدي الذاتي، فإن محاولات العلاج النفسي الذاتي يكون ملفوفًا بدرجة معينة من الشك. تبحث مجموعة المساعدة الذاتية في الكثير من الأحيان، وكذا الفاعلين في الميدان الثقافي، على تعامل غير منتج مع الإمكانيات «المنتجة/ المصنعة». كما سبقت الإشارة إلى ذلك فإن ما يجب فهمه من الإمكانيات «المنتجة» في ميدان العلاقات الإنسانية التي «تُقحم» في أناس آخرين وبرامج معينة وإدارة وتقنيات التواصل والتوجيه الخاص بالعلاقات وطرق العلاج وأنماط التحكم إلخ، هو أن الإمكانيات تستعمل من طرف الأنا الموجه وتراقب في اشتغالها من طرفه. طبقًا لهذا، يمكن القول بأن



التعامل مع الإمكانيات «المصنوعة» فيما يخص إمكانية الإبداع يبقى كذلك غير منتج، بحيث إن الأنا الموجه لا يبحث فيها وبواسطتها عن تطوير قدراته الإبداعية، بل يبحث في نماذج سبقته عن كيفية استعمال التقنية التي استعملتها، محاولًا «إبداع» ما سبقه له آخرون.

يجب الانتباه إلى التأكيد على المجموعة وعلى الإبداع في محاولات العلاج الذاتي في ميدان القوة النفسية الذاتية والاهتمام بإشكالية لأيّ شيء يكونان مهمين وما هو الشيء المهم بالنسبة للمشاركين في مجموعة ما. فإذا كان العلاج في مجموعة، بما في ذلك المجموعة الدينية، تعويضًا للأنا الأعلى بالنسبة للمشاركين فيها، بالاعتقاد أن المدمن على المخدرات أو المصاب بالشره المرضي Bulimik أو الذي أصبح مجرمًا، يعيد التحكم في نفسه، فإن التواجد في المجموعة قد يشكل مساعدة ما. قد يساعد توجيه الأنا، وبالخصوص في تشخصه الانعكاسي، على التحكم في الإدمان أو في السلوك المنحرف، لكنه لا يصل في كل هذا إلى ممارسة كفاءات أناه النفسية. الإشكالية نفسها تطرح فيما يخص الإمكانيات الإبداعية، والسؤال المطروح هو: ما هو الشرط الذي يتوقف عليه الإبداع هنا؟ هناك حيث تلاحظ تبعية ما لإمكانية خارج عن الذات، سواء أكان ذلك على شكل تقنية معينة أم أسلوبًا إبداعيًّا معينًا أم فنانًا بعينه، فإن النتيجة هي وجود ممارسة غير منتجة للإمكانيات «المصنعة»، والواقع أن توجه الأنا يكون في هذه الحالة مهددًا.

يمكن ملاحظة محاولة العلاج الذاتي للأنا الموجه في ميدان القدرات الفكرية والروحية الذاتية كذلك. ما يميز نمط الحياة المابعد حداثي، بالمقارنة مع أنماط الحياة التي كانت سائدة، هو قبل كل شيء الاستقلال المبرمج من النماذج الاجتماعية للشعور بالذات والتعامل مع المحيط الطبيعي والإنساني. لا يتحقق الاستقلال عن طريق أنماط حياة جديدة



تعوض الأنماط السابقة عنها، لكن بنوع من «تفجير/ هدم» الحدود بين الأنماط السابقة. ويكون فك الرموز والهدم في خدمة هدم هذه الحدود. وفيما يتعلق بالمعاش الفكري والروحي الذاتي للناس، فإن ما يحدث هو خليط/ كشكول للهوية وللتدين، ويتأسس سيناريو الحياة في «عمل غير بارع في السيرة الذاتية»[1] على شكل مشاريع حياة. وينتهي المطاف في عملية هدم الحدود بفقدان صورة الإنسان والعالم والتاريخ، قد يقود إلى فقدان التوجه بطريقة درامية، كما لو أنه لا يمكن لأي إنسان أن يستمر في الحياة نفسيًّا دون: «الحاجة إلى إطار موجه وموضوع إخلاص»[2].

يحاول الكثير من الموجهين من طرف أناهم القيام بمقاومة مضادة ضد غياب التوجه الخطير هذا بتقوية قدراتهم العقلية والروحية. وهناك العديد من أشكال التعبير عن مثل محاولات العلاج هذه. تتضمن هذه الأخيرة تمارين تركيز وتأمل وتمارين الاسترخاء والإيحاء الذاتي واليوغا و«الطاي شي شوان» وكذا إعادة اكتشاف التدين الصوفي للشرق والغرب وحياة الأديرة وفلسفة فن الحياة كتوجه فكري متكامل. أما الهدف الأول لمثل محاولات العلاج الذاتي هذه فيكمن في محاولة الشعور في تطبيق إمكانية التجربة الذاتية الروحية والفكرية بنوع من التوجه في الحياة. ويحاول مثل هؤلاء الناس المقاومة ضد القوة الهائلة التي أصبحت للإمكانيات «المصنعة» في شكل مقترحات تَوَجُّهٍ كثيرة مفضلة لنمط الحياة المابعد حداثي، يمكن تبادلها مع آخرين. فبفضل ممارسة الكفاءات الروحية والدينية والعقلية يحاول المرء إذن الوصول إلى إطار موجه لتلبية الحاجة إلى موضوع إخلاص بطريقة مُنتجة.

(1) انظر: .U. Beck 1997, S. 191

(2) Erich Fromm 1955a, GA, S. 48-50.



من اللازم التحلي ببعض النقد اتجاه محاولات العلاج الذاتية الروحية والعقلية، ذلك أن ممارسة مثل هذا العلاج لا تقلص فقط توجه الأنا غير المنتج، لكن التعامل غير المنتج مع مقترحات تمارين التوجهات الروحية والعقلية قد تقوي توجه الأنا غير المنتج. لا يمكن التمييز بنجاح لأول وهلة بين ما إذا كان المرء يستعمل هذه الإمكانيات بطريقة منتجة أو غير منتجة. طبقًا لخصائص التمييز التي سنقوم بها بعد قليل، فإن كل شيء يشير إلى أن الأمر يتعلق باستعمال غير منتج للإمكانيات «المنتجة» في الممارسات الدينية والروحية، عندما يتعلق الأمر بإعطاء الأهمية القصوى للطريقة والتقنية الممارسة بها (يعني لـ «الاعتقاد الصحيح») على حساب الممارسة ذاتها أو عندما تحدث تبعية بالفعل للغُورُو/ المعلم Guru، المدققين، الدعاة، العالمين، المستنيرين إلخ، الذين يضمنون فعالية المعروضات الروحية والعقلية ويراقبون/ يستحوذون على إمكانية الوصول إليها. ما ينتج عن هذا هو الدوغمائية، ولم تكن هذه الأخيرة ولا سلطة الاعتقاد أبدًا مؤشرًا على نجاح ممارسة القوة الإنسانية الذاتية.

هناك مجموعة من المؤشرات الأخرى، التي يمكن إضافتها لتلك التي تطرقنا لها سابقًا عندما تحدثنا عن: «الألم في الثقافة وفي الذات ذاتها»، فيما يخص هذا الأمر. يتحدث المرء عن ممارسة غير منتجة للإمكانيات «المنتجة» في محاولات العلاج الروحي والعقلي الذاتيين عندما تكون مقترحات هذا العلاج تتضمن التالي:

- عندما تكون تكاليف العلاج باهظة.

- عندما تُعلم دون جهد، بسرعة، دون ألم، بسهولة ودون السقوط في أزمة.

- عندما يشتغل هذا العلاج باستعمال أشياء حسية غالية الثمن في غالب الأحيان كاللوحات الفنية والموسيقى والدهون والعطور.

ـ عندما تستخدم تقنيات إيحائية وإيحائية ذاتية.

ـ عندما تعزز الشعور بالعظمة الذاتية والرضا عن النفس وتمثلات كبيرة عن الذات.

ـ عندما تقود إلى نسيان الذات الاجتماعي والسياسي، الذي لا يعرف إلّا ما هو داخلي.

يقدم تأمل نقدي لمحاولات العلاج الذاتي من طرف الناس ذوي أنا موجه محاولة للتمييز، سيكولوجيًّا، بين الاستعمال المنتج وغير المنتج للإمكانيات «المصنعة»، أو كيف يمكن للمرء تصور شراكة بين هذه الأخيرة والكفاءات الإنسانية. وتتمثل نقطة الانطلاق هنا في التفكير في مسألة كون إنتاج الواقع بمساعدة الإمكانيات «المصنعة» الهائلة لا تقود بالضرورة إلى أنا موجه غير منتج ولا إلى بناء طبع من هذا القبيل. من الناحية التحليل نفسية، فإن الأنا الموجه هو في العمق بناء خاطئ. واعتبارًا لهذا، من الضروري أن نجد الخصائص المميزة لكلا الطرفين، لأنه يمكن بالفعل التمييز بين الإنسان المابعد حداثي المنتج وغير المنتج بمساعدة هذه الخصائص. ويعتبر الجزء الثالث من هذا الكتاب، حيث ناقشنا معاش/ معيش الأنا المنتج ونظيره غير المنتج شرطًا أساسيًّا لهذا التمييز.

تأثيرات توجه الطبع المنتج وغير المنتج

الإمكانية الثانية للتمييز السيكولوجي عند الناس المابعد حداثيين بين أولئك الذين يكونون في سلوك أناهم موجهين، وبذلك لا يكونون منتجين، وبين أولئك الذين يكونون قادرين على أن يكونوا منتجين على الرغم من استعمالهم للإمكانيات «المصنعة»، ينتج عن التأثيرات



المختلفة لتوجه الطبع المنتج وغير المنتج. وتنطبق هذه التأثيرات على كل توجهات الطبع، وليس فقط على الأنا المابعد حداثي الموجه.

كما أكدنا على ذلك فيما يخص فهم توجه الطبع، فإنه لا يمكن التعرف على الإنتاجية في السلوك الواقعي/ الفعلي للناس، لأن طريقة سلوك واحدة معزولة لا تكون كافية لتقرير أي شيء كان، ويعني هذا بأنه قد تكون مُسَبَّبَة من طرف محاولات ديناميكية (خصائص طباعية وتوجهات طبع) واعية أو غير واعية. يمكن إذن التعرف على ما إذا كان سلوك فعلي ذو توجه طبعي منتجًا أو غير منتج من خلال التأثيرات المعاشة الذاتية، وإلى حد ما الموضوعية، المحددة لسلوك هذا التوجه الطباعي.

تتوفر الإنتاجية كممارسة للكفاءات الإنسانية، تمامًا كالإنتاجية الناتجة عن استعمال الإمكانية «المصنعة»، دائمًا على التالي:

ـ تأثير منشط/ محفز/ مشجع: يتمظهر هذا التأثير في كون المرء يبقى داخليًّا نشيطًا، مستيقظًا، محبًّا للحياة، يعطي انطباع الثقة به، يدرك الأشياء بطريقة مكثفة، منتبهًا جدًّا، شاعريًّا، مهتمًّا بالأمور، ملتزمًّا. يتميز بمعاش للوقت في الحاضر. على العكس من هذا تتميز الإنتاجية بتأثير سالب/ سلبي. يشعر المرء بالملل، يحس بأن كل شيء صعب ويدوم دون نهاية، يشعر بأنه فارغ داخليًّا ومرهق، لا يتوفر على مشاعر ولا على حاجات وجدانية، ليس له أيّ محرك داخلي ومُتعب. يميل المرء إلى أن يُنشَّط من الخارج ويترك نفسه تابعًا وتكون ردود أفعاله انكفائية.

ـ التأثير الطاقوي: من تكون له علاقة بذاته وبالواقع بطريقة منتجة يعي بأن الطاقة تسري فيه، يشعر بالحياة كاملة، يشعر بالتدفق ويطور الحاجة في العطاء والاقتسام والتواصل. في المقابل نجد بأن الطاقة عند الموجه غير المنتج تكون ضئيلة، يحس المرء وكأنه أُفرِغ من كل طاقة ويطور في ذاته الشعور بعدم القدرة والفراغ الداخلي.



ـ تأثير التنشئة الاجتماعية: يشجع التوجه الإنتاجي السلوك الاجتماعي للإنسان والارتباط العاطفي له، القدرة على الشعور بالقرب من إنسان آخر والارتباط به بكل الحواس، وعيش تواصل مباشر معه، الإحساس بالآخر والشعور به. كما يتمظهر تأثير السلوك الاجتماعي في الاهتمام بالغريب والتحلي بـ «الانفتاح» عليه والتسامح وليس البحث عمّا يمتلكه المرء نفسه، سواء أكان ذلك أفكارًا أم أحاسيس أو مبادئ، عند أناس آخرين وثقافات أخرى. في حين نجد بأن الإنتاجية تحتوي على خلق مسافة بين المعني بالأمر والآخرين. فقط عندما تكون هذه المسافة واضحة بالتمام ـ في مكالمة هاتفية مثلًا أو ابتعاده عن الآخر بـ 500 كلم ـ يسمح المرء بالقرب والتقرب. وفي هذه الحالة يكون للارتباط إما ميزة فصامية schizoide أو اعتبار الآخر كنرجسي أو أن المرء يقلص العلاقة إلى ارتباط مهني/ تجاري. أما التعامل مع كل ما هو غريب فيحدث بشعور خوف أو عدوانية، وتكون ردود الفعل اتجاه الغريب بتعجرف وأخذ مسافة أو تهميشه.

ـ التأثير المُقَوِّي للذات: تقوي الإنتاجية الاستقلالية وتقرير المصير وتساعد على وعي الفردانية الذاتية والمصالح الشخصية. يعيش الناس المنتجين ذواتهم كمغايرين، مستقلين، معتمدين على أنفسهم، يُقويهم عيش التزامهم مع الآخرين واهتمامهم بهم ولا يخشون من استغلال الآخرين لهم. أما الإنتاجية فإنها تقوي عدم القدرة على تقرير المصير ووعي المصالح الشخصية. وقد تكون التبعية للآخر عندهم تكافلية مُراقبة أو مدمنة. ويكون الارتباط بالآخر ممزوجًا دائمًا بالخوف من فقدان الاستقلال الذاتي والقوة.

ـ التأثير المدمج: يعيش الذي يحقق ذاته انطلاقًا من مؤهلاته الذاتية



ويكون في وسعه استعمال الإمكانيات «المصنعة» بطريقة منتجة وذاتية أصيلة، متناغمًا مع ذاته، متوازنًا، متكاملًا. ويتمظهر التأثير المدمج عقليًا عنده في شعوره بتحقيق معنى وهدف في الحياة ونفسيًّا في الإحساس بالقدرة وجسديًّا بالنشاط والعيش بحد أدنى من التوترات، يعني بإدماج كل هذه الأبعاد الثلاثة للوجود الإنساني. أكثر من هذا يتمظهر التأثير المدمج بالخصوص في القدرة على تحمل غموض الواقع ووعي الأحاسيس المتجاذبة ولربما المتناقضة. على العكس من هذا يميل أصحاب الطبع غير المنتج إلى تجزيء الواقع إلى واقع داخلي وآخر خارجي، إلى واقع خير وآخر شرير، واحد يسمح بتحقيق الرغبات وآخر يعيق تحقيقها. تُعاش الفروق بين الذاتي والغريب/ الآخر كتهديد، ومن اللازم في هذه الحالة القضاء عليها. والنتيجة هي تقسيم العقلي والروحي والنفسي والجسدي في الذات. بمعنى أن غير المنتجين يفضلون عيش ذواتهم إما كأجساد أو أحاسيس أو عقلًا فقط.

- التأثير المانح لمعنى في الحياة: تعاش ممارسة الكفاءات الذاتية الجسدية والنفسية والعقلية كأمور تحمل معنى في ذاتها ومرضية ولا تتطلب أية برهنة/ أساس أخلاقي، ديني أو تصور للعالم. من يعيش نفسه كمحب، لا يتساءل عن معنى حبه ومن يتقاسم ألم الآخر، فإنه لا يهتم بأيّ تدين أو إشكالية معنى أو سبب هذا الألم. في المقابل نجد بأن غير المنتج يكون صاحب معنى مبعثر في الحياة أو حتى معنى فارغ. ويتجلى هذا في مشاعر قدرية أو عدمية، تقود إلى اعتبار كل شيء فارغ من أي معنى، أو إلى واقعية دون معنى، أكثر من هذا قد يقود إلى تشفير مابعد حداثي والبحث عن معنى في كل شيء أو في كل سلوك.

التأثير الخلاق: من يستطيع استعمال كفاءاته الذاتية والإمكانيات



«المنتجة» قصد الرفع من قدراته الإنسانية، يعيش ذاته ويشعر بها بطريقة خلاقة وحدس ونشاط وحرية وعفوية. ويمكن للإبداع أن يطول الذرية كذلك أو يتمظهر في منتوجات تقنية أو فنية. ويعبر كل هذا عن نفسه في نماذج حياة أوطوبية ومستقبلية، تكون مفتوحة على كل ما هو جديد. على العكس من هذا، فإن للإبداع عند غير المنتج تأثير جامد. يبحث المعني بالأمر عن تكرار الشيء نفسه ويصبو إلى Konformismus ويهتم بتقليد إبداع الآخرين، مركزًا على إعادة بناء ما خلقه هؤلاء الآخرون والمحافظة عليه وأرشفته.

- التأثير المقوي للأنا: من يقوي بقواه الذاتية وبالاستعمال المنتج للإمكانيات «المصنعة» كفاءات أناه، ويكون مرتبطًا بقوة بالواقع المحيط به، فإنه يعيش ذاته بطريقة أحسن وواقف على قدمين في الواقع بثقة، قادر على وعي الأمور وعلى تحمل المشاكل والإحباطات والتجاذبات. على عكس هذا فإن التوجه غير المنتج يعرف تأثير نكوص Regression الأنا، الذي يكون مرافقًا بإضعاف كفاءات ووظائف الأنا، بحيث إنه يتمظهر في الميول إلى التراجع إلى مراحل تطور سابقة للأنا. والنتيجة هو ضعف قدرات التمييز بين الخيال والواقع، الرغبات الذاتية والمحيط الفعلي، ما هو لي وما هو لك، وكذا مراقبة غير كافية للانفعالات وفحص الواقع. ما يميز مثل هذا التوجه هي الميول إلى التفرقة وإلى الأشكال البدائية لحل الصراعات.

لابد من الإشارة إلى أن قوة الإنتاجية متوقفة على وجود/ توفر التأثيرات التي تحدثنا عنها في الوقت نفسه عند المرء. وهكذا يجب أن يُشعر مثلًا بتأثيرات التنشئة الاجتماعية ونظيرتها المقوية للأنا بطريقة متزامنة. فإذا لم يُشعر بهذه الأخيرة، فقد تقوم التنشئة الاجتماعية على حساب المصالح الخاصة، وبهذا تصبح تعبيرًا عن ضياع ذاتي غير منتج. وإذا تمظهر التأثير



المنشط دون وعي/ ملاحظة تأثير طاقوي في الوقت نفسه، فقد يكون هذا تعبيرًا على أن منبع التنشيط ليس هو الطبع الموجه إنتاجيًّا، لكن مواد منشطة أو تأثير أناس آخرين، يعني بأن مصدر التنشيط لا يكون في هذه الحالة القوى الذاتية للفرد، بل مصدر آخر خارجًا عنه.

إذا كان التمييز الذي قمنا به مشتركًا في كل أنواع توجهات الأنا ويصف قبل كل شيء إمكانيات وعي الإمكانيات الذاتية، فإن هدف التمييز الذي سنتطرق له فيما يلي هو إظهار إنتاجية أو عدم إنتاجية الإنسان المابعد حداثي.

مؤشرات التمييز بين الإنسان المابعد حداثي المنتج وغير المنتج

تعتبر الشروح الموالية للخصائص التي تميز الطبع المنتج ونظيره غير المنتج للأنا الموجه المابعد حداثي تتمة للتمييز الذي قمنا بها فيما سبق بين محاولات العلاج والتأثيرات التي تتم عند الطرفين. وسوف لن نرجع إلى هذا الأمر من جديد، بل سنهتم في المقام الأول بالتمييز الناتج عن ديناميكية استلاب الأنا الموجه المابعد حداثي.

ـ عندما يضفي المرء طابعًا مثاليًّا على الإمكانيات «المصنعة» ويسحب كل قيمة عن الكفاءات الإنسانية، فإنه يكون سابحًا في عالم توجه غير منتج. والمقصود بهذا الخاصية المُميِّزة ليس هو إمكانية قيام المرء ببرنامج أو عمل ما أحسن من الآلة، بل وُجوب قيامه بذلك. يتعلق الأمر إذن بإعطاء قيمة أكثر من اللازم (أي إضفاء طابع مثالي) للمنتجات التقنية، وبالخصوص في ميدان التقنية الاجتماعية وإدارة الذات. في مقابل هذا هناك وعي واقعي لا يدرك فقط التمييز بين استعمال الإمكانيات «المصنعة» وممارسة الكفاءات الإنسانية، بل يعي ما هو بصدد تطبيقه أو استعماله بين الاثنين. ويعتبر هذا مؤشرًا على توجه منتج.



ـ يمكن التعرف على التوجه غير المنتج كذلك بالمقدار الذي يعتمد فيه المرء على الإمكانيات «المصنعة» وتبعيته لها، في الوقت الذي يكون فيه الاستقلال عنها مؤشرًا على توجه منتج. ولهذه الخاصية المميزة معنى مركزي، بحيث إن الأنا المابعد حداثي الموجه يهاب كثيرًا الاعتماد على هذه الإمكانيات «المصنعة» وتبعيته لها، ويحاول نفي هذه التبعية. ذلك أن الأنا الموجه لا يفكر ويشعر ويسلك انطلاقًا من كفاءاته الإنسانية، بل بمساعدة تلك الوسائل، التي تصبح بالنسبة له إمكانياته الذاتية، وهنا بالضبط نلمس طريقة تبعية لها.

هناك طريقة بسيطة للتعرف على التبعية الفعلية للإمكانيات «المصنعة». على المرء أن يتصور (أو وضع نفسه في موقف) بأن الهاتف النقال قد انقرض نهائيًا أو أنه لا يستطيع إنتاج ابتسامة جراء مرض حل به أو أن زبائنه نفروا منه جراء المنافسة أو تَكَسَّر الأمل بالنسبة لمن يربي أبناءه وحده ولا يكون من الممكن تنشيط هذا الشخص أو تحميسه، لأنه يشعر بنفسه وحيدًا ومُتخلى عنه. إذا كان المرء عرضة لمثل هذه الأشياء، يكون من السهل التعرف على ما إذا كان هذا الشخص مستقلًا أو تابعًا للإمكانيات «المصنعة» وكيف تكون قوة هذه التبعية المرتبطة بهذه الظروف. فإذا لم يلاحظ المرء أية تبعية لهذه الإمكانيات «المصنعة»، فيمكنه افتراض كون هذا الشخص موجهًا إنتاجيًا، ولهذا السبب لا يكون مهتمًا بتعويض الكفاءات الإنسانية بنظيرتها «المصنعة». وفقط عندما لا تكون هناك تبعية ملموسة للإمكانيات «المصنعة»، يمكن للمرء التأكد بأن استعمال هذه الإمكانيات من طرف الموجه إنتاجيًا يكون لها تأثير منتج.

ـ عندما تكون هناك حاجة ملحة لمراقبة الإمكانيات «المصنعة»، فإن هذا مؤشر واضح على توجه غير منتج، والعكس صحيح. وضحنا عندما



تحدثنا عن ديناميكية الاستلاب عند التوجه الموجه اهتمامه بمراقبة ما «يختبئ» في الإمكانيات «المصنعة». يظهر الأمر وكأنه يتعلق بجانب خارجي ـ لأنه منفي ـ من الذات، يراقبه ويلاحظه في اشتغاله. وتتمظهر الحاجة للمراقبة عند الموجه سلبًا ونظيره الموجه إيجابًا بطرق مغايرة لبعضها البعض. يتمظهر عند الأول بالاعتناء المستمر بالناس المرتبط بهم بطريقة من الطرق وبالتأكد من وجودهم عن طريق الرسائل الهاتفية القصيرة ونظيرتها الإلكترونية وعدم القدرة على تحمل البعد والفراق والتألم لضياع أو عطب الإمكانيات «المصنعة» (يُعاش تعطل السيارة أو إصابة الحاسوب بفيروس كما لو أن مكروهًا حدث للشخص ذاته) أو بمراقبة شعائرية لاشتغال برامج بعينها، يدير بمساعدتها الصورة التي يحملها عن نفسه ووقته وأمواله وعمله وإنجازاته وتكون «في قبضته». في مقابل هذه المراقبة الاضطرارية، والتي تكون في الغالب تعبيرًا عن خوف وجودي أو عدم ثقة عميق في الذات وفي المحيط حيث يعيش المرء، فإن الحاجة للمراقبة عند الأنا الموجه غير المنتج تكون تعبيرًا عن ارتباطه الوجودي بالإمكانيات «المصنعة» وتبعيته لها.

لا يعرف المرء المابعد حداثي المنتج مثل هذه الحاجة للمراقبة، لأن مصدر فكره وشعوره وسلوكه لا توجد في الإمكانيات «المصنعة»، بل في قوته الذاتية القابعة فيه شخصيًّا. وعدم وجود الحاجة للمراقبة عند الطبع المابعد حداثي لا يعتبر شيئًا آخر من غير إمكانية وجود توجه منتج عند المعني بالأمر. على خلاف الذي يحاول مراقبة الإمكانيات «المصنعة»، والذي يعتبر كما سبقت الإشارة إلى ذلك مؤشرًا على تبعية لهذه الأخيرة، بحيث إن عيشه للتبعية يقوده على المستوى الواعي إلى إبعاد مُعاش الحاجة للمراقبة. ويتمثل شكل التعويض المفضل لكبت الحاجة إلى المراقبة في قلب هذه الأخيرة إلى ضدها: يُظهر المرء نفسه كمتسامِح



كليًّا، سخي، يأخذ مسافة بينه وبين الناس والأشياء والبرامج والآلات، التي تكون في الحقيقة رهن إشارة المرء.

إذا لم تشرح المفاهيم طبقًا لأهدافها الخاصة ولم يستغلها المرء حتى تصبح دون معنى، يمكن تحديد التمييز بين الإنسان المابعد الحداثي المنتج ونظيره غير المنتج مفاهيميًّا، بالنظر إلى استعمال الإمكانيات «المصنعة» هكذا: إن صاحب الطبع المنتج يستعمل الإمكانيات «المصنعة»، في حين إن غير المنتج يمتلكها.

ـ هناك أيضًا تمييز في معاش الوقت/ الزمن بين الموجه المابعد حداثي المنتج وغير المنتج. يدعي كلاهما اهتمامه بقيمة اللحظة الراهنة والحياة في الهنا والآن، لكن هناك فرق بين الاثنين. يتأسس هذا الأمر عند الموجه إنتاجيًّا على اهتمامه وارتباطه العاطفي بالواقع وعلى استيقاظه وانتباهه، بكلمة مختصرة تركيزه على حضور كفاءاته الإنسانية عندما يفكر ويشعر ويسلك. عندما يفكر فإنه يفكر انطلاقًا من كفاءاته الفكرية، وفي ممارسته هذه يمر الوقت بسرعة. يكون مهتمًّا، لأنه مهتم، ولا يأتي هذا الاهتمام من الخارج أو من الإمكانيات «المصنعة»، لكن من قدرته «على أن يكون في التفكير» (داخل الوجود (inter-esse).

في المقابل يتوقف اهتمام الأنا الموجه سلبًا باللحظة الراهنة على ما إذا كان فاعلًا نشيطًا بسبب تأثير/ مساعدة إمكانية «مصنعة» أو يترك نفسه يُنشط بخمول من طرف هذه الأخيرة.

إذا غابت هذه الشروط عندهما معًا، فإنهما يكونان معرضين لملل قاهر.

ـ هناك خاصية مميزة أخرى بين الاثنين على مستوى الطاقة النفسية. فلممارسة القدرات الإنسانية الذاتية، كما رأينا سابقًا، مفعول طاقوي.



وسبب ذلك يكمن في كون استعمال القوى الإنسانية الذاتية يقود إلى الرفع من الطاقة. فمن يتقاسم فرحته مع الآخرين، يعيش هذه الفرحة بكثافة أكثر، ولهذا يُعاش اقتسام فرحة حضور أيّ حفل موسيقي كبير مع آلاف الناس الآخرين «كحدث كبير». ومن يركز كليًّا على شيء ما ويكون يقظًا في هذا التركيز، كقراءة رواية بوليسية مثيرة أو يكون مرتبطًا بأناس آخرين بتركيز، فإنه يكون يقظًا ومستيقظًا، لأنه في استعماله لقواه الذاتية يحصل على طاقة نفسية إضافية. وحتى من يستعمل الإمكانيات «المصنعة» ويكون في استعماله هذا وكأنه مصاب بضربة «كهربائية» ومتحفز، فإنه يكون قادرًا على استعمالها بطريقة منتجة. ويعبر شباب ما بعد الحداثة عن هذا الأمر بتعابير مثل «كول cool » و«شبق geil».

على كل حال، على المرء في استعماله للإمكانيات «المصنعة» أن يتمعن جيدًا من أيّ شيء تتكون هذه الأخيرة. فإذا استعمل المرء مثلًا أدوية علاج نفسية أو مخدرات أو أية مثيرات أخرى، فإنه يستعمل باستعمالها تأثيرها الطاقوي/ المنشط. ومثل هذا الاستعمال، يوحي كذلك بخاصية إضافية للمابعد حداثي غير المنتج، لأن استعماله المستمر لمثل هذه المنشطات، يقود إلى ارتفاع الطلب النفسي والجسدي الذاتيين عليها، وبالتالي يقود إلى فقدان الطاقة الذاتية.

لتوجه الأنا الإيجابي ونظيره السلبي مشاكل مع كل ما يقف كعائق في وجه تحديد ذواتهم الحر والعفوي. فقد اتضح في الإطلالة التي قمنا بها على ديناميكية الاستلاب للأنا الموجه، بأن هذا الأخير يتشكل كرد فعل ضد وعي التبعية للإمكانيات «المصنعة» وما يرافقها من عجز معاش الأنا. وينتج هذا عن فقدان القدرات الإنسانية وإضعاف كفاءات الأنا، ويقود إلى الإحساس اللاشعوري لهذا الأنا بسلبيته وعدم قدرته وضعفه وتهميشه.

ويساعد هذا الإقرار على اكتشاف سلسلة أخرى من الخصائص المميزة بين طبع الأنا الموجه غير المنتج والمنتج. لا يعرف هذا الأخير ضرورة كبت تمثلاته الذاتية السلبية ومواجهتها. وسنقدم فيما سيأتي بعض هذه الخصائص، وقد اعتبرنا جزءًا منها كبناء خاطئ فيما سبق.

ـ بغض النظر عن المازوخيين والناس الذين يعانون من نرجسية سلبية أو أولئك الذين يعانون من صدمات نفسية أو اضطراب في الشخصية، فليس هناك أيّ إنسان يميل بطبعه إلى الشعور بالخمول والضعف وعدم الحيلة والإقصاء. ولهذا السبب يكون تعامل الكثير من الناس مع هذه المشاعر السلبية صعبًا. وهذا التعامل بالضبط هو الذي يكشف الفرق بين الأنا الموجه سلبًا أو إيجابًا. يعمل الأول كل ما في وسعه لكي لا تطفو مثل هذه المشاعر على سطح وعيه. إنه لا يجهلها فقط، بل يكون غير قادر على التعرف عليها عند الآخرين والشعور بـ«الشفقة» اتجاه الضعفاء وعديمي الحيلة. ولهذا السبب لا تلعب «الشفقة» عند الأنا الموجه أيّ دور عندما يتعلق الأمر بسلوك التضامن. وتتضح طريقة نفي الأنا الموجه لهذه المشاعر السلبية في خصائص الطبع المهمة للأنا الموجه النشيط والسالب.

يتميز المابعد حداثي المنتج بالقدرة على الشعور بالآخرين إذا كانوا غير نشطين، ضعفاء، دون حيلة ومهمشين، ولا يحاول أن يبرهن دائمًا وفي كل مكان على أنه يفكر ويشعر بطريقة إيجابية. ومن جهة أخرى يكون قادرًا على الشفقة على الآخرين والشعور بهم وبضعفهم، يعني أنه يكون قادرًا على اقتسام هذه المشاعر والإحساس بها.

ـ يعتبر التعامل مع أوضاع الصراع العلائقي العنيف مثالًا كذلك للتمييز بين الاثنين. ذلك أن الأنا الموجه لا يسمح للنقد أو للصراع



بالظهور. يلتجئ في مثل هذه الأوضاع إلى سلوك واضح يتجنب فيه هذه الأمور، ذلك أن النقد والصراعات تعتبر بالنسبة له تهديدًا. ويَتَمَثَّل تَمَثُّل هذا التهديد بالنسبة له في تهديد العلاقات الحسنة التي تربطه بالآخرين أو بزملائه. يَعتبِر النقاد وكل من يعبر عن صراع مسيء لمناخ العمل سلبيين، يحاول المرء تجنبهم واعتبارهم غير مبدعين. ولهذا السبب يتجاهل النقد وينفي الصراعات أو يغطي عليها أو يخفيها. وإذا لم يستطع القضاء عليها بهذه الطريقة، فإنه يفضل الافتراق مع الخصم، إما بإنهاء عقد العمل أو بمضايقته في عمله أو اتهامه بأشياء لا أساس لها من الصحة. وفي كل هذا، لا تكون مواجهة مباشرة مع الخصم لحسم أو حل الصراع موجودة.

لا نجد عند الموجه إيجابيًّا توجه أنا يهاب النقد والصراعات وما ينتج عنها من سلوك متجنب لها. بالكاد أنه لا يكون يرغب كذلك في تعرضه للنقد ولا للصراعات، لكنه عندما يكون موضوعًا لها، فإنه لا يتجنبها، إنه يواجهها، لأن «فعله» لا يكون مؤسسًا على الإمكانيات «المصنعة»، بل على قدراته الإنسانية، ولأن ارتباطه بالآخرين متجذر في ارتباطه بالقدرة الذاتية القابعة فيه، لا يُقضى عليها من خلال افتراقه مع الآخرين إذا كان ذلك ضروريًّا. يمكنه إذن مواجهة مثل هذه الأوضاع، لأنه يستطيع التمييز بوضوح بين نفسه وبين الآخرين، بين حاجاته وكفاءاته وبين نظيرتها عند الآخرين. يمكنه إذن التمييز وفي حالة الضرورة الافتراق.

يكمن السبب العميق لعدم قدرة الإنسان المابعد حداثي غير المنتج مواجهته لمثل هذه الأمور في عدم قدرته على الفراق. يبدو هذا الأمر متناقضًا، لأن مثل هذا الأنا يتميز بكونه لا يشعر بنفسه مرتبطًا بأيّ شيء. لا يشعر بأنه مرتبط بمسؤوليات ومقاييس لا تأتي منه. لكن نظرة في كواليس هذا الأنا تبين بأنه بسبب التشخص الانعكاسي مع الإمكانيات



«المصنعة» يكون تابعًا لهذه الأخيرة، وبأنه لا يستطيع مثلًا العيش دون «معالج». من الناحية التحليل نفسية، يعتبر هذا الأنا، نظرًا لهذه التبعية، غير قادر على الفراق. ذلك أن افتراقه عن الإمكانيات «المصنعة» ستهمشه كليًّا وستجعل منه شخصًا ضعيفًا. لكن لا يحق للشعورين معًا المرور إلى المستوى الواعي عنده، بل يقاومان بشكل يقدمه وكأنه قرار ذاتي حر، معتبرًا نفسه كفاعل غير مرتبط ويشكل حلوله بطريقة خلاقة.

ـ يصبح الفرق أكثر وضوحًا بين الاثنين عندما يهتم المرء بالأحاسيس المرافقة للصراعات عندهما. يُلمس عند الأنا الموجه غير المنتج غياب واضح للمشاعر الذاتية للعداوة والتنافس. لا يعني هذا بأنه لا يُظهر أية أحاسيس عدوانية، لكن يُظهر فقط المشاعر التي لا تُقحمه في صراع معين أو تلك التي تعبر عن تأثره العاطفي. ولهذا يمكن أن يدوس على كل شيء ويكون عدوانيًّا، متعجرفًا، ساخرًا، يقلل من قيمة الآخرين، متغطرسًا، لكنه لا يشعر ولا يُظهر غيرة ولا حسدًا أو انتقامًا. في العمق لا تعتبر هذه المشاعر غريبة عنه، لكنه غربها عنه في معيشه، وخير دليل على ذلك هو أنها تستيقظ في نفسه في أوضاع معينة كأثناء مشاهدته لفيلم يكون موضوعه متحورًا على مبدأ الخير والشر. وهذا يعني أن العداوة والعدوانية إلخ لا تجد جذورها في نفسه، بل تُنشط من الخارج.

لا يمكن تصور مثل هذا النفي العام لمشاعر العدوانية عند الإنسان المابعد حداثي المنتج. لكن هذا لا يعني بأننا نؤكد بأن هذا الإنسان عدواني ومنافس وغيور وحسود ومحب للثأر. من طبيعة الحال لا تغيب هذه العواطف عنده. ما نود قوله هو أنه لا ينفي مثل هذه المشاعر فيه وليس في حاجة إلى مؤثرات خارجية للشعور بها.

ـ هناك فرق هام آخر بين الاثنين فيما يخص تعاملهما مع الخوف



والخطأ/ الخطيئة والشعور بالعار، أي التمثلات الوجدانية التي ترافق علاقاتنا مع أنفسنا ومع المحيط الذي نعيش فيه. فكما وضح ذلك عالم الأعصاب (ج. هوتهر 1997 م G. Hüther) وفرويد (1926 م)، فإننا سنكون دون حيلة إذا لم تكن لنا تمثلات عن أشياء تبعث فينا الخوف وتهددنا. فهذه التمثلات بالضبط هي التي تنشط أو تحرك فينا ميكانيزمات الدفاع الفيزيقي والنفسي. وتمتلك تمثلات العار الميكانيزم الدفاعي نفسه، لضمان الشعور باحترام الذات والشرف والكرامة التي لا تُمس («الشرف» «الاحترام») اتجاه أنفسنا واتجاه الآخرين[1]. وقد تطرقنا فيما سبق إلى أهمية تمثلات الخطأ كمنظم نفسي في إطار حديثنا عن وظيفة الضمير.

إن مشكل المابعد حداثي غير المنتج ليس هو عدم استطاعته استعمال هذه التمثلات الانفعالية النفسية الداخلية المنظمة، لكن المشكل هو أنه لا يكون واعيًا بها، ولهذا السبب يتعامل معها بفوبيا. فعوض عيش ذاته دون خوف ودون أخطاء وخجل، ويُعقلن سلوكه باللجوء إلى المُثل المابعد حداثية، المتمثلة في التحرر من الخوف والخطيئة وحرية الضمير والعار (على الرغم من أن هذا الأخير يحدد اليوم من طرف التنشيط العمومي إلى حدود بعيدة). يمكن إذن التعرف على المابعد حداثي غير المنتج من خلال تكوين مثل ردود الفعل هذه اتجاه هذه التمثلات الوجدانية، التي يتم التعرف عليها بدورها عن طريق الغلو الذي تُمارس به.

يسقط الأنا الموجه غير المنتج في خوف هدام والشعور بالخطأ والخجل بسبب أوضاع معينة، كمحاكمة أو مرض يهدد حياته، ويحاول تجنب التمثلات الوجدانية لمثل هذه الأوضاع بفوبيا كبيرة. من ناحية وعي المشاعر في مثل هذه الأوضاع، فإنه على الأكثر يعيها كما لو أنه

(1) انظر: L. Wurmser, 1993; M. Hilgers, 1996.



يعيش كابوسًا في الحلم، يعني أنه يعتبرها على المستوى الشعوري غير موجودة، بكلمة مختصرة، إنه يكبتها.

تعتبر القدرة على الإحساس بالخوف والخطأ والخجل والاحترام خاصية للتعرف على المابعد حداثي المنتج. وتتمثل هذه الخاصية في كونه يعي ويقبل تمثلات هذه الأحاسيس، وبالضبط عندما يفرضها وضع حياتي معين وتقوم بوظيفتها النفسية الداخلية كمنظمة للمشاعر.

ـ هناك أيضًا خاصيات تساعد على التمييز بين الاثنين، تتمثل في ارتداد الأنا Regression وإضعاف وظائفه بسبب إخراج/ إنتاج عوالم/ واقع خيالي. وقد تحدثنا عن هذه الأخيرة في الجزء الثالث من هذا الكتاب باستفاضة. ويمكن تلخيص هذه الخاصيات في خاصيتين رئيستين:

1 ـ يكون الإنسان المابعد حداثي المنتج قادرًا على وعي مطابق للواقع لذاته (آماله، رغباته، إخفاقاته، مشاعره إلخ) ولمحيطه (بإمكانياته ومخاطره ومتطلباته وحاجياته إلخ) وباستطاعته التمييز بين الواقع والخيال. في حين يميل نظيره غير المنتج إلى وعي خيالي بمساعدة إمكانيات «مصنعة»، تساعد على إنتاج الخيال، إلى درجة أنه يصل إلى مستوى عدم قدرته على التمييز بين الواقع والخيال.

2 ـ بإمكان المابعد حداثي المنتج فهم وقبول واقعه وواقع الآخرين في تجاذبه كتهديد أو مساعدة، محقق للأهداف أو عائق لها، كما أنه يقبل تطوره وكذا فكرة موته ويطور طبقًا لهذا كفاءة شعورية للتعامل مع هذا التجاذب. في مقابل هذا، فإن المابعد حداثي غير المنتج يُظهر ميولًا واضحة لقبول جزء فقط من واقعه الخاص والواقع الخارجي عنه، ولا يشعر طبقًا لهذا إلّا بهذا الجزء.

يكون لزعزعة النظام بالنسبة للتوجه غير المنتج نتائج شخصية خطيرة



(في غالب الأحيان مهنية وعلائقية كذلك). يحلم في كوابيسه بأنه ضحية لتمنياته الانكفائية. والنتيجة هي أنه يصبح خاملًا وعديم القوة ويفقد كل قدرة على الفعل. كما أنه قد يفقد كل سيطرة على دوافعه والقوة المحركة له (غالبًا ما يُرمز لها بالسيارة). أو أنه يتوهم بأنه مُلاحق من طرق قوى شريرة ويكون معرضًا لخوف فُصامي، لأنه لم يعد قادرًا على التمييز بين ما هو ممكن وما هو محتمل، لأن التحقق من الواقع يَضعُف. يعاني في أحلامه من طول الانتظار وتفويت الفرص عليه وبأن المرء سينساه، لأن الإمكانيات «المصنعة» تخلت عنه. يحلم في نومه بعوالم كئيبة، جرداء، خالية من البشر، حيث غياب كل مسرة في الحياة والعلاقات، بل فقط الإحباط. كما يمكن أن يحلم، عندما تكون وظيفة الحلم هي التعويض، بأنه يعيش في الجنة، حيث لا وجود لا للخوف والإحباط، لأن المرء يحصل بسرعة وبوفرة على كل شيء يريده.

بالنسبة لهذا التوجه غير المنتج، فإن كل من تحرر من الأوهام، وهو الشيء الذي يساعد على قبول الواقع الداخلي ونظيره الخارجي كما هو، عندما يعيهما المرء في تجاذبهما وغموضهما ويتعامل مع المشاعر المتجاذبة بطريقة لا يكون مضطرًّا فيها إلى كبتها ويتمعن الواقع كما هو، يكون بمثابة خطر وتهديد بالنسبة للتوجه غير المنتج. لا يمكن للمرء أن يتجنب واقعه كونه يصبح هو نفسه خيالًا، إذا عاش حياته وفهمها كخيال فقط. فكلما عوضت إمكانية «مصنعة» خيالية الكفاءات الإنسانية في تعاملها مع الواقع الخارجي ونظيره الداخلي، لم يكن المرء قادرًا على الاعتماد على كفاءاته الإنسانية الذاتية، عندما يتعلق الأمر بالتحرر من الخيال. ولهذا السبب، فإن السبيل الوحيد الذي يكون في متناول المرء هو مُقابلة/ التصدي الخيال وألم التحرر منه، بممارسة القوى الجسدية والنفسية والعقلية الذاتية والبقاء في الواقع القمعي والفاتن.



ملحق

جداول التعرف على خصائص الشخصية المابعد حداثية

تحاول هذه الجداول تلخيص ومقارنة الخصائص المميزة لتوجه الأنا المنتج وغير المنتج، التي تطرقنا لها باستفاضة في الجزء الثاني من هذا الكتاب. وقد تم تقسيم هذه الخصائص طبقًا لتسلسلها في هذا الجزء.

لابد من التذكير بأن التعرف على هذه الخصائص وعلى خصائص الشخصية تُحيل إلى توجهات طباعية أخرى. لا تسمح معرفة هذه الخصائص باستنتاج واضح ونهائي لأنواع شخصيات الإنسان المابعد حداثي. فعيش شخص ما لأحاسيسه بطريقة قوية، لا يسمح بالضرورة وبالتأكيد اعتباره من نوع الأشخاص المُقَدِّمِين Anbietertypus المابعد حداثيين. وعندما يتردد شخص ما على المحلات التجارية باستمرار، فإن معنى هذا أن هناك آلاف الأسباب والدوافع لسلوكه هذا ويمكن أن يعبر عن أنواع مختلفة للشخصية والتوجهات الطباعية. ولا تسمح نظرية الطباع التحليل نفسية التي نستعملها هنا بتأطير هذا الشخص أو ذاك في خانة معينة، إلّا إذا كان توجه شخصيته الأساسي واضحًا بما فيه الكفاية، وفي الحالة التي تعنينا إلحاقه إما بتوجه الأنا الإنتاجيّ أو غير الإنتاجي. في غالب الأحيان لا يكون هذا الإلحاق ممكنًا إلّا إذا كان بالإمكان التعرف بدقة ودون أيّ أدنى مجال للشك على التوجه الطباعي لشخص ما من خلال خصائص سلوكه وشخصيته.



تعتبر هذه الميزة الخاصة لفهم تحليل نفسي للطبع أو الشخصية أساس بعض خصائص الطبع المهمة لتوجه الأنا المابعد حداثي، التي تحدثنا عنها في نهاية الجزء الثاني. بهذه الطريقة إذن يمكن التأكيد بأن توجه طبع أو شخصية ما هو الذي يعطيهما خاصيتهما النفسية. وبهذه الطريقة فقط يمكن للمرء الحديث عن معنى وأهمية سلوك ما أو خاصية طباعية محددة.

1ـ خاصيات التعرف على الارتباط بالواقع وبالناس الآخرين

المقدم النشيط aktiver Anbietertypus	المقدم الخامل/ السلبي passiver Anbietertypus
يجب إعادة خلق الواقع وملئه بالحياة، دون قيود مسبقة	يجب عيش الواقع بطريقة جديدة ومغايرة، دون قيود ذاتية أو شروط الآخرين
يجب تحديد العلاقة مع الواقع شخصيًّا وتشكيله بطريقة نشيطة توافق المرء، والأمر الحاسم في هذا هو علاقة الإنسان بهذا الواقع الذي يحدده بنفسه	يجب على المرء المشاركة في الوقائع/ العوالم المقترحة عليه بنشاط والغوص فيها، ما هو حاسم في هذا الواقع المحدد شخصيًّا هي المشاركة والانتماء
لا يعتبر المحيط فضاء حياة، بل ورشة عمل يخلق المرء أناه بنفسه فيها	يفهم المحيط كفضاء للخبرات. انتهت صلاحيته كفضاء حياة مُعطى مسبقًا وعوض بعوالم حياة عديدة
تعطى الأولوية للواقع المنظم شخصيًّا قبل الواقع الذي لا يحدده المرء بنفسه	تجر عوالم الخبرة المُنتجة/ المصنعة أكثر من العوالم الطبيعية الموروثة
يُجذب المرء بكل ما هو غير تقليدي وخيالي ويتجنب كل ما هو متفق عليه وما يهدم الأوهام	يُجذب المرء بكل ما هو غير تقليدي وخيالي ويتجنب كل ما هو متفق عليه وما يهدم الأوهام
يُسيطر على كل ما هو معقد ويخلق المشاكل عن طريق سبل غير تقليدية أو بتغيير البارادايغم	يُسيطر على كل ما هو معقد ويخلق المشاكل بجهد جماعي أو بتغيير عالم المعاشات أو يقضى عليه بتغيير نمط الحياة



يرتبط المرء بالآخرين انطلاقًا مما يحدد هو ذاته دون ارتباط عاطفي والأحاسيس المرافقة لها ودون الإحساس بأية مسؤولية اتجاه الآخرين، ومثال الحياة هو أن يعيش المرء وحده بارتباطات كثيرة مع الآخرين	يتم الارتباط بالآخرين عن طريق اقتسام عوالم تجربة مشتركة، دون أن يكون هناك ارتباط وإعطاء أهمية لنماذج حياة موجهة ونماذج السكنى معًا
ما يهم في العلاقة مع الآخرين هي الاستقلالية وأن يكون الإنسان مكتفيًا ذاتيًّا	حب المرء أن ينتمي للناس الذين يطابقونه
يجب على المرء أن يكون متسامحًا مع الآخرين إلى حدود اللامبالاة، وبالخصوص مع كل من يحدد ذاته بذاته	على المرء أن يكون متسامحًا مع كل من له الذوق نفسه ويهتم بهم، أما مع من «يعكرون له الجو»، فيجب أن يكون لامباليًا أو يقضي عليهم
على المرء أن يكون عادلًا ومتعاونًا مع كل من يعتبرون الحياة لعبة ومشروعًا ويشكلونها بنشاط هكذا، وعليه تجاهل كل من لا يريدون الدخول في اللعبة	على المرء أن يكون عادلًا ومتعاونًا مع كل من يقاسمونه عالم خبراته، ويتجاهل كل من ليست له علاقة بهم
تحدد العلاقات العاطفية المشتركة ذاتيًّا وتعتبر مشروعًا. كل العلاقات تكون مؤقتة، قد لا تدوم إلّا ليلة واحدة في بعض المرات أو لجزء من الحياة على أكبر تقدير	تعتبر العلاقات العاطفية المشتركة ارتباطًا براغماتيًّا وعلى المرء أن يبحث عن تجربة «النحن» في عوالم تجربة ونماذج حياة مُختلفة
تعتبر العائلة مجموعة من فناني الحياة ذوي أنا موجه، وهي مجموعة يكون فيها كل واحد مسؤولًا عن نفسه	يجب أن تُفهم العائلة كمجموعة عمل جيدة تتجاوز الأجيال، تكون لها أهمية طيل الحياة، ولهذا السبب يجب على الأطفال الراشدين البقاء تحت سقف الآباء
يُساعد الارتباط المباشر بالآخرين عن طريق المخدرات والمنشطات ويُعاش في الجنس	يُفهم الارتباط المباشر بالآخرين كغطس في علاقة مُنشطة أو في تجربة في مجموعة من الأشخاص، ويتم هذا غالبًا بمساعدة المخدرات
تُعطى الأفضلية في القدرة على بناء علاقة بشخص ما إذا فُهمت هذه العلاقة كاتصال ظريف، حيث يتكلم المرء دون حدود واستراحة في محاولة إثارة إعجاب الآخر	تُفهم القدرة على بناء علاقة بشخص ما كوعي بإمكانيات الاتصال المتاحة وكاهتمام بهذا الاتصال.



العمل على عقد اتصالات بالآخرين بطريقة نشيطة هو مصدر للفرحة، وهو تعويض عن الارتباط العاطفي	يريد المرء أن يكون على اتصال بالآخرين بطريقة نشيطة مُقتسمة، لكي يُمكنه المشاركة في مجموعة ما والانتماء إليها
يعتبر التواصل قبل كل شيء إخراجًا فنيًّا للذات من طرف الذات وتقديم معاشات/ خبرات خالية من أيّ ارتباط عاطفي	يعتبر التواصل في المقام الأول أن يكون المرء على اتصال بالآخرين دون قرب عاطفي منهم ودون متطلبات
تعني التسلية وجوب كون المرء مسليًا	تعني التسلية أن يُسلى المرء أو القيام بشيء ما معًا
يعتبر الفراق بين محبين نهاية مشروع وقرار شخصي للتطور الذاتي، ليس فيه حزن ولا حقد على الآخر	يعتبر الفراق تغييرًا إيجابيًّا لعوالم الحياة المقترحة وأنماطها وخبراتها، والممثلة في شركاء حياة ومؤسسات وجمعيات ومجموعات أخرى
يتجنب المرء الوحدة بخلق مشاريع اتصالات وعلاقات	يتجنب المرء الإقصاء عن طريق أنظمة ارتباط والسهر على اتصالات دائمة
إن القدرة على النقد هو حط كل ما سبق محط تساؤل، دون السقوط في «محاولة» إعطاء جواب أفضل	تتمثل القدرة على النقد في استهلاك المسلسلات والكوميديات والسخرية
يُقابل النقد الموجه للذات باللامبالاة ويُقضى عليه عن طريق اتصالات ومشاريع جديدة	يقابل النقد الموجه للذات باللامبالاة وفي حالة الضرورة يتهرب المرء منه بالانتماء إلى مجموعة جديدة أو الانضمام إلى عالم خبرة جديد
يفضل المرء في حالات الصراع والمشاكل عدم اختيار أيّ موقف أو يلتجئ إلى السخرية	يترك المرء الصراعات والمشاكل للآخرين ويتخذ موقف الملاحظ



2- خاصيات التعرف على ارتباط المرء بذاته وطريقة عيش ذاته بذاته

المقدم النشيط aktiver Anbietertypus	المقدم الخامل / السلبي passiver Anbietertypus
يعتبر عيش الذات انطلاقًا من ذاتها نتيجة Ich-Setzung (أنا أنا، لأنني أنا أنا)	يعتبر عيش الذات انطلاقًا من ذاتها نتيجة معاش النحن (أكون أنا أنا في معيش النحن)
تُعاش الذات من طرف ذاتها دون مُثل وعن طريق إخراج الذات لذاتها (لا ينتظرك/ يهتم بك أيّ أحد)	تُعاش الذات من طرف ذاتها عن طريق المشاركة في العوالم المُخرجة (أنت هنا ذاتك بذاتها)
على المرء أن يعيش ذاته كفاعل يحقق ذاته بنشاط وخلق	على المرء كمستهلك أن يُنشّط بمساعدة عُروض مسلية
على المرء أن يعيش ذاته بطريقة مغايرة للآخرين	على المرء أن يكون مغايرًا للآخرين ويعيش ذاته بطريقة مغايرة مع الآخرين
على المرء أن يحدد ذاته ومحيطه انطلاقًا من ذاته ويبدعهما من جديد باستمرار	على المرء أن يعيش ذاته عن طريق الانتماء إلى مجموعة في عوالم حياة مختلفة
على المرء أن يطور ويحدد ذاته بذاته بمشاريع مُوجهة	على المرء أن ينصهر في معيش النحن
على المرء أن يعيش بطريقة أصيلة. وتعني هذه الأخيرة بأنه على المرء أن يقول على الدوام ما يفكر فيه وما يشعر به	على المرء أن يعيش ذاته بأصالة بمساعدة العوالم الفوق عادية/ واقعية وبماركات منتوجات حقيقية
على المرء أن يكون منفتحًا بطريقة «ليس فيها حياء» ودون خجل	يتفرج المرء على عدم خجل الآخرين بخفاء
على المرء أن يترك مشاعره تعبر عن نفسها دون قيود أو شروط	على المرء أن يُنشط عن طريق عيش مشاعر الآخرين دون خجل وينقاد معها



يُنتج المرء العاطفة عندما يُقدم نفسه بعاطفة ومشاعر وأحاسيس	يستهلك المرء عروض المشاعر المُنتجة/ المصنعة ويعيش مشاعره الذاتية انطلاقًا منها
على المرء ألّا يكون متحجرًا ويلتزم عاطفيًا مع الآخرين	يكون المرء غير متحجر عندما يترك نفسه تُنشط بمساعدة عوالم خبرة منتوجة من طرف الآخرين
يكون المرء كفوًا عن طريق فرض أناه بذاته	يكون المرء كفوًا عن طريق التواصل والمشاركة والانتماء إلى مجموعات بشرية
على المرء أن يعيش حياته الجنسية ويشعر بها بطريقة مستقلة، كل شيء مسموح به، بما في ذلك الامتناع عن ممارسة الجنس	على المرء أن يشعر بأنه حر جنسيًا ويقبل/ يستعمل عروض تجارب في هذا الميدان
على المرء أن يتحرك لكي يحقق ذاته بذاته بطريقة أفضل	على المرء أن يتحرك ليستطيع المشاركة في عروض التجارب المقترحة
لكي يخلق المرء ذاته من جديد، عليه أن ينفتح على كل ما هو جديد وغير تقليدي ومغاير	على المرء أن يكون منفتحًا على كل ما هو جديد وغير تقليدي ومغاير لكي يُنشط من جديد ولكي يبقى في التيار
على المرء أن يحط كل شيء محط تساؤل، بما في ذلك نفسه ذاتها، فليس هناك شيء يبقى على حاله على الدوام	على المرء أن يحط نفسه محل سؤال، بما في ذلك نمط العيش المفضل بالنسبة له الآن، الذي قد يتغير
على المرء أن يسخر ويهزل من ذاته ليتجنب التشخص بالآخرين والارتباط بهم بقوة	لا يأخذ المرء مسافة من نفسه إلّا في ارتباطه بمجموعة، أو بنمط حياة أو بعالم تجربة معينة
على المرء أن يكون عفويًا، بمعنى أن يسلك طبقًا لرغباته (لأن لي رغبة في ذلك الآن بالضبط)	على المرء أن يكون عفويًا بضمان اتصالاته (لأنني أفكر فيك في هذه اللحظة بالذات)
على المرء أن يكون «حدسيًا»، لأن للمرء إحساسًا بما يعيشه	يتبع المرء كل من يُنشط ويعطي أفكارًا
على المرء أن يركب المخاطر ويتجاوز حدوده الذاتية	على المرء أن يتجاوز فردانيته عن طريق الانصهار في جمهور عريض والذهاب إلى الحفلات الكبرى



على المرء أن يكون متناقضًا، لأن التناقض هو ميزة توجه الأنا المحدد بذاته	على المرء أن يكون متناقضًا، لأن هذا الأخير هو صلة الوصل بالمجموعة التي ينتمي لها أو بنمط عيشه
على المرء تجنب تجارب التبعية للآخرين والاصطدام بحدود والتعويض عن هذا بالرغبة في السيادة المطلقة	على المرء تجنب وعي العوائق التي تعترضه والتمييز بين ذاته وبين الآخرين والتعويض عن هذا بالهجوم على الآخرين في بعض المرات
على المرء تجنب وعي المشاعر السلبية (كمشاعر الخجل والملل أو سلب القدرة) عن طريق خلق مشاعر إيجابية	على المرء تجنب وعي المشاعر السلبية (كمشاعر الخجل والملل أو سلب القدرة) عن طريق الارتماء في أحضان معروضات المشاعر الإيجابية



3 ـ خاصيات التعرف بالنظر إلى العمل المُزاول وكذا الوقت الثالث والسلوك الاستهلاكي

المقدم النشيط aktiver Anbietertypus	المقدم الخامل / السلبي passiver Anbietertypus
عوض تأمين الحياة والاستمرار فيها عن طريق إعادة الإنتاج، لابد من الاستثمار في خلق موارد جديدة	تُضمن الحياة والاستمرار فيها عن طريق تأمين أخذ نصيب للوصول إلى مصدر مواردها، لكي لا يخسر المرء «اللحاق» بالآخرين
إن الاعتقاد في إمكانية خلق الحياة والأسواق هو الداعم للاقتصاد والسياسة والمجتمع	تعتبر العوالم المصنعة وواقع الخبرات المُنتج «أكثر حيوية» وتنشيطًا ولهذا السبب تكون أفضل
ما يضمن الإنتاجية الاقتصادية ليس هو الامتلاك، بل إنتاج وعرض ومراقبة مصدر الموارد	ما يضمن النجاح الشخصي والاقتصادي ليس هو الامتلاك، بل الوصول إلى المصادر وإحراز جزء منها واستعمالها
يُعتبر إنتاج خبرات/ تجارب وعوالم خبرات جزءًا اقتصاديًّا مهمًّا	أهم ميدان للاستهلاك هي إمكانيات الخبرات
يُفهم العمل و(الوقت الثالث) نتيجة مشاريع مختلفة لتحقيق الذات	يعتبر العمل المزاول من طرف المرء أفضل من الانتماء إلى مجموعة عمل
تُعتبر المردودية في العمل نتيجة الرغبة في «الفعل»	تُعتبر المردودية في العمل نتيجة الانتماء إلى مجموعة العمل وإلى فلسفة المستثمر/ الشركة
ما يميز مدير الأعمال الناجح هو استعداده للمخاطرة «والفعل» وقوة فرض النفس والرغبة في «اللعب»	ما يميز مدير الأعمال الناجح هو الشعور بالمسؤولية والإحساس بنبضات السوق والاهتمام بمناخ العمل والأمور الاجتماعية للعاملين معه
تتمثل نقط ضعف مدير الأعمال في نقص التقمش العاطفي، إنكار المصالح الاجتماعية للعاملين معه ومقاومتهم وقساوته في التسيير	تتمثل نقط ضعف مدير الأعمال في تبعيته لمناخ عمل العاملين معه ونقص المنافسة وضعف الطموح



لابد أن تهيمن الحياة المهنية في حياة المرء وتتضمن الحياة العائلية إلى حدود بعيدة ولا تعتبر حياة مليئة باللذة وجميلة	كون الحياة المهنية في صراع مستمر مع الحياة الخاصة. يحاول المرء أن يجد خصائص الحياة الشخصية في العمل من جديد
تفهم العطلة والوقت الثالث كتشكيل نشيط لفضاء الخبرات/ التجارب للدخول إلى عوالم جديدة وغير معروفة وتجاوز الحدود المعروفة	تعتبر وظيفة العطلة والوقت الثالث غطس في عوالم خبرات لأخذ نصيب من تجارب وأنماط حياة جديدة
يُعاش الاستهلاك كإمكانية لتشكيل الذات وتكميل لتحقيقها	يعني الاستهلاك وصولًا للعالم الذي يوافقني وأخذ نصيب منه
ما يستهلكه المرء يتطابق مع ذاته، ولهذا السبب يكون «جميلًا» ومن اللازم التمتع به	يستهلك المرء ما يرغب فيه ولهذا تكون عوالم الخبرات والحفلات «جميلة»
يُعتبر التبضع «تجديدًا لخلق المرء لذاته» ويُعاش كإمكانية دينية تقريبًا	تكمن وظيفة التبضع في الحصول على رموز لنمط الحياة الشخصية وله جودة خبرة دينية
يُفضل استهلاك منتوجات الفن التشكيلي ومنتوجات مُصممة والسلع الكمالية وتلك الفريدة من نوعها وبضائع مُصنعة أو تكنولوجية وتلك التي تدفع للحنين إلى مرحلة في الحياة سابقة وكل ما له جودة الحدث	السلع المفضلة للاستهلاك هي تلك التي لها علامات تجارية وترمز إلى عوالم خبرة/ تجربة تكون لها جودة الحدث، الذي يود المرء الانتماء له
يعتبر إخراج/ إنتاج أحداث ثقافية أعلى قيمة من تحقيق الرغبات المادية أو علاقات	يساهم استهلاك المعروضات الثقافية في الرفع من جودة الحياة، لأن القدرة الذاتية على التمتع تابعة لمعروضات الاستمتاع



4 ـ خاصيات التعرف على الاهتمام بالتكوين والثقافة وكذا تحمل المسؤولية الاجتماعية والسياسية المسؤولة

المقدم النشيط	المقدم الخامل/غير النشيط
لا يعتبر هدف التكوين إعطاء وامتلاك العلم، لكن هدفه هو تعلم كيف يتعلم المرء والوصول إلى مصادر المعرفة	للتكوين علاقة بالاستعمال المستمر لمقترحات التعلم ووضع هذا الأخير في المتناول
يفهم التكوين المستمر كسيرورة تعلم مدى الحياة التطور والتمرن على الكفاءات الذاتية	فهم التكوين المستمر كسيرورة اكتساب دائمة للمعارف التي طورها آخرون
يصل التعلم إلى كماله عندما يستطيع المرء إنتاج وإخراج الواقع (التعلم بالممارسة learning by doing) وتبادل الأدوار	يتعلم المرء في المقام الأول عن طريق المشاركة وتكرار ما يشارك فيه المرء (بمشاهدة ما يتعلمه المرء عن طريق آليات الشرح الحديثة)
لا بد أن يكون للتعلم جودة المُعاش، التي يُنتجها المرء بذاته (حدائق المشي وبيداغوجية المُعاش)	لابد أن يكون للتعلم جودة المُعاش، الذي يُقترح/ يُعرض ويوضع رهن الإشارة من طرف آخرين
يتم التعلم عن طريق التفكير الذاتي الخلاق ووعي الأشياء والأوضاع والسلوك، دون الرجوع إلى ما هو قائم	يتم التعلم عن طريق الرجوع واستعمال ما فكر فيه الآخرون ووعوه وعملوه (البحث في الإنترنيت هو تعلم)
تعني التربية قبل كل شيء إعطاء قيمة للمُعاشات والمنتوجات المشكلة ذاتيًا بإبداع	تعني التربية قبل كل شيء اقتراح معروضات مُعاشية والتسلية (للقضاء على الملل)
تعتبر المعلومات والبيانات التجريبية والنتائج الإحصائية أهم من النظريات في بناء الواقع	من اللازم أن تكون للمعلومات قيمة مسلية وتُعطى/ تقدم فقط كمقترحات مُعاشية
يصل التعلم إلى كماله عندما يستطيع المرء إنتاج وإخراج الواقع (التعلم بالممارسة learning by doing) وتبادل المعلومات والبيانات التجريبية والنتائج الإحصائية أهم من النظريات في بناء الواقع	من اللازم أن تكون للمعلومات قيمة مسلية وتُعطى/ تقدم فقط كمقترحات مُعاشية
لا يعتبر العلم والمعلومات مُلكًا لأحد، بل يُنتجها في شكل «نصيحة» ووضعها في متناول الآخرين	ما يهم ليس هو امتلاك المعلومات والمعرفة، بل إدخالهما في شبكة التواصل مع مصادر معلومات ومعرفة أخرى



يكون العلم مهمًا عندما يكون قادرًا على الوصول إلى اختراعات جديدة مدهشة وغير عادية (كما هو الحال عليه في علم الجينات وتقنية المحاكاة)	كون العلم مهم عندما يستطيع تجاوز حدود الحواس ويسمح بالوصول إلى عوالم مُعاش جديدة
يعتبر التفكير عن طريق النظريات والمذاهب الفكرية غير بريء أيديولوجيًا. ما هو مهم هو التشكيل الجديد دون هدف مسبق وتنظيم المعلومات والعلم	عوض التفكير بواسطة مفاهيم نظرية وتصورات تاريخية، على المرء الاهتمام بإمكانيات الخلق فيها وقيمة التسلية التي تقدمها
لا تعتبر الثقافة «المحافظة» على ما يتمكن منه المرء وعلى الفن، لكن إخراج لواقع ولعوالم تسلية، وتقاس «قيمتها» بدرجة خاصيتها كحدث	تعتبر الثقافة استقبال وأخذ نصيب من العوالم المُنتجة وتقاس قيمتها بقيمة التسلية التي تقدمها
يعتبر التعدد والانفتاح الثقافيان أمرًا مفروغًا منه، ذلك أن للثقافة الأجنبية مفعولًا منشطًا على الإبداع الذاتي	يساهم التعدد والانفتاح الثقافيان في الرفع من القدرة الذاتية على الخبرة الشخصية وتقاس أهميته من خلال قيمة الخبرة التي يقدمها
نتج الالتزام السياسي والاجتماعي من الرغبة في الفعل على هذين المستويين، لتشكيلهما من جديد	يحد الالتزام السياسي والاجتماعي من الرغبة في المشاركة ويتوقف على القيمة المسلية له
يتم الالتزام السياسي والاجتماعي في المقام الأول في المشاريع ودون ارتباط، ومن اللازم أن يكون في خدمة تحقيق الذات	يتم الالتزام السياسي والاجتماعي بالخصوص في المجموعات التي تجمعها مصالح مشتركة، ومن اللازم أن يحقق الرغبة في الاستئناس والتسلية
لا بد أن يكون الاندماج الاجتماعي والتضامن والشعور بالمسؤولية في خدمة تحقيق المصالح الشخصية وتشكيل وإنتاج الأنا الذاتي	لابد أن يكون الاندماج الاجتماعي والتضامن والشعور بالمسؤولية في خدمة المحافظة على مُعاش الأنا في الارتباط بالآخرين
لا يُحدد إيثار الآخرين كفعل لصالح الآخرين، لكن كفعل أقوم فيه بشيء جميل لذاتي، عندما أقدم خدمة للآخرين	لا يُحدد إيثار الآخرين كفعل لصالح الآخرين، لكن كفعل ملتزم «جيد» يُنشط، لأن المرء يعيش ذاته في ارتباطه بالآخرين



5 ـ خاصيات التعرف المتعلقة بنمط الحياة والإستيطيقا اليومية

الأنا النشيط	الأنا الخامل
يشكل نمط الحياة طبقًا للذوق والتصورات الذاتية للفرد. الجميل هو كل ما يحدد ذاتيًا ويعبر عنه بنمط الحياة المتبع	يستخدم المرء في طريقة عيشه الشعارات Logos والماركات ورموز أنماط عيش معينة، للمشاركة في عوالم الحياة التي ترمز لها وتعبر عنها
من الضروري أن يُظهر نمط الحياة الخاص الأنا الخاص والشخصية المحددة ذاتيًا بكل وضوح	يتزين المرء بكل ما يرمز لنمط عيشه ويعبر عنه
يُستغل كل ما يمكن تشكيله (بدءًا من الجسد ووصولًا إلى أثاث المنزل) انطلاقًا من الرغبة في أداء الأنا بإعادة إنتاجه من جديد كل مرة	يُستغل كل ما يمكن تشكيله طبقًا لنمط الحياة، الذي يشعر المرء بأنه ينتمي له، لأداء الأنا
تتوافق أنماط حياة مختلفة والكل قابل للجمع	يمكن الجمع بين عناصر أنماط مختلفة، طالما أنها ترمز للشعور بالنحن
يعتبر الإبداع إخراجًا محددًا ذاتيًا لشيء جديد ومغاير	يُستمد الإبداع من إبداع سبقه بربطه بتعابير أخرى كاملة
يكون نمط الحياة المابعد حداثي موجهًا إلى فكرة الحدث ويتجاوز كل حدود («العدوان» على ما سبق)	من الضروري أن تكون عروض أنماط الحياة عروضًا تتضمن فكرة الخبرة/المعاش، يمكن للمرء الغطس فيها
تُفهم الحياة نفسها كحدث، كحفل واحتفال، ولهذا السبب على الأنا الموجه أن يفهم ذاته معارضًا للأحداث ومديرًا لها	تُفهم الحياة نفسها كحدث، كحفل واحتفال بطريقة يمكن للمرء فيه أن يكون له نصيب في كل ما له تشابه بالحدث
تُخرج الحفلات والاحتفالات العامة والخاصة بالكثير من التعب والرغبة	على المرء أن يحضر الحفلات العامة والخاصة
ما يميز فلسفة الحياة وفن الحياة التي يشكلها المرء بنفسه بالميول إلى كل ما هو جديد، مليء باللعب، غير ذي معنى ومتناقض	ما يميز فلسفة الحياة وفن الحياة التي على المرء ضمان حقه فيها هو الميول إلى كل ما هو جديد، المليء باللعب، غير ذي معنى ومتناقض



يبحث المرء عن كل ما هو متناقض ليعيشه دون صراعات، يمكن للمرء إظهار نمط حياته الخاص	لا يبحث المرء عن التناقض وعيشه دون صراعات، إلّا إذا كان ماركة خاصة لعالم الخبرة/ المعاش الذي اختاره المرء
تفهم الحياة ذاتها، بل أيضًا تنظيم اليوم كنتيجة لمشاريع محددة ذاتيًا، قد تكون متناقضة مع بعضها البعض	يُنظر للحياة وتنظيم اليوم كنتيجة لانتماءات مختلفة لمجموعات مختلفة، لا تربطها أية صلة مع بعضها البعض
لابد من من جهة رفع التمييز بين الحياة الخاصة ونظيرتها العامة (على المرء أن يكون «منفتحًا بطريقة خالية من الخجل»)، ومن جهة أخرى لابد من الدفاع عن الحياة الخاصة	يرغب المرء أخذ نصيبه من نشر الحياة الخاصة للآخرين ويفتح حياته الخاصة للمقربين منه



6 ـ خاصيات التعرف فيما يخص التوجه القيمي الاجتماعي والفردي وفن الحياة

الأنا النشيط	الأنا الخامل
يجب تحديد القيم ذاتيًا في استقلال عن الإكراهات المفروضة من الخارج («يسمح بكل ما يمكن عمله، وكل ما يمكن عمله مسموح به»)	تحدد القيم انطلاقًا من نمط الحياة الذي يوافق المرء ويكون له فيه نصب («المسموح به هو ما يتفق عليه»)
ما له قيمة هو ما يترك الآخرين يعيشون كما يحلو لهم وليست التوجهات القيمية المجتمعية المحددة مسبقًا	إن توجهات عالم الحياة الذي ينتمي له الفرد هي التي تحدد ما له قيمة
تعتبر تصورات العالم الموجهة قيميًا مشبوهة أيديولوجيا، هدفها هو إضعاف التعدد القيمي لواقع الحياة المحدد ذاتيًا	يجب تعويض تصورات العالم الموجهة قيميًا بالعيش المجتمي معًا الموجه بمعروضات خبرات/ تسلية
سواء أتعلق الأمر بالقيم الإيجابية (كالحب والتفكير الإيجابي) أو بالقيم السلبية (كالكراهية أو عدم الثقة)، فإن تفضيل هذه عن الأخرى مرهون بالإمكانية المتاحة لتقديم الأنا على خشبة المسرح	تفضيل عوالم التسلية الإيجابية أو السلبية متوقف على مدى تنشيط المرء. ما له قيمة هو ما يسلي المرء أكثر ويفسح المجال للمشاركة
يجب التسامح اتجاه التوجهات القيمية المعاشة، إلّا إذا حطت حق المرء في وضع قيمه بذاته محط تساؤل	يجب اختيار التسامح اتجاه التوجهات القيمية المعاشة، والتساؤل حول ما إذا كانت متطابقة مع «طريق حياة» المرء أم لا
يعتبر «تعايش» قيم متناقضة ميزة خاصة بالأنا الموجه والإبداع في إخراج الذات بذاتها	يقبل «تعايش» قيم متناقضة عندما تكون وظيفته هي وضع حدود لعالم حياتي وعالم حياة الآخرين
ترفع الحدود الأصلية المؤسسة على الانتماء الاجتماعي لمجموعة ما (الجنس، العمر، الوضع، التكوين إلخ) وتعوض بحدود غيرها	ترفع الحدود الأصلية للانتماء لمجموعة ما وتعوض بنمط حياة يميز الانتماء لمجموعة ما



يرفض الدين المؤسساتي كنظام للارتباط ولا يرجع المرء له إلّا عندما يُخرج المرء بذاته عتبات حياة معينة (الازديـاد، نهاية الطفولة، الزواج، الوفاة)	كإمكانية للارتباط غير المفروض جاذبية جديدة، وبالخصوص عندما يتعلق الأمر بممارسات دينية بعينها كإمكانيات مسلية لأوضاع حياة معينة
عـوض الانتماء إلـى أشـكـال التدين والروحانيات الموروثة، فإنه يجب على كل واحد أن يكون خالق تدينه وروحانياته	عـوض الانتماء إلـى أشـكـال التدين والروحانيات الموروثة، على المرء أن يجرب تجارب دينية وروحية (من الأفضل ألّا تكون تابعة للكنيسة) ذات قيمة مسلية
يُنظر للدين كحاجة تتجاوز الذات للوصول إلى حقيقة أسمى وإلـى روحانية ذاتية (بالإمكان المزج فيها بين الحكمة الشرقية والتصوف الغربي)	على المرء أن يتمثل الدين كاختيار حر للتجربة الروحية الذاتية، يمكن للمرء الوصول بواسطتها إلى أبعاد الآخرة والسحر والتصوف
يعتبر فن الحياة إنتاجًا ذاتيًّا للملذات تحت شعار: («لا تقلق، كن سعيدًا don't worry, be happy»)	يفهم فن الحياة كغطس في الكوميديا وعالم المسرات، الذي يعتبر «أسمى إحساس موجود»
يُفهم معنى الحياة على ضوء فن الحياة الجديد كتذوق/ تمتع محدد ذاتيًّا (حيث يمكنني أن أعمل ما أريده وأترك الآخرين يعملون ما يريدونه ـ «الحياة الجميلة bella vita»)	يتأسس معنى الحياة على البحث عن إمكانيات «حياة جميلة» والتمتع بها (ومن الأفضل أن يعاش هذا مع مجموعة)



7 ـ خاصيات التعرف المتعلقة بعينات التفكير والإدراك ومعاش الفضاء والزمن

الأنا النشيط	الأنا الخامل
لا يعتبر التفكير سببيًّا ـ برهانيًّا ويهتم باكتشاف العلاقات السببية، بل إنه يجمع، يقفز من هنا إلى هنا ويبحث عن تراكيب جديدة	لا يُعتبر تجميع الحركات الفكرية المتشابهة معقولًا، وله قيمة مسلية أكبر ويساعد على التعلم أكثر من التفكير القح عن طريق العلاقات السببية
لا يتمظهر إبداع الفكر في تكوين النظريات، لكن في جمع ما حلله المرء بمعنى شخصي	تمظهر التفكير المبدع في الأماكن حيث يستعمل المرء إمكانيات وسيلة من الوسائل عن طريق اللعب والجمع ويصل إلى تركيبات جديدة
من الأفضل إدراك الأمور/ الأشياء عن طريق المشاهدة (صور، أفلام، بيانات، صور بصوت، صور لغوية، صور مصطلحية، تعابير ملموسة): فلا يمكن إظهاره عن طريق الصور، لا يكون له حظ كبير في أن يصبح معاشًا	يُختزل الإدراك في إدراك واستقبال مقترحات مسلية عن طريق الصور (صور، أفلام، بيانات، صور بصوت، صور لغوية، صور مصطلحية، تعابير ملموسة)، وتتراجع القدرة على التمثل الشخصي بقوة
يتأسس الإدراك على التغير السريع للمثيرات الحسية، التي لا تحلل ويجاب عنها، بل تُعاش فقط. وبهذا يصبح الإدراك مُشكلًا من أشياء كثيرة، وبهذا تحدث نتيجة صدفوية واحدة لصورة مدهشة، دون أن تكون هناك بنية أو علاقة ما بين الصور	يعتمد المابعد حداثي الخامل أكثر فأكثر على الإدراك المكتسب. يفضل ما يقترح عليه من معاشات حسية. ويُختزل الإدراك هنا على عيش المثيرات. ولا يعني عيش شيء ما بأن هناك شيئًا ما يبدأ بالحياة/ العيش في إنسان ما عن طريق مثير ما، لكنه يكون تباعًا مجمعًا بالصدفة للمثيرات غير المُحللة
لا ينبع الوعي من الذات أو من الهوية ويبنى عن طريق هذه الأخيرة، لكنه له علاقة بالواقع المحدد والمختار ذاتيًّا: لا يكون المرء واعيًا إلّا بالواقع الذي يُنتجه أو ذاك الذي تكون له به علاقة مستقلة/ حرة	لا يعرف الوعي أية مضامين وخاصيات سبقته، لكنه يقوم بربط مضامين مقترحة، ولهذا السبب فإنه يكون علائقيًّا. إنه يحدد انطلاقًا من المضامين المقترحة، والتي يستعملها المرء باختيار ذاتي



يكون الموقف من التراث متجاذبًا: مبدئيًا يعاش كل ما ورث كتحديد أجنبي للذات ويكون الواقع فيه مجرى محددًا. في مقابل التخلص من الموروث، هناك نوع من الحنين له، عندما يكون هذا الموروث قادرًا على إخراج جديد للواقع غير معتاد	يكون الموقف من التراث متجاذبًا: يكون المرء إما متحررًا من التراث («ماذا يهمني فيما حصل البارحة») أو مرتبطًا به («الحنين هو كل شيء»)، عندما يُقترح الموروث كحدث ويكون باستطاعة المرء الغطس في عالم التذكر والموروث
لا يعتبر الفضاء (كمحيط، فضاء حياة، فضاء سكن، جسد، حياة داخلية) معطى مسبق، لكن شيئًا يجب خلقه من جديد وتشكيله وتجميله واقتراحه/ عرضه. ولهذا السبب يجب إعادة إحياء الفضاء المعطى ليصبح فضاء خبرات	يجب أن يكون الفضاء فضاء خبرات وحياة. ولهذا السبب يجب استعمال الفضاءات المقترحة/ المعروضة (شراؤها، كراؤها، الوصول إليها، رسمها، محاكاتها إلخ)، لأن النشاط والحياة والتنشيط والتسلية تنطلق منها
يتميز التعامل مع الوقت بكونه يكون في متناول المرء (يحدده بذاته ويديره كما يريد) وألّا يكون مرتبطًا قدر الإمكان بالوقت الذي يحدد الآخر	يتميز التعامل مع الوقت قبل كل شيء بكون المرء يعي الوقت المقترح انطلاقًا من ذاته وعلى المرء أن يصل إلى أوقات التسلية انطلاقًا من حاجياته الذاتية بشرائها أو كرائها
ما يطبق في التعامل مع الوقت هو طغيان الحاضر أو الديمومة: تهدم الحدود في معيش الوقت عن طريق العيش في اللحظة الراهنة، في الهنا والآن، في أسفار زمانية، في القضاء على المدة بواسطة السرعة، لكن أيضًا عن طريق «الاسترخاء» و«التبطيء» أو بواسطة «اكتشاف البطء»	ما يطغى في التعامل مع الوقت هي الرغبة في إمكانية نسيان الوقت. وبما أن الوقت لا يُعاش، بسبب قلة النشاط الداخلي، إلّا كديمومة، فإن الوقت يعني قبل كل شيء الملل، وهو أمر يجب تجنبه بالمرور إلى المقترحات التي تنسي الملل، نظرًا لخاصيته كحدث
يعتبر التعامل مع المستقبل مضادًّا للطوباوية و«غير مسؤول»: كل ما يهم هو اليوم («المستقبل هم نحن») عفا الزمن على نماذج المستقبل المجتمعية والاجتماعية السياسية والأيكولوجية المستدامة، لأنها مشبوهة أيديولوجيًّا	يعتبر التعامل مع المستقبل طوباوية أو نافيًا للمستقبل. فالأوطوبيا هي مثلًا هروب إلى عالم خيالي (science fiction)، أما نفي المستقبل فهو عدم الاهتمام بالجيل القادم




مكتبة
الفكر الجديد

المصادر والمراجع

- Bauman, Z., 1999: Unbehagen in der Postmoderne (Postmodernity and its discontents), Hamburg (HIS Verlags-Gesellschaft.
- Beck, U., 1986: Risikogesellschaft: Auf dem Weg in eine andere Moderne, Frankfurt am Main 1986; hier zitiert nach der 10. Auflage 1993.
- 1997 (Hg.): Kinder der Freiheit, Frankfurt am Main (Suhrkamp).
- 1999: Schöne neue Arbeitswelt: Vision: Weltbürgergesellschaft, Frankfurt am Main (Campus).
- 2001: «Das Zeitalter des ‚eigenen Lebens», in: APuZ (Aus Politik und Zeitgeschichte: Beilage zur Wochenzeitung Das Parlament) B29 / 2001, S. 3-6.
- und Bonss, W. (Hg.), 2001: Die Modernisierung der Moderne, Frankfurt am Main (Suhrkamp, Taschenbuch Wissenschaft 1508).
- und Sopp, P., 1997: Individualisierung und Integration. Neue Konfliktlinien und neuer Integrationsmodus?, Opladen (Leske und Budrich).
- Beigbeder, F., 2002: Neununddreißigneunzig, Reinbek bei Hamburg 2002; Originaltitel: 99 Francs, Paris 2000.
- Bensel, J., 2003: Vortrag beim Südwestrundfunk in der Reihe «Die Aula» am 19. Oktober 2003, hier zitiert nach dem im Internet zugänglichen Manuskript.
- Bilden, H., 1998: «Das Individuum - Ein dynamisches System vielfältiger Teil-Selbste», in: H. Keupp und R. Höfer (Hg.):



Identitätsarbeit heute: Klassische und aktuelle Perspektiven der Identitätsforschung, Frankfurt am Main.

- Bion, W., 1959: «Attacks on Linking», in: International Journal of Psycho-Analysis, Band 40.
- Bolz, N., 1999: Die Konformisten des Andersseins. Ende der Kritik, München (Wilhelm Fink Verlag).
- und Bosshart, D., 1995: KULT-Marketing. Die neuen Götter des Marktes, Düsseldorf (Econ Verlag).
- Boros, I., et al., 2003: Wir Boros und das Schwarzwaldhaus, Bergisch-Gladbach (Lübbe).
- Busch, H.-J., 2002: «Internet - bin ich drin? - Zum Strukturwandel von Subjektivität im Cyberspace», in: Psychosozial, Nr. 89 (Schöne neue Cyberwelt?), 25. Jahrgang (Heft III) 2002, S. 5-12.
- Carpy, D. V., 1989: «Tolerating the Countertransference: A Mutative Process», in: International Journal of Psycho-Analysis, Band 70, S. 287-294.
- Davis, S. M., und Meyer, C., 1998: Blur. The Speed of Change in the Connected Economy, Oxford.
- Döring, N., 2003: Sozialpsychologie des Internet. Die Bedeutung des Internet für Kommunikationsprozesse, Identitäten, soziale Beziehungen und Gruppen, 2. Aufl., Göttingen (Hogrefe).
- Dornes, M., 1993: Der kompetente Säugling. Die präverbale Entwicklung des Menschen, Frankfurt am Main (Fischer Taschenbuch Verlag).
- 1997: Die frühe Kindheit. Entwicklungspsychologie der ersten Lebensjahre, Frankfurt am Main (Fischer Taschenbuch Verlag).
- 2002: «Der virtuelle Andere. Aspekte vorsprachlicher Intersubjektivität», in: Forum der Psychoanalyse, Heidelberg (Springer), Band 18, S. 303-333.



- Dulz, B., 2000: «Der Formenkreis der Borderline-Störungen: Versuch einer deskriptiven Systematik», in: O. F. Kernberg et al., Handbuch der Borderline-Störungen, Stuttgart und New York (Schattauer), S. 57-74.

- Ermann, M., 2003: «Über mediale Identifizierung», in: Forum der Psychoanalyse, Heidelberg (Springer), Band 19 (Heft 2-3), S. 181-192.

- Flade, U., 1994: «Wie kommt man an?», in: Südwestpresse, Ulm, 20. 07. 1994, S. 26.

- Frank-Rieser, E., 2002: «Politische (Gruppen-)Psychoanalyse - Stiefkind zwischen Mythos und Aufklärung», in: Texte. Psychoanalyse - Ästhetik - Kulturkritik, Innsbruck, Band 22 (Heft 4, 2002), S. 40-69.

- 2003: «Fragen an ‚Historie' und ‚Szene': Zu gegenwärtigen Tendenzen in der klinischen und nicht-klinischen psychoanalytischen Fallarbeit», in: Materialien des Innsbrucker Arbeitskreises für Psychoanalyse, Innsbruck, Nr. 13, 2003, S. 1-9.

- Freud, A., 1936: Das Ich und die Abwehrmechanismen, London 1936/1964 (Imago Publ.); Taschenbuch «Geist und Psyche» Band 2001, München (Kindler Verlag) o. J. bzw. Band 42001, Frankfurt am Main (S. Fischer Verlag) 2003.

- Freud, S.: Gesammelte Werke (G. W.) [hier zitierte Ausgabe] Bände 1-17, London 1940-1952 (Imago Publishing Co.) und Frankfurt 1960 (S. Fischer Verlag). - Sigmund Freud. Studienausgabe (Stud.) Bände 1-10. Ergänzungsband (Erg.), Frankfurt 1969-1975 (S. Fischer Verlag).

- 1898b: Zum psychologischen Mechanismus der Vergesslichkeit, G. W. Band 1, S. 517-527.

- 1900a: Die Traumdeutung. G. W. Band 2 und 3; Stud. Band 2.

- 1901b: Zur Psychopathologie des Alltagslebens, G. W. Band 4, S. 5-310.



- 1908b: «Charakter und Analerotik», G.W. Band 7, S. 201-209; Stud. Band 7, S. 23-30.

- 1915d: Die Verdrängung, G. W. Band 10, S. 247-261; Stud. Band 3, S. 103-118.

- 1926d: Hemmung, Symptom und Angst, G. W. Band 14, S. 111-205; Stud. Band 6, S. 227-308.

- 1930a: Das Unbehagen in der Kultur, G. W. Band 14, S. 419-506; Stud. Band 9, S. 191-270.

- 1933a: Neue Folge der Vorlesungen zur Einführung in die Psychoanalyse, G. W. Band 15; Stud. Band 1, S. 447-608.

- 1940a: Abriss der Psychoanalyse, G. W. Band 17, S. 63-138; Stud. Erg. S. 407-421.

- Fromm, E.: Erich Fromm Gesamtausgabe (GA) in zwölf Bänden, hg. von Rainer Funk, Stuttgart und München (Deutsche Verlags-Anstalt und Deutscher Taschenbuch Verlag) 1999. Die Bände I bis IX sind mit der 1980/81 publizierten Erich Fromm Gesamtausgabe in zehn Bänden identisch. Die Bände XI und XII der Neuausgabe von 1999 sind auch als gebundene Ergänzungsbände bei der Deutschen Verlags-Anstalt erschienen.

- 1930a: Die Entwicklung des Christusdogmas. Eine psychoanalytische Studie zur sozialpsychologischen Funktion der Religion, GA VI, S. 11-68.

- 1931b: Politik und Psychoanalyse, GA I, S. 31-36.

- 1936a: «Sozialpsychologischer Teil», GA I, S. 139-187.

- 1941a: Die Furcht vor der Freiheit, GA I, S. 215-392.

- 1944a: «Individuelle und gesellschaftliche Ursprünge der Neurose», GA XII, S. 123-129.

- 1947a: Psychoanalyse und Ethik, GA II, S. 1-157. Neue Taschenbuchausgabe unter dem Titel Den Menschen verstehen.



Psychoanalyse und Ethik beim Deutschen Taschenbuch Verlag dtv 34077.

- 1949a: «Das Wesen der Träume», GA IX, S. 161-168.
- 1951a: Märchen, Mythen, Träume. Eine Einführung in das Verständnis einer vergessenen Sprache, GA IX, S. 169-309.
- 1955a: Wege aus einer kranken Gesellschaft, GA IV, S. 1-254.
- 1956a: Die Kunst des Liebens, GA IX, S. 437-518.
- 1960a: Psychoanalyse und Zen-Buddhismus, GA VI, S. 301-358.
- 1962a: Jenseits der Illusionen. Die Bedeutung von Marx und Freud, GA IX, S. 37-155.
- 1964a: Die Seele des Menschen. Ihre Fähigkeit zum Guten und zum Bösen, GA II, S. 159-268.
- 1968a: Die Revolution der Hoffnung. Für eine Humanisierung der Technik, GA IV, S. 255-377.
- 1968g: «Introduction», in: E. Fromm und R. Xirau (Hg), The Nature of Man. Readings selected, edited and furnished with an introduction by Erich Fromm and Ramón Xirau, New York (Macmillan) 1968; deutsch: «Einleitung», GA IX, S. 375-391.
- 1972a: «Der Traum ist die Sprache des universalen Menschen», GA IX, S. 311-315.
- 1973a: Anatomie der menschlichen Destruktivität, GA VII.
- 1976a: Haben oder Sein. Die seelischen Grundlagen einer neuen Gesellschaft, GA II, S. 269-414.
- 1977i: Fernseh-Interview mit Micaela Lämmle und Jürgen Lodemann: «Die Kranken sind die Gesündesten», in: Die Zeit, Hamburg (21.3.1980). - Das Fernseh-Interview selbst ist als Videoband im Verlag Audiotorium Netzwerk, Mühlheim (Best. Nr. 213452) erschienen.



- 1979a: Sigmund Freuds Psychoanalyse - Größe und Grenzen, GA VIII, S. 259-362.
- 1989a [1974-75]: Vom Haben zum Sein. Wege und Irrwege der Selbsterfahrung, GA XII, S. 393-483.
- 1991d [1974]: «Therapeutische Aspekte der Psychoanalyse», GA XII, S. 259-367.
- 1991e [1953]: «Die Pathologie der Normalität des heutigen Menschen. Vier Vorlesungen aus dem Jahr 1953», GA XI, 211-266.
- 1991h [1974]: «Ist der Mensch von Natur aus faul?», GA XII, S. 161-192.
- 1992e [1937]: «Die Determiniertheit der psychischen Struktur durch die Gesellschaft. Zur Methode und Aufgabe einer Analytischen Sozialpsychologie», GA XI, S. 129-175.
- 1992g [1959]: «Das Unbewusste und die psychoanalytische Praxis», GA XII, S. 201-236.
- 1992h [1975]: «Die Bedeutung der Psychoanalyse für die Zukunft», GA XII, S. 369-390.
- Funk, R., 1978: Mut zum Menschen. Erich Fromms Denken und Werk, seine humanistische Religion und Ethik. Mit einem Nachwort von Erich Fromm, Stuttgart (Deutsche Verlags-Anstalt).
- 1985: «Der Mythos auf der Couch: Transzendenzerfahrung und symbolische Sprache des Unbewussten,» in: A. Halder et al. (Hg.): Mythos und religiöser Glaube heute, Donauwörth (Verlag Ludwig Auer), S. 79-98.
- 1995: «Der Gesellschafts-Charakter: 'Mit Lust tun, was die Gesellschaft braucht'», in: Internationale Erich-Fromm-Gesellschaft (Hg.), Die Charaktermauer. Zur Psychoanalyse des Gesellschafts-Charakters in Ost- und Westdeutschland. Eine



Pilotstudie bei Primarschullehrerinnen und -lehrern, Göttingen and Zürich (Vandenhoeck und Ruprecht), S. 17-73.

- 2000: «Psychoanalyse der Gesellschaft. Der Ansatz Erich Fromms und seine Bedeutung für die Gegenwart,» in: R. Funk, H. Johach, and G. Meyer (Hg.), Erich Fromm heute. Zur Aktualität seines Denkens, München (Deutscher Taschenbuch Verlag), S. 20-45.

- 2000a: «Der wichtigste Gegenstand der Produktivität ist der Mensch selbst». Vortrag bei der Tagung ‚Produktivität - ökonomische Leitidee und Inbegriff gelingenden Lebens?, in: Fromm Forum (deutsche Ausgabe), Tübingen (Selbstverlag), No. 4a (Sonderheft, 2000), S. 23-33.

- 2002: «Psychoanalysis and Human Values,» in: International Forum of Psychoanalysis, Oslo (Scandinavian University Press) Band 11 (Nr. 1, März 2002), S. 18-26.

- 2002a: «Destruktivität als Faszination und Folge ungelebten Lebens - Erich Fromms Verständnis der Nekrophilie», in: M. Zimmer (Hg.), Der 11. September und die Folgen. Beiträge zum Diskurs nach den Terroranschlägen und zur Entwicklung einer Kultur des Friedens, Tübingen (Selbstverlag der Internationalen Erich-Fromm-Gesellschaft) 2002, S. 57-89. - Bezug über das Erich Fromm-Archiv, Ursrainer Ring 24, D-72076 Tübingen.

- 2002b: «Die allgegenwärtige Marketing-Orientierung,» in: M. Ferst (Hg.), Erich Fromm als Vordenker. ‚Haben oder Sein' im Zeitalter der ökologischen Krise, Berlin (Edition Zeitsprung) 2002, S. 143-158.

- 2003: «Was heißt ‚produktive Orientierung' bei Erich Fromm?», in: Fromm Forum (deutsche Ausgabe), Tübingen (Selbstverlag Internationale Erich-Fromm-Gesellschaft), Nr. 7 (2003), S. 14-27. - Bezug über das Erich Fromm-Archiv, Ursrainer Ring 24, D-72076 Tübingen.



- 2003a: «Die unerträgliche Realität und die Leichtigkeit der Illusion. Psychische Folgen einer inszenierten illusionären Wirklichkeitswahrnehmung», in: Analytische Kinder- und Jugendlichen-Psychotherapie, Frankfurt (Brandes und Apsel Verlag), Heft 117, 34. Jahrgang, Nr. 1, 2003, S. 77-108.

- 2004: «Erich Fromms Menschenbild und das postmoderne Verständnis von Authentisch leben», in: Fromm Forum (deutsche Ausgabe), Tübingen (Selbstverlag Internationale Erich-Fromm-Gesellschaft), Nr. 8 (2004), S. 16-31. - Bezug über das Erich Fromm-Archiv, Ursrainer Ring 24, D-72076 Tübingen.

- 2005: «Zu Theorie und Methode einer Analytischen Sozialpsychologie», in: R. Funk, G. Meyer, R. Frankenberger und J. Ueltzhöffer, Gesellschaft - Milieu - Charakter. Empirische Studien zum postmodernen Charakter (in Vorbereitung)

- Gergen, K. J., 1991: The Saturated Self. Dilemmas of Identity in Contemporary Life, New York; deutsch: Das übersättigte Selbst. Identitätsprobleme im heutigen Leben, Heidelberg (Auer Verlag) 1996.

- Gilmore, Th., und Krantz, J., 2003: «Projektive Identifizierung in der Organisationsberatung», in: Freie Assoziation, Heft 2, S. 53-72.

- Gordon, D. D., 2002: «Interview», in: Der Brückenbauer, Zürich, Nr. 40 (01. Oktober 2002), S. 93.

- Hamilton, N. G., 1986: «Positive Projective Identification», in: International Journal of Psycho-Analysis, Band 67, S. 489-496.

- Haubl, R., 1997: «Postmoderne Phantasien und verdinglichte Moral,» in: H. A. Hartmann und K. Heydenreich (Hg.), Ethik und Moral in der Kritik. Eine Zwischenbilanz, Frankfurt (Moritz Diesterweg), S. 68-75.

- Heimann, P., 1950: «On Counter-Transference», in: International Journal of Psycho-Analysis, Band 31, S. 81-84.



- 1960: «Counter-Transference», in: British Journal of Medical Psychology, Band 33, S. 9-15.
- 1966: Bemerkungen zum Arbeitsbegriff in der Psychoanalyse», in: Psyche, Band 20, S. 321-361.
- Hilgers, M., 1996: Scham. Gesichter eines Affekts, Göttingen und Zürich (Vandenhoeck und Ruprecht).
- Hüther, G., 1997: Biologie der Angst. Wie aus Stress Gefühle werden, Göttingen (Vandenhoeck und Ruprecht).
- 2002: Bedienungsanleitung für ein menschliches Gehirn, Göttingen (Vandenhoeck und Ruprecht).
- Kernberg, O. F., 2000: «Borderline-Persönlichkeitsorganisation und Klassifikation der Persönlichkeitsstörungen», in: ders. et al., Handbuch der Borderline-Störungen, Stuttgart und New York (Schattauer), S. 45-56.
- Dulz, B., und Sachsse, U., (Hg.), 2000: Handbuch der Borderline-Störungen, Stuttgart und New York (Schattauer).
- Keupp, H., 1999: Identitätskonstruktionen - Das Patchwork der Identitäten in der Spätmoderne, Reinbek bei Hamburg (Rowohlt)
- 2000: Eine Gesellschaft der Ichlinge? Zum bürgerschaftlichen Engagement von Heranwachsenden, München (Sozialpädagogisches Institut im SOS- Kinderdorf e.V.).
- und Höfer, R. (Hg.), 1998: Identitätsarbeit heute: Klassische und aktuelle Perspektiven der Identitätsforschung, Frankfurt am Main.
- Klages, H., 1998: «Engagement und Engagementpotential in Deutschland. Erkenntnisse der empirischen Forschung», in: APuZ (Aus Politik und Zeitgeschichte: Beilage zur Wochenzeitung Das Parlament) B 38 / 1998, S. 29-38.
- Klein, M., 1946: «Notes on Some Schizoid Mechanisms», in:



International Journal of Psycho-Analysis, Band 27, S. 99-110; deutsch: «Bemerkungen über einige schizoide Mechanismen», in: M. Klein, Das Seelenleben des Kleinkindes, Reinbek (Rowohlt) 1972, S. 101-125.

- Klein, N., 2001: No Logo! Der Kampf der Global Players um Marktmacht. Ein Spiel mit vielen Verlierern und wenigen Gewinnern, Gütersloh (C. Bertelsmann Verlag).
- Körber-Stiftung (Hg), 1993: Wieviel Gemeinsinn braucht die liberlae Gesellschaft? Hamburg (Körber-Stiftung)
- Lifton, R. J., 1993: The Protean Self. Human Resilience in a Age of Fragmentation, New York.
- List, E., 2000: «Floating Identities, Terminal Bodies», in: Das Argument. Zeitschrift für Philosophie und Sozialwissenschaften, Nr. 5/6, 2000, S. 777-784.
- Lyotard, J.-F., 1999: Das postmoderne Wissen. Ein Bericht, hg. von Peter Engelmann, 4. unveränderte Neuauflage, Wien (Passagen-Verlag).
- Meyer, G.: persönliche Mitteilung.
- 2002: Freiheit wovon, Freiheit wozu? Politische Psychologie und Alternativen humanistischer Politik bei Erich Fromm. Darstellung - Interpretation - Kritik, Opladen (Leske und Budrich).
- Ogden, T.H., 1982: Projective Identification and Psychotherapeutic Technique, New York (Jason Aronson Publishing); vgl. den ins Deutsche übersetzten Beitrag: «Die projektive Identifikation,» in: Forum der Psychoanalyse, Berlin etc. (Springer-Verlag), Band 4 (1988), S. 1ff.
- Opaschowski, H. W., 2000: Kathedralen des 21. Jahrhunderts. Erlebniswelten im Zeitalter der Eventkultur, Hamburg (B.A.T. Freizeit-Forschungsinstitut).
- Packard, V., 1958: Die geheimen Verführer. Der Griff nach



dem Unbewussten in Jedermann (Originaltitel: The Hidden Persuaders), Düsseldorf (Econ).

- Peppers P., und Rogers, M., 1993: The One to One Future. Building Relationships One Customer at a Time, New York.
- Richter, H. E., 2002: Das Ende der Egomanie. Die Krise des westlichen Bewusstsein, Köln (Verlag Kiepenheuer und Witsch) 2002.
- Rifkin, J., 2000: Access. Das Verschwinden des Eigentums, Frankfurt und New York (Campus Verlag).
- Schmid, W., 1998: Philosophie der Lebenskunst. Eine Grundlegung, 5. Auflage, Frankfurt (Suhrkamp Taschenbuch Verlag).
- Schulze, G., 1992: Die Erlebnisgesellschaft. Kultursoziologie der Gegenwart, Frankfurt (Campus).
- 2003: Die Beste aller Welten. Wohin bewegt sich die Gesellschaft im 21. Jahrhundert?, München und Wien (Hanser Verlag).
- Sennet, R., 1998: Der flexible Mensch. Die Kultur des neuen Kapitalismus (The Corrosion of Character), Berlin (Berlin-Verlag 1998; Siedler Verlag 2000).
- Spiegler, J., 2003: «Die Wahl der reinen Vernunft. Fahrbericht VW Touran», in: Südwestpresse, Ulm, 31. 12. 2003.
- Thöma, H., und Kächele, H., 1988: Lehrbuch der psychoanalytischen Therapie, Band 2: Praxis, Berlin (Springer Verlag).
- Toffler, A., 1970: Future Shock, New York.
- Turkle, S., 1995: Life on the Screen. Identity in the Age of the Internet, New York; deutsch: Leben im Netz. Identität in Zeiten des Internet, Reinbek bei Hamburg (Rowohlt) 1998.
- Ueltzhoeffer, J.: persönliche Mitteilung.
- 1999: «Europa auf dem Weg in die Postmoderne. Transnatio-



nale soziale Milieus und gesellschaftliche Spannungslinien in der Europäischen Union», in: W. Merkel und A. Busch (Hg.), Demokratie in Ost und West. Festschrift Klaus Beyme, Frankfurt (Suhrkamp), S. 624-652.

- 2000: Lebenswelt und Bürgerschaftliches Engagement. Soziale Milieus in der Bürgergesellschaft, Stuttgart (Sozialministerium Baden-Württemberg).
- Flaig, B. B., und Meyer, Th., 1997: Alltagsästhetik und politische Kultur. Zur ästhetischen Dimension politischer Bildung und politischer Kommunikation, 3. Aufl., Bonn (Dietz Verlag).
- Walser, R., 1990: «Elements of a Cyberspace Playhouse», in: Proceedings of National Computer Graphics Association, No. 90.
- Welsch, W., 1997: Unsere postmoderne Moderne, 5. Aufl., Berlin (Akademie-Verlag).
- Willi, J., 1975: Die Zweierbeziehung, Reinbek bei Hamburg (Rowohlt Verlag).
- 1978: Therapie der Zweierbeziehung, Reinbek bei Hamburg (Rowohlt Verlag), hier zit. nach der Ausgabe des Buchclubs Ex Libris, Zürich 1980.
- Wurmser, L., 1993: Die Maske der Scham. Die Psychoanalyse von Schamaffekten und Schamkonflikten, 2. erw. Auflage, Berlin (Springer-Verlag).



المؤلف في سطور

ولد د. راينر فونك يوم 18 شباط/ فبراير 1943 م بمدينة توبينغن الألمانية. درس الفلسفة وعلوم الدين، قبل أن يتخصص في السيكولوجيا وبالتحديد التحليل النفسي. حصل على شهادة الدكتوراه عام 1977م وكان آخر تلامذة ومساعدي المحلل النفسي الألماني الشهير إيريك فروم بين 1974 و1980 م. بعد وفاة فروم أصبح فونك الوارث الشرعي لتركته الفكرية. أسس معية آخرين الجمعية العالمية إيريك فروم، وبعدها أرشيف إيريك فروم بمدينة توبينغن.

نشر الأعمال الكاملة لإيريك فروم في 12 مجلدًا، واشتغل محللًا نفسيًّا ومحاضرًا في جامعات ألمانية متعددة. له مؤلفات قيمة منها:

- Mut zum Menschen. Erich Fromms Denken und Werk, seine humanistische Religion und Ethik. Mit einem Nachwort von Erich Fromm. DVA, Stuttgart 1978.
- Erich Fromm, mit Selbstzeugnissen und Bilddokumenten dargestellt (= Rowohlts Monographien. Bd. 322). Rowohlt, Reinbek bei Hamburg 1983.
- Erich Fromm – Liebe zum Leben. Eine Bildbiographie. DVA, Stuttgart 1999.



- Ich und wir. Psychoanalyse des postmodernen Menschen. Dtv, München 2005.

- Erich Fromms kleine Lebensschule. Herder, Freiburg im Breisgau 2007.

- Der entgrenzte Mensch. Warum ein Leben ohne Grenzen nicht frei, sondern abhängig macht. Gütersloher Verlags-Haus, Gütersloh 2011.





الكتاب

تكمن أصالة «الأنا والنحن: التحليل النفسي لإنسان ما بعد الحداثة»، بشهادة العديد من المتخصصين، في كونه أول محاولة علمية جدية استطاعت وصف إنسان ما بعد الحداثة في شموليته، وتحليل الأسس النفسية والاجتماعية التي تحدد هويته، وإزاحة الغطاء على الثقافة المابعد حداثية في تجلياتها الاقتصادية، بدراسة الجذور الإيديولوجية لهذه الثقافة وشرح أخطر ما توصل إليه إنسان زماننا من استلاب وتغريب، عن ذاته وعن الآخرين.

تتشابك العوامل التي أدت إلى تكوين هذا الطبع المجتمعي المابعد حداثي الجديد وتتعقد، مفرزة «توجه أنا» جديد، لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانية، درسه راينر فونك في هذا الكتاب باستفاضة وعمق.

وعلى الرغم من أن الكاتب والكتاب متخصصين، فإن فونك قد نجح في إيصال المضامين المختلفة لموضوع دراسته بلغة أكاديمية عالية الجودة في متناول جمهور عريض من المهتمين، وقد لقي هذا الكتاب إقبالًا كبيرًا عليه في العالم أثناء صدوره، وما يزال محور اهتمام الكثير من الدوائر الأكاديمية.

